



المئة مقالت
في الإيمان الأرثوذكسي
للقدس يوحنا الدمشقي

عنه عن النص اليوناني
الأرثوذكسي أوريجانوس شكور في ب

المُعْتَرِّمَاتُ
فِي الْإِيمَانِ الْارْتُوذَكْسِيِّ

إيضاح موجز في الإيمان الأرثوذكسي
المعروف

بالمئة مقالة

للأب البار يوحنا القسّ (الشيخ) الدمشقيّ

عَرَبِهِ الأَرَشْمَنْدَرِيت أَدْرِانُوسُ شُكُورُ ق ب
عن النسخة اليونانية المنشورة في مجموعة الآباء اليونانيين

Migne, P.G., t 94, Col. 789-1228

وقابله على أحدث طبعة علمية (١٩٧٣) للأب ب. قوثر البندكتي

P.B. KOTTER, O.S.B.,

Institut Byzantin de l'Abbaye de Scheyern

طبعة أولى ١٩٨٤

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة البولسية (لبنان)

سلسلة
الفكر المسيحي بين القديم والحديث

٥

المُعْتَرِمْ مَقَالَاتُ
فِي الْإِيمَانِ لِأَرْثُوذَكْسِيَّ
لِلْقَدِّيسِ يُوْحَنَّا الدَّمَشَقِيِّ

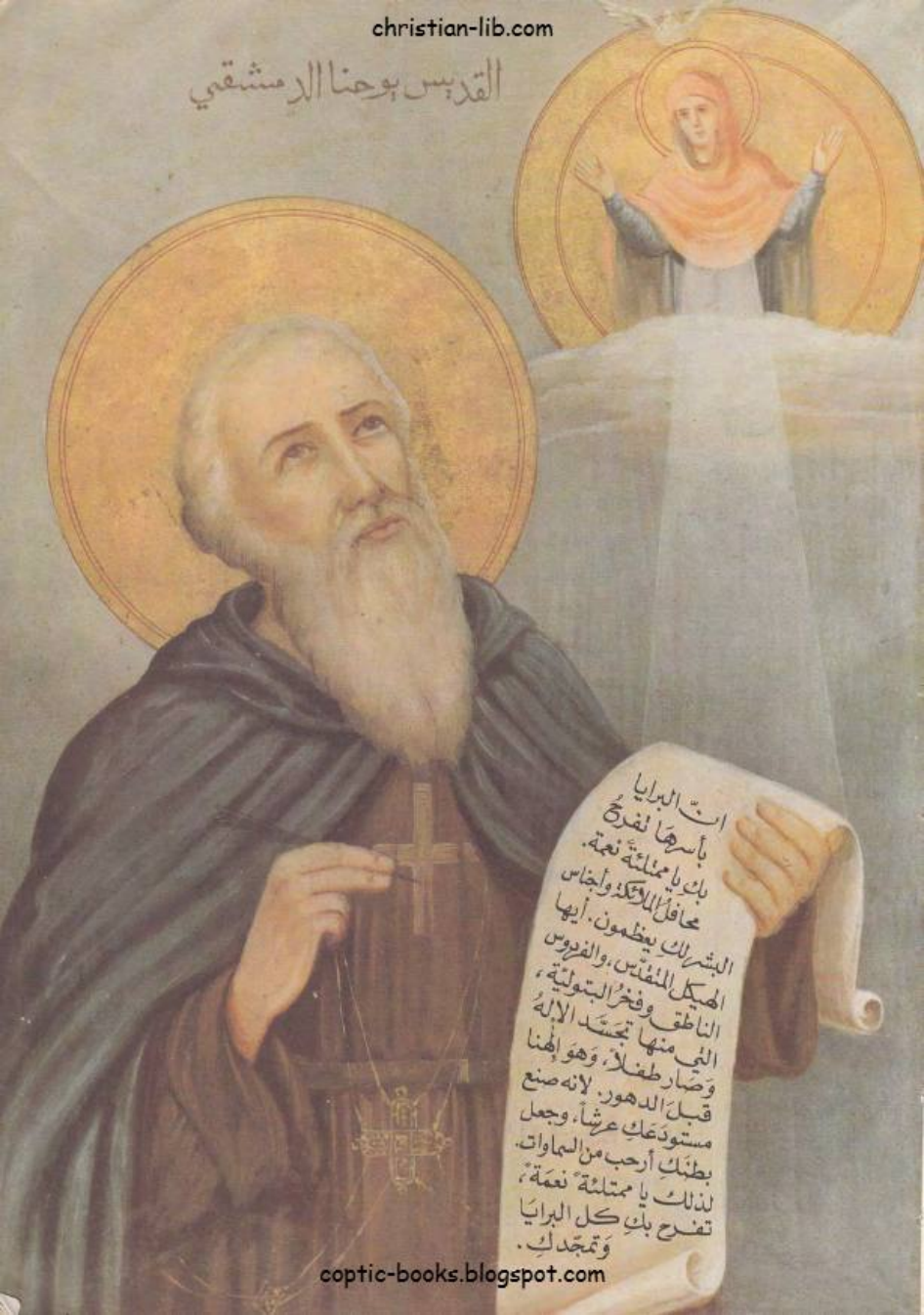
عَرَبِيَّةٌ عَنِ النِّصِّ الْيُونَنِيِّ
الْأَرْمَنْدَرِيَّتِ أَدْرِيَانُوسِ بَكُورِيَّ



مَنْشُورٌ مِنَ الْمَكْتَبَةِ الْبُولُسِيَّةِ

شارع بستان - بيروت - ص.ب. : ٢٢٥٩ - ١١ ليسانس
هاتف : ٢٢٥٨٠٦ - ٢٢١٩٧٣ - ٢٥٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب. : ١٢٥١ ليسانس
هاتف : ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

القدّيس يوحنا الّامشقي



است البرايا
باسمها لنفخر
بك يا ممثلة نعمة.
مخاف الملاك ولجاس
يعظمون. أيها
البشر لك يعظمون
الهيكل المقدس، والفريوس
الناطق وفخر البتولية،
التي منها تجسد الإله
وصار طفلاً، وهو إلهنا
قبل الدهور. لأنه صنع
مستودعك عرشاً، وجعل
بطنك أرحب من السماوات.
لذلك يا ممثلة نعمة،
تفخر بك كل البرايا
وتمجّدك.

لفظ العبارات اليونانية بالفرنسية والعربية

العربية	الفرنسية	اليونانية	صفحة
أينيتس	aïénitos	ἀγέννητος	٦٨
أينيتس	aïénnitos	ἀγέννητος	٦٨
او ثيوس	o Théos	ὁ θεός	٧٤
ثين	thēin	θέειν	٧٤
اين	aithin	αἶθιν	٧٤
ثياسثي	théasthé	θεᾶσθαι	٧٤
مينس	minis	μῆνις	١٢٢
تو مين	to ménin	τό μένειν	١٢٢
كوتس	kotos	κότος	١٢٢
تو كيثي	to kisthai	τό κείσθαι	١٢٢
ميا فيس	{ mia physis	{ Μία φύσις	١٧٠
تو ثيوو لوغو	{ tou Théou Loghou	{ τοῦ Θεοῦ Λόγου	
سيسركوميني	sésarkoméni	σεσαρκωμένη	
ثيوتوكس	Théotokos	Θεοτόκος	١٧٣
خريستوتوكس	Christotokos	Χριστοτόκος	١٧٣
ثيوفورس	Théophoros	Θεοφόρος	١٧٣
غنومي	ghnomi	γνώμη	١٨١
اينيريا	éneriia	ἐνεργεία	١٨٢
اينيرييتكون	éneriitikon	ἐνεργητικόν	١٨٢

العربية	الفرنسية	اليونانية	صفحة
إينيرما	éneriima	ἐνέργημα	١٨٢
أو إينرغون	o énérgchon	ὁ ἐνεργῶν	١٨٢
تو آينتون	to aïeniton	τὸ ἀγένιτον	٢٢٢
ييتون	iéniton	γενητόν	٢٢٢
تو آييتون	to aïéniton	τὸ ἀγέννητον	٢٢٢
ييتون	iéniton	γεννητόν	٢٢٢
إيوسوس	épiousios	ἐπίούσιος	٢٣٧
أنتيبون	antitypon	ἀντίτυπον	٢٣٧



جدول أسفار الكتاب المقدس مع حروفها الاولى

أسفار العهد القديم

سفر طوبيا	طو	سفر الأحبار	اح
نبوة عاموص	عا	سفر الأحبار	١ اخ، ٢ اخ
سفر العدد	عد	نبوة إرميا	ار
سفر عزرا	عز	سفر أستير	اس
نبوة عويديا	عو	نبوة أشعيا	اش
سفر القضاة	قض	سفر الأمثال	ام
مراثي إرميا	مرا	سفر أيوب	أي
سفر الزمير	مز	نبوة باروك	با
سفر المكابيين	١ مك، ٢ مك	سفر تثنية الاشتراع	تث
سفر الملوك (أو ٣، ٤)	١ ملو، ٢ ملو	سفر الجامعة	جا
نبوة ملاخي	ملا	نبوة حبقوق	حب
نبوة ميخا	مي	نبوة حجاي	حج
نبوة نحemia	نح	نبوة حزقيال	حز
نبوة نحوم	نحو	سفر الحكمة	حك
سفر نشيد الأناشيد	نش	سفر الخروج	خر
نبوة هوشع	هو	نبوة دانيال	دا
سفر يشوع بن نون	يش	سفر راعوت	را
نبوة يوشيا	يو	نبوة زكريا	زك
نبوة يونا	يون	سفر يشوع بن سيراخ	سير
سفر يهوديث	يه	نبوة صفيانيا	صف
		سفر صموئيل	١ صم، ٢ صم
		(أو ١ و ٢ ملوك)	

أسفار العهد الجديد

أع	أعمال الرسل	ف	رسالة بولس إلى فيليمون
اف	رسالة بولس إلى الأفسسيين	فيل	رسالة بولس إلى الفيلبيين
١ بط، ٢ بط	رسالتا بطرس		رسالتا بولس إلى الكورنثيين
١ تس، ٢ تس	رسالتا بولس إلى التسالونيكيتين	١ كور، ٢ كور	رسالة بولس إلى الكولسيين
تيط	رسالة بولس إلى تيطس	كول	إنجيل لوقا
١ تيم، ٢ تيم	رسالتا بولس إلى تيموثاوس	لو	إنجيل متى
روم	رسالة بولس إلى الرومانيين	متى	إنجيل مرقس
رؤ	رؤيا يوحنا	مر	رسالة يعقوب
عب	الرسالة إلى العبرانيين	يع	رسالة يهوذا
غلا	رسالة بولس إلى الغلاطيين	يو	إنجيل يوحنا
		١ يو، ٢ يو، ٣ يو	رسائل يوحنا



المراجع

(بحسب تاريخ النشر)

- العربية : (١) لويس هوكه ، ترجمة القديس يوحنا الدمشقي ، بيروت ١٨٩٨
 (٢) قسطنطين باشا ، سيرة القديس يوحنا الدمشقي الأصلية ، في «المسرة» (١٩١٢) ،
 ص ٢٨١ - ٢٨٨ ، ٣٣٤ - ٣٤٣ ، ٣٧٥ - ٣٨٥
 (٣) الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي ، حريصا ، ١٩٥٠

الأجنبية :

- 4) F. A. PERRIER, *Jean Damascène, sa vie et ses écrits*, Strasbourg, 1863.
- 5) *St Jean Damascène, notes historiques*, par un Père de la Compagnie de Jésus, Beyrouth, 1898.
- 6) C. BERTANI, *Vita di S. Giovanni Damasceno*, Monza 1899.
- 7) V. ERMONI, *St Jean Damascène*, Paris 1904.
- 8) D. AINSLEE, *John of Damascus*, London 1906.
- 9) P.S. VAILHE, *La date de la mort de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* (1906) 28-30.
- 10) G. GRAF, *Das arabische Original de Vita des hl. Johannes von Damaskus*, in *Der Katholik* 93 (1913) 165.
- 11) E. HOCEDEZ, *La diffusion de la Translatio Lincolniensis du «De Orthodoxa fide» de St. Jean Damascène*, in *Bulletin d'anc. Litt. et arch. chrétiennes* (1913) 189-198.
- 12) M. JUGIE, *La vie de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* 23 (1924) 136-161.
- 13) IDEM, *Une nouvelle vie et un nouvel écrit de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* 28 (1929) 35-41.
- 14) J. NASRALLAH, *St Jean Damascène, son époque, sa vie, son oeuvre*, Liban, 1950.
- 15) B. HEMMERDINGER, *La vita arabe de St Jean Damascène et BHG 884*, in *Orientalia Christiana Periodica* 28 (1962) 422-423.
- 16) J.M. SAUGET, *Giovanni Damasceno*, in *Bibliotheca Sanctorum*, vol. VII (1965) 732-739.

- 17) R. MIMINOŠVILI, *Expositio accurata fidei Orthodoxae* Joane Damaselis, Tbilisi, 1966.
- 18) B. STÜDER, art. «Jean Damascène», in *Dict. de Spiritualité*, vol. 8, col. 452 (1974).
- 19) H. LECLERCQ, art. «Jean Damascène», in *Dict. d'Archéologie et Lit. Chrét.*, vol. 7, col. 2186-2190.
- 20) K. ROSEMOND, *Quelques lumières sur la vie de St Jean Damascène*, (à paraître).

EDITIONS

(pour les éditions avant le XVIIIe s., cf. J. NASRALLAH, *St Jean...*, p.161).

- A) M.LE QUIEN, 2 vol. Œuvres de St Jean Damascène (en latin) (trad. grecque 1712).
- B) J. P. MIGNE, P.G. vol. 94/96 (trad. grecque et latine 1864).
- C) D. STIEFENHOFER, *De fide Orthodoxa*, in *Bibliothek der kichenvöter* n° 44, 1923 (trad. allemande) Munich.
- D) R.I. SZIGETI, *Translatio latina saec. XII in Hungaria confecta*, Budapest 1940 (trad. latine).
- E) E.M. BUYTAERT, *De Fide Orthodoxa ad opera di Cerbanus e Burgundio*, Louvain/Paris 1955 (trad. latine).
- F) E. PENSOYE, *La foi orthodoxe suivie de la défense des icônes*, Paris 1966.
- G) B. KOTTER, *Expositio fidei*, in *Patristische texte und Studien* 12, Berlin, 1973.



فهرس الكتاب

٣٥	مقدمة																														
٤٥	كلمة المعرب																														
٤٨	مقدمة المؤلف																														
٥١	الكتاب الأول : الله تعالى																														
	<table> <tr> <th>المقالة الأولى</th> <th>الرأس الأول</th> </tr> <tr> <td>٥٥</td> <td>- في أن الإله لا يدرك ، وفي أنه ينبغي ألا نبحث ولا ندقق في ما لم تتسلمه من الأنبياء والإنجيليين القديسين</td> </tr> <tr> <th>المقالة الثانية</th> <th>الرأس الثاني</th> </tr> <tr> <td>٥٦</td> <td>- في ما يُعبر وما لا يُعبر عنه وفي ما يُعرف وما لا يُعرف</td> </tr> <tr> <td>٥٦</td> <td>١ - في ما نستطيع فهمه في الله دون التعبير عنه</td> </tr> <tr> <td>٥٦</td> <td>٢ - ما يمكننا فهمه والتعبير عنه</td> </tr> <tr> <td>٥٦</td> <td>٣ - ما لا نستطيع فهمه ولا النطق به</td> </tr> <tr> <th>المقالة الثالثة</th> <th>الرأس الثالث</th> </tr> <tr> <td>٥٧</td> <td>- البرهان على أن الله موجود</td> </tr> <tr> <td>٥٧</td> <td>١ - معظم الأمم تعترف بوجود الله</td> </tr> <tr> <td>٥٧</td> <td>٢ - البرهان العقلي على وجود الله</td> </tr> <tr> <td>٥٨</td> <td>٣ - البرهان الثاني من حفظ الكائنات وسياستها</td> </tr> <tr> <td>٥٨</td> <td>٤ - البرهان الثالث من تركيب الكون</td> </tr> <tr> <th>المقالة الرابعة</th> <th>الرأس الرابع</th> </tr> <tr> <td>٥٩</td> <td>- ما هو الله ؟ - إنه غير مُدرك</td> </tr> </table>	المقالة الأولى	الرأس الأول	٥٥	- في أن الإله لا يدرك ، وفي أنه ينبغي ألا نبحث ولا ندقق في ما لم تتسلمه من الأنبياء والإنجيليين القديسين	المقالة الثانية	الرأس الثاني	٥٦	- في ما يُعبر وما لا يُعبر عنه وفي ما يُعرف وما لا يُعرف	٥٦	١ - في ما نستطيع فهمه في الله دون التعبير عنه	٥٦	٢ - ما يمكننا فهمه والتعبير عنه	٥٦	٣ - ما لا نستطيع فهمه ولا النطق به	المقالة الثالثة	الرأس الثالث	٥٧	- البرهان على أن الله موجود	٥٧	١ - معظم الأمم تعترف بوجود الله	٥٧	٢ - البرهان العقلي على وجود الله	٥٨	٣ - البرهان الثاني من حفظ الكائنات وسياستها	٥٨	٤ - البرهان الثالث من تركيب الكون	المقالة الرابعة	الرأس الرابع	٥٩	- ما هو الله ؟ - إنه غير مُدرك
المقالة الأولى	الرأس الأول																														
٥٥	- في أن الإله لا يدرك ، وفي أنه ينبغي ألا نبحث ولا ندقق في ما لم تتسلمه من الأنبياء والإنجيليين القديسين																														
المقالة الثانية	الرأس الثاني																														
٥٦	- في ما يُعبر وما لا يُعبر عنه وفي ما يُعرف وما لا يُعرف																														
٥٦	١ - في ما نستطيع فهمه في الله دون التعبير عنه																														
٥٦	٢ - ما يمكننا فهمه والتعبير عنه																														
٥٦	٣ - ما لا نستطيع فهمه ولا النطق به																														
المقالة الثالثة	الرأس الثالث																														
٥٧	- البرهان على أن الله موجود																														
٥٧	١ - معظم الأمم تعترف بوجود الله																														
٥٧	٢ - البرهان العقلي على وجود الله																														
٥٨	٣ - البرهان الثاني من حفظ الكائنات وسياستها																														
٥٨	٤ - البرهان الثالث من تركيب الكون																														
المقالة الرابعة	الرأس الرابع																														
٥٩	- ما هو الله ؟ - إنه غير مُدرك																														

فهرس الكتاب

- ٥٩ - ١ - ستّ صفات في الله تدلّ على أن لا جسم له
 ٥٩ - ٢ - يزعم الرواقيون أن الله جسم غير مادّي ، وهو الجوهر الخامس
 ٥٩ - ٣ - الصفة «لاجسمي» لا تفيد شيئاً عن الله
 ٦٠ - ٤ - في التكلم عن الله ، الإقرار بعدم المعرفة هو الأفضل

المقالة الخامسة

الرأس الخامس

- ٦١ - البرهان على أن الله واحد لا كثرة
 ٦١ - إيضاح منطقيّ بأنّ الله واحد

المقالة السادسة

الرأس السادس

- ٦٢ - إيضاح منطقيّ في الكلمة ابن الله
 ٦٢ - مقابلة بين كلمة الله والكلمة البشريّة

المقالة السابعة

الرأس السابع

- ٦٣ - إيضاح منطقيّ في الروح القدس
 ٦٣ - ١ - مقابلة بين الروح الإلهيّ والروح البشري
 ٦٣ - ٢ - أدلّة من كتاب العهد العتيق على وجود الكلمة والروح

المقالة الثامنة

الرأس الثامن

- ٦٥ - في الثالث الأقدس
 ٦٥ - ١ - إيماننا بالإله الواحد
 ٦٥ - ٢ - إيماننا بالآب والإبن
 ٦٦ - ٣ - مقابلة بين الولادة الإلهيّة والمخلّق
 ٦٧ - ٤ - الفرق بين الولادة الإلهيّة والولادة البشريّة
 ٦٧ - ٥ - في الآب والإبن
 ٦٧ - ٦ - لماذا الإبن يُسمّى كلمة وبهاء وصورة ، ولماذا يسمّى الوحيد؟
 ٦٨ - ٧ - الاختلاف بين كلمتيّ غير مخلوق وغير مولود اليونانيّتين
 ٦٩ - ٨ - كيف الآب أعظم من الإبن وكيف الكلمة ليس آله للآب
 ٦٩ - ٩ - في الروح القدس - لا نعلم كيفية التمييز بين الولادة والانبثاق
 ٧٠ - ١٠ - اختصاصات الأقانيم
 ٧٠ - ١١ - لا تركيب في الثالث
 ٧٠ - ١٢ - كيف الثلاثة إله واحد

١٣ - في التمييز بين الأقانيم الثلاثة

١٤ - لذلك نقول بطبيعة إلهية واحدة وبأقانيم ثلاث لا ينقسم وبرجوع الابن

والروح إلى مبدأ واحد

المقالة التاسعة

الرأس التاسع

- المقولات في الله

«الكائن» هو اسم الله الأكثر اختصاصاً

المقالة العاشرة

الرأس العاشر

- في الاتحاد والتمييز الإلهيين

المقالة الحادية عشرة

الرأس الحادي عشر

- في الصفات الجسمية الموقولة في الله

المقالة الثانية عشرة

الرأس الثاني عشر

- في الموضوع نفسه

المقالة الثالثة عشرة

الرأس الثالث عشر

- في مكان الله وفي أَنَّ الله وحده غير محدود

١ - المكان الجسماني

٢ - المكان العقلائي

٣ - في مكان الملائكة والنفس

٤ - في الله الآب، وفي الابن، وفي الروح القدس. - وفي الكلمة والروح

المقالة الرابعة عشرة

الرأس الرابع عشر

- ميزات الطبيعة الإلهية

الكتاب الثاني: المخلوقات

المقالة الخامسة عشرة

الرأس الأول

- في الدهر

١ - دهور الحياة الحاضرة السبعة والثامن هو الدهر الآتي

٢ - دهور الدهور. - الحكم على تجديد أوريجينيس

المقالة السادسة عشرة

الرأس الثاني

٨٩

- في الخليقة

المقالة السابعة عشرة

الرأس الثالث

٩٠

- في الملائكة

٩٠

١ - خلق الملائكة وطبيعتهم

٩٠

٢ - الملاك لا جسم له

٩٠

٣ - يتمتع الملاك بحرية الرأي

٩٠

٤ - الملاك غير قابل للتوبة

٩٠

٥ - الملاك خالد ليس بالطبيعة بل بالنعمة

٩٠

٦ - الملائكة نيرات ثانية

٩١

٧ - الملائكة محدودون

٩١

٨ - مكان الملائكة

٩١

٩ - لا يتضح أن الملائكة متساوون في الجوهر

٩١

١٠ - يتولى الملائكة الشؤون البشرية

٩١

١١ - يصعب تحركهم نحو الشر

٩١

١٢ - طعام الملائكة

٩٢

١٣ - ظهورات الملائكة

٩٢

١٤ - رتب الملائكة

٩٢

١٥ - متى خلق الله الملائكة

٩٢

١٦ - لم يكن الملائكة قط خالقين

المقالة الثامنة عشرة

الرأس الرابع

٩٣

- في إبليس والشياطين

٩٣

١ - أصل الشياطين من رتبة دنيا من الملائكة

٩٣

٢ - لا يستطيع الشياطين شيئاً إلا بإذن الله

٩٣

٣ - بأي صفة يتنبأ الملائكة عن المستقبلات

٩٣

٤ - لا يستطيع الشياطين إكراه الإنسان

٩٤

٥ - على نحو ما هو الموت للإنسان تكون السقطة للملاك

المقالة التاسعة عشرة

الرأس الخامس

٩٥

- في الخليقة المنظورة

المقالة العشرون

الرأس السادس

- في السماء ٩٦
- ١ - آراء في طبيعة السماء ٩٦
- ٢ - السماء شكلها كروي ٩٦
- ٣ - حركة السماء دورية ٩٧
- ٤ - السيارات السبع وأفلاكها ٩٧
- ٥ - يرى بعضهم أن يثبتوا بأن السماء ليست كروية من كل جهاتها ٩٧
- ٦ - السماوات ثلاث ٩٨
- ٧ - السماوات من طبيعتها قابلة للفساد ٩٨
- ٨ - السماوات ليست حية ٩٨

المقالة الحادية والعشرون

الرأس السابع

- في النور والنار والثيرين أي الشمس والقمر والكواكب ١٠٠
- ١ - النهار والليل في أيام الخليقة الثلاثة الأولى وفي باقي الأيام ١٠٠
- ٢ - السيارات السبع ١٠١
- ٣ - فصول السنة الأربعة. - كان خلق العالم في الربيع ١٠١
- ٤ - سير القمر هو الأقصر ١٠٣
- ٥ - ضد التنجيم ١٠٣
- ٦ - ما نعرفه من النجوم ١٠٣
- ٧ - لماذا أراد الله أن يستمد القمر نوره من الشمس؟ ١٠٤
- ٨ - سبب كسوف الشمس وخسوف القمر ١٠٤
- ٩ - الأشهر القمرية والأشهر الشمسية. - خلق الله القمر بدرًا ١٠٤
- ١٠ - حركة الأبراج ١٠٥

المقالة الثانية والعشرون

الرأس الثامن

- في الهواء والريح ١٠٧
- ١ - الهواء خال من النور ١٠٧
- ٢ - ما هو الريح؟ ١٠٧
- ٣ - مكان الهواء وعدد الرياح ١٠٧

المقالة الثالثة والعشرون

الرأس التاسع

- في المياه ١٠٨

فهرس الكتاب

- ١ - وصف الماء - الغاية من وجود الماء فوق الجلد ١٠٨
- ٢ - البحار ١٠٨
- ٣ - الأوقيانوس الذي يحيط بالأرض من كل جهة - سبب ملوحتها ١٠٨
- ٤ - أنهر الفردوس الأربعة - ماء الينابيع والينابيع - المياه الساخنة ١٠٨
- ٥ - السمك والطيور ١٠٩
- الرأس العاشر
- المقالة الرابعة والعشرون
- في الأرض وفي ما هو منها ١١٠
- ١ - لا يعرف أساس الأرض ١١٠
- ٢ - حالة الأرض في بدء تكوينها ١١٠
- ٣ - كل شيء كان مهبطاً للإنسان ١١١
- ٤ - التفرّد عليه بعد سقطته - الفائدة من الوحوش ١١١
- ٥ - وكان أمر الله بأن يستمر كل شيء بقوته الفطرية ١١١
- ٦ - صورة الأرض وحجمها ١١١
- الرأس الحادي عشر
- المقالة الخامسة والعشرون
- في الفردوس ١١٢
- ١ - الفردوس قصر ملكي للإنسان ١١٢
- ٢ - لماذا غرست شجرة المعرفة ١١٢
- ٣ - لماذا شجرة الحياة - الفردوس الحسي والفردوس العقلائي - عود الحياة وكلّ عود ١١٣
- ٤ - عود المعرفة ١١٣
- ٥ - «كلّ عود» - معرفة الله من مبروءاته ١١٣
- ٦ - عود الحياة تعبير أيضاً عن الصلاح والطعام الحسيّ يؤدي إلى الموت ١١٤
- الرأس الثاني عشر
- المقالة السادسة والعشرون
- في الإنسان ١١٥
- ١ - ضلال أوريجينيس المستقى من طباوس ١١٥
- ٢ - مواهب الإنسان في بدء خلقه ١١٥
- ٣ - الإنسان مخلوق بلا خطيئة وذو إرادة حرة ١١٦
- ٤ - في النفس ١١٦
- ٥ - ليست اللاجسمية على السواء في الجميع ١١٦

- ١١٦ - ٦ في الجسد
- ١١٦ ٧ - الأخلاط الأربعة قريبة بصفاتها من العناصر الأربعة
- ١١٧ ٨ - للإنسان اشتراك مع الجوامد والحيوانات والناطقين
- ١١٧ ٩ - اختصاصات النفس والجسد
- ١١٧ ١٠ - العاقل من طبعه التسلّط على غير العاقل. - وقوى النفس خاضعة أو غير خاضعة للعقل
- ١١٧ ١١ - أنواع القوى الحيوانية المختلفة
- ١١٨ ١٢ - الأعمال الصالحة والطالحة
- المقالة السابعة والعشرون الرأس الثالث عشر
- ١١٩ - في اللذات
- ١١٩ ١ - التمييز بين اللذات
- ١١٩ ٢ - مقياس صلاح اللذة
- المقالة الثامنة والعشرون الرأس الرابع عشر
- ١٢٠ - في الحزن
- المقالة التاسعة والعشرون الرأس الخامس عشر
- ١٢١ - في الخوف
- المقالة الثلاثون الرأس السادس عشر
- ١٢٢ - في الغضب
- المقالة الحادية والثلاثون الرأس السابع عشر
- ١٢٣ - في المحبة
- المقالة الثانية والثلاثون الرأس الثامن عشر
- ١٢٤ - في الحسّ
- ١٢٤ ١ - الحسّ الأول هو النظر
- ١٢٤ ٢ - الحسّ الثاني هو السمع
- ١٢٤ ٣ - الحسّ الثالث هو الشمّ
- ١٢٤ ٤ - الحسّ الرابع هو الذوق
- ١٢٤ ٥ - الحسّ الخامس هو اللمس

المقالة الثالثة والثلاثون	الرأس التاسع عشر	- في التفكير
١٢٦		
المقالة الرابعة والثلاثون	الرأس العشرون	- في الذاكرة
١٢٧		
١٢٧	١ - تحديد الذاكرة	
١٢٧	٢ - كيف تتكوّن الذاكرة	
١٢٧	٣ - ما هو التذكّر	
المقالة الخامسة والثلاثون	الرأس الحادي والعشرون	- في الكلمة الداخلية والكلمة الخارجية
١٢٨		
المقالة السادسة والثلاثون	الرأس الثاني والعشرون	- في الانفعال والفعل
١٢٩		
١٢٩	١ - الانفعال كلمة مبهمّة	
١٢٩	٢ - ما هو انفعال النفس	
١٢٩	٣ - الحركة نفسها انفعال وفعل	
١٢٩	٤ - قوى النفس المزدوجة، العارفة منها والناشطة	
١٣٠	٥ - القوى الراغبة - تحديد الإرادة	
١٣٠	٦ - إرادة شيء ما طبيعياً	
١٣١	٧ - فعل الإرادة هو غايتها وهو موضوع الإرادة	
١٣١	٨ - الإرادة مفقودة في البهائم	
١٣١	٩ - في الإرادة الإلهية	
١٣١	١٠ - وكذلك في نفس الرب	
المقالة السابعة والثلاثون	الرأس الثالث والعشرون	- في الفعل
١٣٣		
المقالة الثامنة والثلاثون	الرأس الرابع والعشرون	- في ما هو طوعيّ وغير طوعيّ
١٣٤		
المقالة التاسعة والثلاثون	الرأس الخامس والعشرون	- في ما هو في استطاعتنا - أي في الحرية
١٣٦		

٢١	فهرس الكتاب
١٣٦	• تساؤلات في الحرية
١٣٧	الرأس السادس والعشرون المقالة الأربعون
١٣٧	- في الحوادث
١٣٧	• في ما هو باختيارنا. - في ما هو غير لازم. - لنا دائماً حرية الاختيار لا العمل
١٣٨	الرأس السابع والعشرون المقالة الحادية والأربعون
١٣٨	- في سبب وجودنا أحراراً
١٣٨	١ - المخلوقات متغيرة من طبيعتها. - الحرية تلازم العقل. - لا حرية لدى البهائم
١٣٨	٢ - الملائكة أحرار. - وهم منحولون، لأنهم مخلوقون
١٣٩	الرأس الثامن والعشرون المقالة الثانية والأربعون
١٣٩	- في ما هو ليس في استطاعتنا
١٣٩	ما ليس في استطاعتنا منوط بالله وحده
١٤٠	الرأس التاسع والعشرون المقالة الثالثة والأربعون
١٤١	- في العناية
١٤١	١ - لماذا يتخلى الله عن البعض
١٤١	٢ - يعود إلينا انتخاب الخير والشر. - وعلى العناية النتيجة الحتمية
١٤١	٣ - التخلي التدبيري والتخلي الكامل
١٤٢	٤ - السماح الإلهي على نوعين
١٤٢	٥ - أن الله لا يريد الشر مطلقاً. - لكنه يسمح به
١٤٣	الرأس الثلاثون المقالة الرابعة والأربعون
١٤٣	- في سابق المعرفة والاختيار
١٤٣	١ - يسبق الله ويعلم كل شيء ولا يسبق فيحدد كل شيء
١٤٣	٢ - زرع الله الفضيلة في طبيعتنا أي هي غريزة وعلى قدر إمكان ممارستها
١٤٣	٣ - خلقت المرأة لنشر ذرية الإنسان المحكوم عليه بالموت
١٤٤	٤ - حالة الإنسان في الفردوس وسقطته
١٤٤	٥ - سبب تجربة آدم

١٤٧ الكتاب الثالث : سرُّ التدبير الإلهي

المقالة الخامسة والأربعون

الرأس الأول

- ١٥١ - في تدبير الله تعالى وفي اهتمامه بنا وبخلاصنا
- ١٥١ ١ - نتائج معصية وصية الله في الفردوس
- ١٥١ ٢ - مبادرة الله باستدعاء الإنسان إلى التوبة
- ١٥٢ ٣ - إعلان التدبير الإلهي بشأننا

المقالة السادسة والأربعون

الرأس الثاني

- ١٥٣ - في كيفية الحبل بالكلمة وفي التجسد الإلهي
- ١٥٣ ١ - البشارة
- ١٥٣ ٢ - تمّ التجسد الإلهي على أثر التبشير. - كيفيته

المقالة السابعة والأربعون

الرأس الثالث

- ١٥٥ - في الطبيعتين ، ضدّ ذوي الطبيعة الواحدة
- ١٥٥ ١ - تعليم الكنيسة
- ١٥٦ ٢ - كيفية اتحاد الطبيعتين في المسيح
- ١٥٧ ٣ - تبادل الاختصاصات في المسيح الإله والإنسان

المقالة الثامنة والأربعون

الرأس الرابع

- ١٥٨ - في كيفية تبادل العطاء أو المقايضة
- ١٥٨ ١ - الأسماء العامة والخاصة
- ١٥٨ ٢ - استعمالها في الكلام عن المسيح
- ١٥٨ ٣ - لا محلّ للمقايضة في ما يتعلّق بالطبيعتين ، بل في ما يتعلّق بالأقنوم

المقالة التاسعة والأربعون

الرأس الخامس

- ١٦٠ - في عدد الطبائع
- ١٦٠ ١ - عدد الأقانيم في الله
- ١٦٠ ٢ - عدد الطبائع في المسيح

فهرس الكتاب

٢٣

١٦٠

٣ - اتحاد الأقانيم والطبايع لا يزيل عددها

المقالة الخمسون

الرأس السادس

- في أن الطبيعة الإلهية كلها، في أحد أقانيمها، اتحدت بالطبيعة البشرية كلها

١٦٢

وليس جزء منها بجزء

١٦٢

١ - الجوهر والطبيعة كلاهما بكاملهما في الأقانيم

٢ - في المسيح يتحد اللاهوت كله بالناسوت كله. - والطبيعة البشرية المتخذة

١٦٢

هي على مثال تلك المحبولة أولاً

١٦٣

٣ - للعقل الرئاسة في الإنسان

١٦٣

٤ - الطبيعة البشرية في المسيح خاصة لا عامة

١٦٣

٥ - كيف لم تتألم طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسدة

المقالة الحادية والخمسون

الرأس السابع

١٦٤

- في أقنوم كلمة الله الواحد المركب

١٦٤

١ - أقنوم الكلمة قبل التجسد وبعده

١٦٤

٢ - أقنوم الكلمة البسيط أضحي بالتجسد مركباً

١٦٤

٣ - ولادة المسيح من أمه لأجلنا تفوقنا

١٦٥

٤ - طبيعة كلمة الله الواحدة والمتجسدة

١٦٥

٥ - نفوذ الطبعيتين في المسيح إنما هو من قبل اللاهوت

المقالة الثانية والخمسون

الرأس الثامن

١٦٦

- ردّ على القائلين: - في تحديد عدد الطبايع هل يعتبر اتصاها أو انفصاها؟

١٦٦

١ - إن ساويرس في برهانه يتجاوز الهدف

١٦٦

٢ - التمييز في طبيعتي المسيح

١٦٦

٣ - كيف السجود لجسد المسيح

المقالة الثالثة والخمسون

الرأس التاسع

١٦٧

- ردّ على من يسأل إذا كان ثمة طبيعة خالية من أقنوم

المقالة الرابعة والخمسون

الرأس العاشر

١٦٨

- في النشيد المثلث التقديس

١٦٨

١ - الإضافة المنسوبة إلى بطرس القصار

فهرس الكتاب

- ٢ - الأسماء الإلهية العامة ١٦٨
 ٣ - النشيد المثلث التقديس موجه إلى الثالوث الأقدس ، لا إلى الإبن وحده ١٦٨
 ٤ - تقليد الكنيسة عن هذا النشيد في عهد بروكلس الحبر ١٦٩

الرأس الحادي عشر المقالة الخامسة والخمسون

- في الطبيعة نظراً إلى النوع وإلى الفرد. - وفي الفرق بين الاتحاد والتجسد وفي مفهوم «طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسدة» ١٧٠
 ١ - معاني الطبيعة ثلاثة ١٧٠
 ٢ - الفرق بين الاتحاد والتجسد ١٧٠
 ٣ - إيضاح لكيرلس نفسه عن «طبيعة الكلمة الواحدة المتجسدة» ١٧٠
 ٤ - نخبة من التعابير المعتاد سماعها والمقبولة ١٧١

الرأس الثاني عشر المقالة السادسة والخمسون

- في أن البنول القدسية والدة الله ، خلافاً للنساطرة ١٧٢
 ١ - القدسية مريم هي بالحقيقة والحق والدة الإله ١٧٢
 ٢ - جسد المسيح قد تكون من مريم ١٧٢
 ٣ - تسمية مريم والدة الإله توضح السر بكامله ١٧٣
 ٤ - تحب الآباء تسميتها «والدة المسيح» ١٧٣
 ٥ - في أثناء الجدل به اتحدت الطبيعة البشرية بالكلمة ١٧٣

الرأس الثالث عشر المقالة السابعة والخمسون

- في خصائص الطبيعتين ١٧٥
 ٥. في أن في المسيح مشيتين وفعلين ١٧٥

الرأس الرابع عشر المقالة الثامنة والخمسون

- في ازدواجية مشيئة ربنا يسوع المسيح وحرية تصرفه ١٧٦
 ١ - لكل جوهر إرادته وفعله ١٧٦
 ٢ - مرد المشيئة والفعل تجريداً للطبيعة ، وبالواقع للأقنوم ١٧٦
 ٣ - معاني المشيئة ومشتقاتها ١٧٧
 ٤ - المشيئة في المسيح مزدوجة. أما كيفيتها فواحدة ١٧٧
 ٥ - الإرادة طبيعية في الإنسان ١٧٧

- ١٧٨ - ٦ - ما الحرية إلا الإرادة نفسها
 ١٧٩ - ٧ - طاعة المسيح دليل على إرادته وخضوعه
 ١٧٩ - ٨ - الإرادة الطبيعية حرة
 ١٧٩ - ٩ - الحرية في الله شيء وفي الملائكة شيء آخر وفي البشر شيء آخر
 ١٨٠ - ١٠ - لماذا وجب أن يتخذ الكلمة الإرادة البشرية الحرة
 ١٨٠ - ١١ - لا يمكن تأليف مشيئة تكون إلهية وبشرية معاً
 ١٨٠ - ١٢ - في المسيح لا عزم ولا اختيار سابقان بالمعنى الحضري

المقالة التاسعة والخمسون

الرأس الخامس عشر

- في أن في ربنا يسوع المسيح فعلين
 ١٨٢ - ١ - فعل المسيح مزدوج طبعاً
 ١٨٢ - ٢ - تحديد الفعل ومشتقاته
 ١٨٢ - ٣ - أنواع الفعل الأخرى نظراً إلى الاتحاد الحاصل في المسيح
 ١٨٣ - ٤ - نتيجة الطبيعتين تمييز الأفعال
 ١٨٤ - ٥ - اعتراضات الأخصام والرد عليها
 ١٨٥ - ٦ - مثل مألوف لدى باسيليوس وغيره
 ١٨٥ - ٧ - الفعل الطبيعي دليل على الطبيعة
 ١٨٦ - ٨ - آلام المسيح فعل
 ١٨٦ - ٩ - مرد أفعال المسيح عموماً إلى صورتين كليتيهما
 ١٨٧ - ١٠ - كان الناسوت بفعل بمبادرة من اللاهوت
 ١٨٧ - ١١ - كان المسيح بنجز البشريات بطريقة إلهية والإنبيات بطريقة بشرية
 ١٨٧ - ١٢ - جواب ذوي المشيئة الواحدة
 ١٨٨ - ١٣ - الأسماء المختلفة الدالة على الفعل البشري

المقالة الستون

الرأس السادس عشر

- الرد على من إذا قالوا بطبيعتين وفعلين في الإنسان ،
 ١٨٩ يجب القول بثلاث طبائع وكذلك بثلاثة أفعال في المسيح
 ١٨٩ - ١ - كيف الإنسان هو من طبيعتين
 ١٨٩ - ٢ - كل البشر من طبيعة واحدة أي من نوع واحد. وكل المخلوقات كذلك. أما
 المسيح فليس البتة من طبيعة واحدة.
 ١٩٠ - ٣ - إذا كنّا نحن من طبيعتين ، فالمسيح هو من ثلاث طبائع

فهرس الكتاب

- الرأس السابع عشر المقالة الحادية والستون
- ١٩١ - في تأله طبيعة جسد الرب ومشيئته
- ١٩١ ١ - في تأله جسد المسيح
- ١٩١ ٢ - في أن المشيئة البشرية قد تألّحت أيضاً
- الرأس الثامن عشر المقالة الثانية والستون
- ١٩٣ - عودة إلى الكلام عن المشيئين والاستطاعتين والعقلين والمعرفتين والحكمتين
- ١٩٣ ١ - إن الطبيعة البشرية ، وقد اتخذها المسيح ، قد أوضحت هي المتصورة على الشيطان
- ١٩٣ ٢ - إن للمسيح نفساً وعقلاً ، خلافاً لقول الأبوليناريين
- ١٩٣ ٣ - العقل في الإنسان المخلوق على صورة الله وسط بين كلمة الله والجسد
- ١٩٣ ٤ - جواب من الكتاب المقدس على اعتراض الأبوليناريين
- ١٩٤ ٥ - إرادة المسيح البشرية خاضعة لإرادته الإلهية
- ١٩٥ ٦ - لا قيمة لعقل الإنسان إذا خلا من الإرادة
- ١٩٥ ٧ - التمييز في المسيح بين الإرادتين الإلهية والبشرية
- الرأس التاسع عشر المقالة الثالثة والستون
- ١٩٦ - في الفعل الإلهي - البشري
- ١٩٦ ١ - شرح تعبير القديس ديونيسيوس في هذا الباب
- ١٩٦ ٢ - عقل المسيح البشري بالنسبة إلى اشتراكه بالكلمة
- ١٩٧ ٣ - فعل المسيح الإلهي - البشري
- الرأس العشرون المقالة الرابعة والستون
- ١٩٨ - في الآلام الطبيعية والبريئة
- ١٩٨ ١ - لقد اتخذ المسيح آلامنا البريئة . - ما هي الآلام البشرية الطبيعية التي لا ملامة فيها
- ١٩٨ ٢ - كانت تجربة المسيح بدون نزعة داخلية
- ١٩٨ ٣ - إن آلامنا هي في المسيح طبيعية وفوق الطبيعة
- الرأس الحادي والعشرون المقالة الخامسة والستون
- ١٩٩ - في الجهل والعبودية

- ١ - إن نفس المسيح ، نتيجة لاثحادها بلاهوت الكلمة ، قد تحرّرت من كلّ
١٩٩ جهل
- ٢ - لا يمكن القول بأنّ المسيح عبد ، رغم أنّ الطبيعة التي اتّخذها عبدة بعد ذاتها
١٩٩
- الرأس الثاني والعشرون المقالة السادسة والسّتون
- ٢٠١ - في التقدّم (في المسيح)
- ٢٠١ " تقدّم المسيح في الحكمة والسّنّ والنعمة
- الرأس الثالث والعشرون المقالة السابعة والسّتون
- ٢٠٢ - خوف المسيح
- ٢٠٢ ١ - الخوف نوعان : الخوف الطبيعي كما هو في المسيح
- ٢٠٢ ٢ - والخوف غير الطبيعي الذي لم يرتض به المسيح
- الرأس الرابع والعشرون المقالة الثامنة والسّتون
- ٢٠٤ - في صلاة الربّ
- ٢٠٤ " ما هي الصلاة ، وما معنى أنّ المسيح قد صلّى
- الرأس الخامس والعشرون المقالة التاسعة والسّتون
- ٢٠٦ - الاختصاص
- الرأس السادس والعشرون المقالة السبعون
- ٢٠٧ - في آلام جسد الربّ ، وعدم آلام لاهوته
- الرأس السابع والعشرون المقالة الحادية والسبعون
- ٢٠٨ - في بقاء لاهوت الكلمة غير منفصل عن النفس والجسد حتّى في موت الربّ وفي بقاء
الأقنوم واحدًا
- ٢٠٨ " أقنوم المسيح واحد ليس بعدّ ذاته ورغم تجرّبه
- الرأس الثامن والعشرون المقالة الثانية والسبعون
- ٢٠٩ - في البلى والفساد
- ٢٠٩ " هرطقة يوليانوس وغايوس
- الرأس التاسع والعشرون المقالة الثالثة والسبعون
- ٢١٠ - في انحذار المخلّص إلى الجحيم

٢١١ الكتاب الرابع : من ثمار التدبير الإلهي ومُلحقاته

الرأس الأول المقالة الرابعة والسبعون

٢١٥ - في ما تجدد بعد القيامة

• ملحقات القيامة : لا يتألم المسيح بعد القيامة . كيف اتخذ طعاماً بعد القيامة

٢١٥ كلّ البشريّات متضمّنة فيه

الرأس الثاني المقالة الخامسة والسبعون

٢١٦ - في جلوس المسيح عن ميامن الآب

الرأس الثالث المقالة السادسة والسبعون

- ردّ على القائلين : - لو كان للمسيح طبيعتان لكنّهم تسجدون للخليقة بسجودكم لطبيعته

٢١٧ المخلوقة ، أو تقولون بالسجود لطبيعة واحدة وعدم السجود للأخرى .

٢١٧ • السجود لجسد المسيح إنّما هو لاثحاده في المسيح وليس ذلك بحدّ ذاته

الرأس الرابع المقالة السابعة والسبعون

٢١٨ - لماذا صار ابن الله إنساناً وليس الآب ولا الروح ؟ وماذا أصلح الابنُ بتأنسه

٢١٨ ١ - صفات الطبيعة الإلهيّة وميزاتها . - لماذا تجسّد الابن

٢١٨ - حصيلة التجسّد - قوّة الصليب

الرأس الخامس المقالة الثامنة والسبعون

٢٢٠ - ردّ على الذين يسألون إذا كان أقنوم المسيح مخلوقاً أو غير مخلوق

الرأس السادس المقالة التاسعة والسبعون

٢٢١ - متى دُعي هذا الأقنوم مسيحاً

الرأس السابع المقالة العاشرون

- ردّ على السائلين : هل والدة الله القدّيسة ولدت طبيعتين

٢٢٢ وهل الطبيعتان علقتا على الصليب ؟

٢٢٢ ١ - حلّ اعتراض ساويروس : - الولادة من اختصاص الأقنوم لا الطبيعة

٢٢٢ ٢ - في المسيح طبيعتان . وهو قد تألم في تلك التي هي قابلة التألم

٢٢٣	المقالة الحادية والثمانون	الرأس الثامن	- كيف ابن الله الوحيد يدعى بكرًا
٢٢٤	المقالة الثانية والثمانون	الرأس التاسع	- في الإيمان والمعمودية
٢٢٤		١ -	مفعول المعمودية. - المعمودية واحدة. - ضرورة استدعاء الثالوث الأقدس. - لماذا التغطيسات الثلاث. - ما معنى المعمودية في المسيح. - الإنفخارستيا والمعمودية ينبعان من جنب المخلص. - الازدواجية في المعمودية على مثال تركيب الإنسان.
٢٢٥		٢ -	قوة الماء التطهيرية
٢٢٥		٣ -	نعمة العباد على قدر استعداد مقبلها ونقاوته
٢٢٥		٤ -	لماذا نعتد في الثالوث
٢٢٦		٥ -	أنواع المعمودية: معمودية يوحنا. معمودية التوبة. معمودية الشهداء، وهي الأنسية. معمودية المصلوب إلى الأبد
٢٢٦		٦ -	الروح القدس بشكل حمامة ونار
٢٢٧		٧ -	مسحة الزيت
٢٢٧		٨ -	يوحنا واعتاده
٢٢٨	المقالة الثالثة والثمانون	الرأس العاشر	- في الإيمان
٢٢٨		١ -	فضيلة الإيمان. - الذي لا يعتقد بتقليد الكنيسة أو يعيش عيشة رديئة هو غير مؤمن
٢٢٨		٢ -	الإيمان عطية الروح
٢٢٨		٣ -	الختان الروحي
٢٢٩	المقالة الرابعة والثمانون	الرأس الحادي عشر	- في الصليب ثم في الإيمان أيضًا
٢٢٩		١ -	لا يمكن فهم خلق الكائنات بالتفكير البشري. - الإيمان ضرورة عامة. ما هو الإيمان
٢٢٩		٢ -	ليس من شيء أعجب من صليب المسيح. - فوائده
٢٣٠		٣ -	إشارة الصليب تميز بين المؤمنين وغير المؤمنين

فهرس الكتاب

- ٢٣٠ - السجود لعود الصليب ولسائر ما قدّسه المسيح بلمسه إياه
 ٢٣٠ - يجب السجود لرسم الصليب على أنّه شارة المسيح ، لا لمادّته
 ٢٣١ - إن عود الحياة رمز للصليب

المقالة الخامسة والثمانون

الرأس الثاني عشر

- ٢٣٢ - في الاتجاه نحو الشرق في السجود
 ٢٣٢ - لماذا تتجه الكنيسة نحو الشرق في سجودها . - تقليد غير مكتوب

المقالة السادسة والثمانون

الرأس الثالث عشر

- ٢٣٣ - في أسرار الربّ المقدّسة الطاهرة
 ٢٣٣ - ١ - تدبير خلاص البشر
 ٢٣٣ - ٢ - مفعول التجسّد في متروكات المسيح للبشر
 ٢٣٣ - ٣ - الولادة في المسيح والطعام المزدوج : تأسيس الإفخارستيا . - أكل المسيح
 ٢٣٤ - الفصح القديم
 ٢٣٤ - ٤ - إعلان حقيقة الإفخارستيا . - مفعول كلمات الربّ في الإفخارستيا . مفعول
 ٢٣٤ - قوّة الروح القدس الذي يجعل من خبز جسد الرب
 ٢٣٥ - ٥ - لماذا يستعمل الخبز والخمر في الإفخارستيا
 ٢٣٥ - ٦ - في الإفخارستيا لا يصير تنزيل المسيح من السماء بل تحويل العناصر
 ٢٣٦ - ٧ - جسد الربّ حقيقة وليس رمزاً
 ٢٣٦ - ٨ - رتبة منح الإفخارستيا بالأيدي
 ٢٣٦ - ٩ - رموز الإفخارستيا
 ٢٣٦ - ١٠ - ثمار الإفخارستيا
 ٢٣٧ - ١١ - خبز المستقبل أو الخبز الجوهريّ - جسد الربّ بمعناه الروحيّ
 ٢٣٧ - ١٢ - ما معنى تسمية باسيلوس الإفخارستيا «تمثيل جسد الربّ ودمه»
 ٢٣٧ - ١٣ - أسماء الإفخارستيا الأخرى
 ٢٣٧ - ١٤ - لا شركة مع الهراطقة

المقالة السابعة والثمانون

الرأس الرابع عشر

- ٢٣٩ - في نسبة الربّ ووالدة الله القدّيسة
 ٢٣٩ - ١ - اختلاف ظاهر بين الإنجيليين في سرد نسبة يوسف
 ٢٤٠ - ٢ - شرح نسبة المسيح

- ٢٤٠ ٣ - ولادة العذراء
 ٢٤٠ ٤ - زواج العذراء بيوسف
 ٢٤٣ ٥ - ولادة المسيح
 ٢٤٣ ٦ - دوام بتولية العذراء
 ٢٤٤ ٧ - ما فات العذراء من أوجاع الولادة لاقته حين صُلب ابنها

المقالة الثامنة والثمانون

الرأس الخامس عشر

- ٢٤٥ - في القديسين وفي وجوب تكريمهم وتكريم رفاتهم
 ٢٤٦ ١ - رفات القديسين
 ٢٤٦ ٢ - يجب ألا نحصى القديسين مع الأموات. - فهم شفعاء البشر جميعاً

المقالة التاسعة والثمانون

الرأس السادس عشر

- ٢٤٨ - في السجود للإيقونات
 ٢٤٨ ١ - أصل السجود للإنسان وجود صورة الله فيه
 ٢٤٨ ٢ - الممنوع إنما هو عبادة الأصنام والذبايح المقدمة للشياطين
 ٢٤٨ ٣ - لم يكن استعمال الإيقونات دارجاً في العهد القديم لأن الله لا يرى. السبب في دخول هذه العادة في العهد الجديد. - السجود للإيقونات من التقليد الكنسي
 ٢٤٨ ٤ - الملك الأنجر ورسم المسيح

المقالة التسعون

الرأس السابع عشر

- ٢٥٠ - في الكتاب المقدس
 ٢٥٠ ١ - إن الله الأحد قد أوحى بكتب العهدين القديم والجديد
 ٢٥١ ٢ - عدد كتب العهد القديم المقدسة
 ٢٥٢ ٣ - كتب العهد الجديد

المقالة الحادية والتسعون

الرأس الثامن عشر

- ٢٥٣ - المقولات في المسيح
 ٢٥٣ ١ - المقولات في المسيح أربعة أنواع أصليّة
 ٢٥٣ ٢ - المقولات فيه قبل تأتسه تقسم إلى ست حالات
 ٢٥٤ ٣ - المقولات عنه في الاتحاد تقسم إلى ثلاث حالات

فهرس الكتاب

- ٤ - مبادلة الصفات بين اللاهوت والناسوت
٢٥٥
٥ - المقولات في المسيح بعد الاتحاد ثلاثة أنواع
٢٥٥
٦ - المقولات في المسيح بعد قيامته
٢٥٧
- الرأس التاسع عشر**
المقالة الثانية والتسعون
- في أن الله ليس هو علّة الشرور
٢٥٩
« في الكتاب المقدّس كلمة «فعل» الله تعني «سمّاحه»
٢٥٩
- الرأس العشرون**
المقالة الثالثة والتسعون
- في المبدأين: الخير والشر
٢٦١
١ - ردّ على المانيّين بأننا لسنا نقول بمبدأين
٢٦١
٢ - إن الشرّ فقدان الخير وهو لا جوهر له
٢٦١
٣ - الشيطان بإرادته هو أبو الشرّ، لا الطبيعة
٢٦٢
- الرأس الحادي والعشرون**
المقالة الرابعة والتسعون
- ما السبب في خلق الله من يعرفهم سيخطأون ولا يتوبون
٢٦٣
« لقد خلق الله الذين سبق وعرفهم أشراراً لكي لا يبدو الشرّ
متصراً على الصلاح
٢٦٣
- الرأس الثاني والعشرون**
المقالة الخامسة والتسعون
- في شريعة الله وشريعة الخطيئة
٢٦٤
١ - كل شيء يريد الله خير
٢٦٤
٢ - ناموس الله وناموس عقلنا - ناموس الخطيئة وناموس أعضاءنا اللحميّة
٢٦٤
٣ - شرح أقوال الكتاب المقدّس بشأن الحرب القائمة بين الناموسين
٢٦٤
- الرأس الثالث والعشرون**
المقالة السادسة والتسعون
- ردّ على اليهود بشأن السبت
٢٦٥
١ - ديانة يوم السبت
٢٦٥
٢ - تعليق الدمشقيّ على الوصيّة لليهود بالاستراحة يوم السبت
٢٦٥
٣ - تبديل يوم السبت إلى ما هو أحسن
٢٦٦
٤ - الحنّان والسبت بالمعنى السريّ بشيء واحد
٢٦٧
٥ - تعليق على العدد سبعة
٢٦٧

المقالة السابعة والتسعون

الرأس الرابع والعشرون

- في البتولية ٢٦٨
- ٢٦٨ ١ - تبرير البتولية. - إنها لازمت الإنسان في الفردوس
- ٢٦٨ ٢ - بدء الزواج مرافقاً للخطيئة
- ٢٦٨ ٣ - العفة ترتقي إلى الطوفان
- ٢٦٩ ٤ - كيف نفهم نص الكتاب المقدس: «طوبى لمن له نسل في صهيون الخ
- ٢٦٩ ٥ - البتولية - التي تضاهي سيرة الملائكة - أشرف من الزواج
- ٢٦٩ ٦ - المسيح شرف البتولية وقد وُلد من أبٍ وأمٍّ بتولين. - إنها لا توجد شريعة
- ٢٧٠ صادرة عن المسيح تلزم بحفظ البتولية
- ٢٧٠ ٧ - مقابلة بين الزواج والبتولية

المقالة الثامنة والتسعون

الرأس الخامس والعشرون

- ٢٧١ - في الحتان
- ٢٧١ ٥. الحتان صورة المعمودية

المقالة التاسعة والتسعون

الرأس السادس والعشرون

- ٢٧٣ - في المسيح الدجال
- ٢٧٣ ١ - مفاهيم مختلفة عن المسيح الدجال. - اليهود سوف يقبلونه على أنه مسيحهم
- ٢٧٣ ٢ - سيكون المسيح الدجال رجلاً حقيقياً
- ٢٧٤ ٣ - بداية المسيح الدجال وامتداد نفوذه
- ٢٧٤ ٤ - محاربة أخنوخ وإيليا ضد المسيح الدجال

المقالة المئة

الرأس السابع والعشرون

- ٢٧٥ - في القيامة
- ٢٧٥ ١ - قيامة الأجساد للنفوس الخالدة
- ٢٧٥ ٢ - برهان عقلي على القيامة، انطلاقاً من عناية الله وعدله
- ٢٧٥ ٣ - المراجع الكتابية
- ٢٧٨ ٤ - تكون القيامة على مثال تكوين جسمنا
- ٢٧٨ ٥ - وبعد القيامة الدينونة والمكافأة على الأعمال

مقدمت

كنتُ أتحدّث مع شخص عن هذا الكتاب قبل طبعه ، فأبدى لي دهشته وسألني بعفوية : «ولو ! لشو بدكم تطبعوا كتاب لاهوت قديم ، عمره فوق الألف سنة؟ ومترجم كان !...»

بالفعل ، إنّه لسؤال يطرحه ، في عصرنا هذا ، من لا يدرك أهمية تراثه الأدبي والثقافي والحضاري ، من لا يرى فيه إلّا «بعض إشراق وكثير ظلام» ، أو من يعتقد أن كل ما ينتجه الغرب هو دائماً الأصح والأفضل . مع العلم أننا ، اليوم ، أكثر حاجة من أي وقت مضى إلى العودة إلى النبايع ، إلى إحياء تراثنا العربي المسيحي وتجديده .

رحتُ أشرح لسائلي عن هدف طبع هذا الكتاب : تقدّيسُ العلم ، والحرص عليه ، فإنّ هذا النصّ المهمّ لا يزال طي المخطوطات ، ولم ينشر كاملاً باللغة العربية حتى يومنا هذا . ثانياً : تكرّيم قديس «استلهم الروح القدس ، وكتب لنا ما استطاع عن الله وحقائقه» ؛ وأيضاً تعريف لأحد تآليف آبائنا القديسين وأخيراً الكشف عن حلقة من سلسلة : فالآباء المدرسيون (Scholastiques) ، في العصور الوسطى ، استوحوا من هذا المؤلّف وتوسّعوا في شرحهم للحقائق التي أتى على ذكرها ، واتّبعوا طريقة تفصيلها .

ولا عجب أن يختار لنا الأب أدريانوس شكور هذا الكتاب بالذات دون غيره - والأصحّ هذا الجزء الأهمّ من «كتاب ينبوع المعرفة» - بعد أن ترجم لنا : «مقال عن الروح القدس» للقديس باسيليوس الكبير . ذلك لأنّه أولاً يحبّ هذا القديس بالذات ، ثمّ لأنّه كان قد ابتدأ بترجمة هذا المؤلّف سنة ١٩٥٠ في الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي ، وأخيراً لأنّ من يراجع فهراس المخطوطات العربية واليونانية المحفوظة في أهمّ مكتبات العالم العامة وفي أديرة الرهبان والراهبات يجد أنّه قلما تخلو هذه المكتبات من مخطوطة أو أكثر لكتاب «ينبوع المعرفة» - أو لجزء منه - مما يدلّ على أهميته وكثرة استعماله في الماضي ككتاب لدرس اللاهوت ، علماً بأنّه لم يُطبع بلغة الضاد حتى اليوم .

حياة المؤلف

لا يزال الجدل قائماً حتى الآن بسبب سيرة القديس يوحنا الدمشقي: مَنْ كتبها؟ ومتى؟ إنما الشيء الأكيد لدينا هو أن النص الأصلي لهذه السيرة قد كُتب في أوائل القرن التاسع باللغة العربية. ثم نقل إلى اللغة اليونانية والكرجية (Georgienne)، ضاع بعدها النص الأصلي العربي هذا، وقد تركت لنا بعض المخطوطات^(١) نصّاً عربياً يُنسب إلى الراهب ميخائيل السمعاني الأنطاكي (+ ١٠٨٥) نشره الخوري قسطنطين باشا المخلصي في مجلة «المسرة». إنما بعض الدراسات^(٢) تشكّ في صحة هذه النسبة إلى ميخائيل الراهب.

وُلد منصور بن سرجون - وهو اسم القديس يوحنا - حوالي سنة ٦٧٥ م في دمشق، عاصمة الأمويين آنذاك، من عائلة عريقة وغنيّة، عُرفت بفضيلتها ومحبتها للعلم وبمكانتها السياسية والاجتماعية، إذ إن سرجون، والد يوحنا، ومنصور جدّه، كانا يعملان على إدارة أموال الخلفاء الأمويين وعلى جمع الخراج من المسيحيين^(٣). وعلى ما يبدو إن منصوراً، في مطلع شبابه، قد شغل هذه الوظيفة لمدة من الزمن^(٤).

حصل منصور منذ نعومة أظافره على ثقافة أدبية وفلسفية ودينية مهمّة: فقد ذكرت لنا سيرته أن معلمه كان راهباً من جزيرة صقلية، من أسرى الحرب، اشتراه والده ثم حرّره

(١) أهم المخطوطات العربية التي تسرد لنا سيرة هذا القديس هي:

- مخطوطان من حمص وكفر بهم (راجع المصادر: رقم ٢)

- مخطوطا حلب. ذكرهما الأب سباط وما عند عائلة رباط وعائلة شحود

- فاتيكان عربي ٧٩ (سنة ١٢٢٣)

- سينا عربي ٣١٧ (سنة ١٢٢٣)

- حلب، مطراية الموارنة، ١٤٠٥ (سنة ١٥٠٢)

- حلب، سباط، ١١١٢ (القرن السادس عشر)

- غوطا Gotta عربي ٢٨٨٢ (القرن السادس عشر)

- مخطوط المنسيور نصرالله (سنة ١٦٩٧)

- بيروت، المكتبة الشرقية ٦١٧ (سنة ١٦٩٧)

Cf. B. HEMMERDINGER, *La Vita arabe de St Jean Damascène et BHG 884 in Orientalia Christiana Periodica* (1966) pp. 422-423.

(٣) كانت الدواوين كلّها باللغة اليونانية في ذلك العصر. وقد نقلت إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان (+ ٧٠٥). راجع في هذا الموضوع كتاب م. كرد علي، *الإسلام والحضارة العربية*، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٣٦

(٤) المقرئزي، *المواعظ والأخبار*، الجزء الثاني، القاهرة ١٩١٣، ص ٥٩

(أعتقه) وعهد إليه بتعليم ابنيه : أولهما منصور والثاني قرما ، ابنه بالتبني . وقد أتقن اليونانية ، لغة الطبقة الراقية من كبار المتعلمين ، واللغة السريانية ، لغة الشعب المستعملة في الليتورجية ، ورغم أن كل كتاباته التي وصلت إلينا كانت باليونانية ، فمن المؤكد أنه كان يعرف العربية أيضاً ، لغة عائلته الأصلية . وقد كان هو بعد أبيه وجده يستعملونها حتماً مع أسيادهم الفاتحين العرب .

وما أن توفي سرجون ، والد منصور ، حتى أخذ هذا الأخير مكان أبيه في إدارة أموال الدولة ، بينما انتحل قرما معلمه وقرما أخوه بالتبني الحياة الرهبانية في سيق مار سابا . ثم ما لبث منصور - وكان قد بلغ حوالي الثلاثين من عمره - ولأسباب نجهلها وقد تكون سياسية - أن ترك مركزه والتحق بمعلمه قرما وبأخيه بالتبني إلى سيق مار سابا أيضاً . فأحبَّ هناك الحياة النسكية وراح يتعمق في اللاهوت على يد البطريرك الأورشليمي يوحنا الرابع (٧٠٦ - ٧٣٤) الذي كان يطلبه غالباً للإلقاء المواعظ والخطب في أورشليم . وهناك اتخذ اسم يوحنا - ربما تيمناً باستاذة البطريرك .

في ذلك الوقت (حوالي سنة ٧٢٥) ، قامت بدعة تحارب تكريم الايقونات المقدسة ، مدعية أن هذا التكريم إنما هو عبادة وثنية^(٥) . فهبَّ يوحنا بكل ما لديه من قوى وثقافة يدافع عن التمسك بالسجود للايقونات المقدسة موضحاً أن هذا السجود إنما هو مجرد تكريم للأشخاص الممثلة في الايقونات ، وليس هو على الإطلاق عبادة الصور . وقد فعل كل ذلك ، «رغم أنه لم يكن بعد من ذوي مراتب البيعة المقدسة» .

وفي هذا المجال ، تسرد لنا سيرته أن لاون الملك ، ماقت الايقونات المقدسة ، لحقده على يوحنا ، اتهمه زوراً بالخيانة ، مما سبب له قطع يده . فما كان من يوحنا إلا أن دخل غرفته «وطرح على الأرض كليّة جسده قدام إيقونة السيّدة المجيدة ، ذات الشفاعات غير المردودة ، وألصق كفه المقطوع إلى زنده وتوسّل إليها من قعر قلبه ، وفاضت عيناه دموعاً محرقة منحدرة على صدره ، قائلاً : أيتها السيّدة القديسة الطاهرة والدة إلهنا ، الكلمة الأزليّة ، بتجسّد من دمائك النقيّة لحيته الجزيلة لجنس البشرية ، أسألك أن تتوسّلي إليه من أجلي... لكي تردّي يدي إلى ما كانت عليه أولاً ، كاملة ، صحيحة من كل ألم وقطع ، معافاة ، وتظهري عبدك جزيل تحنّتك (كذا) لكي ما يبطل لساني ما عشت من مديحك ،

(٥) هذه البدعة متأثرة بالطبع من الدين الإسلامي الذي كان ينتشر بسرعة في الشرق المسيحيّ .

لأنك قادرة على ما سألتك ...». وللحين غفت عيناه فرأى المتحنتة بشكلها وهيئتها ناظرة إليه بطرفها وقائلة له: قد عوفيتُ بذلك، فأُنجز لاهلك نذكرك، ولا تؤخر عهدك. فاستيقظ بفرح مسروراً، ونهض واقفاً على رجله، مصلياً شاكراً. وترنم للوقت بما يلائم سرعة إجابته في توسله، وكال عافيته لساعته»^(٦).

ولقد خلد لنا الفن البيزنطي ايقونة العذراء ذات الأيدي الثلاث، رمزاً للعجوبة المذكورة.

وعلى أساس تلك الحملة التي شنتها يوحنا ضد ماقبي الايقونات المقدسة، واضعاً أساساً ثابتة ونهائية لهذا التكريم، عقد الامبراطور قسطنطين (كبرونيم) مجعاً سنة ٧٥٤، تغيب عنه أهم المدعوين - بطاركة الاسكندرية وأنطاكية وأورشليم - حيث رفض الحاضرون رفضاً قاطعاً تكريم الايقونات المقدسة وقرروا أن كل من يخالف ذلك يعتبر متمرداً على وصايا الله وعدواً مخالفاً للعقائد المخلدة في مجمع «هيرا» هذا المؤلف من ٣٣٨ أسقفاً، ثم حرموا أشهر الذين دافعوا عن هذا التكريم أي جاورجيوس القبرصي وجرمانوس القسطنطيني ومنصور - «ذا الاسم المشؤم الذي يعلم الآراء المحمدية»^(٧).

إلا أن المجمع النيقاوي الثاني (٧٨٧)، بعد أن ثبت تكريم الايقونات المقدسة، أعاد لهؤلاء، المحرومين في مجمع هيرا اللصوسي سنة ٧٥٤، كرامتهم «رحمة أبدية لجرمانوس ويوحنا وجاورجيوس، أبطال الحقيقة... إن الثالث قد مجد ثلاثتهم»^(٨).

وكان يوحنا ينزوي في صومعته، في سيق مار سابا، يؤلف مع أخيه بالتبني قوما الترانيم والقوانين الدينية التي لا تزال الكنيسة تترنم بها إلى يومنا هذا. وكانت قريحته فيأضة لدرجة أنه استحق أن يدعى في ما بعد بـ «مجرى الذهب». ثم شاءت العناية الإلهية أن ينتخب قوما أسقفاً على مايوما، المعروفة اليوم بميلس (قرب غزة)، وطلب مراراً إلى يوحنا أن يرسم كاهناً. وكان في كل مرة يرفض، إلى أن «استحضره بطريرك البيت المقدس وسامه قسيساً بغير مراده، بل بكثرة إلزامه إياه غلبه على رأيه. ولما عاد من عنده إلى السيق زاد في نسكه

(٦) «المسة» ٣ (١٩١٢) ص ٣٣٩ - ٣٤٢. هذا ويعتقد البعض أن هذه المعجزة هي من فيض الكاتب وليس لها أساس تاريخي صريح.

(٧) Mansi, t. XIII, col. 327. عن مجمع هيرا اللصوسي

(٨) Mansi, t. XIV, col. 398-400. عن المجمع المسكوني السابع

وأتباعه. وانعطف إلى تصنيف أقواله التي سرت إلى أقصى المسكونة»^(٩).
ويعتبر المؤرخون أن رسامته قد تمت بوضع يدي البطريك الأورشليمي يوحنا الخامس
(٧٣٥+)»^(١٠).

توفي القديس يوحنا الدمشقي، على الأرجح، سنة ٧٤٩^(١١) في دير المذكور، بعد أن
قضى حياة طويلة في النسك والتأليف. فدفن هناك وبقي قبره معروفاً ومكرماً حتى القرن
الثاني عشر. ومن ثم نقلت عظامه، على ما يبدو، إلى القسطنطينية^(١٢). وما كاد يموت
حتى ذاع صيت قداسة يوحنا الدمشقي، فأخذ الشعب في تكريمه وإنشاد تأليفه الليتورجية
والرجوع إلى كتبه اللاهوتية... وهذا ما حمل البابا لاون الثالث عشر على إعلانه سنة
١٨٩٠ «معلماً للمسكونة»، في مصفٍ سائر آباء الكنيسة الجامعة.

تأليفه

كانت قريحة القديس يوحنا، كما ذكرنا، فيأضة فترك لنا العديد من المؤلفات القيمة،
كلها باليونانية. إلا أنها ما لبثت أن تُرجمت إلى لغة الضاد على يد الأنبا أنطوني، رئيس دير
مار سمعان (القرن العاشر)^(١٣)، والشماس الملكي عبدالله بن الفضل الأنطاكي
(١٠٥٤+)»^(١٤) وغيرهما. وقد نُشر الجزء القليل منها وما زال الجزء الأكبر طي المخطوطات
المنتشرة في كل مكاتب العالم بانتظار أقلام الباحثين. ومما يسرّ أن في ألمانيا اليوم ديراً للآباء
البندكتيين قد أخذ على عاتقه نشر كل كتابات هذا القديس باللغة اليونانية^(١٥) وقد ظهر

(٩) «المسرة» ٣ (١٩١٢)، ص ٣٧٩ - ٣٨٠

(١٠) K. ROSEMOND, *Quelques lumières sur la vie de St Jean Damascène*, (d'une copie de l'article qui devait être publié dans «Aufstieg und Niedergang der romischen Welt», Berlin - New York.

(١١) راجع، في ما يخص موت هذا القديس - ما عدا الحاشية السابقة، المراجع التالية:

- J.M. HOEK, *Johannes von Damaskus*, in *Lexikon für Theologie und Kirche*, 5 Band Friburg 1956, s 1023.

- VAILHE, *Date de la mort de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* 9 (1906) 28-30.

- يوسف نصرالله، سنة وفاة القديس يوحنا الدمشقي، في الذكرى المئوية... ص ١٣٥ - ١٣٨

(١٢) الذكرى المئوية... ص ٣

(١٣) G. GRAF, *Geschichte der Christlichen Arabischen Literatur*, II, Vatican, 1947 pp. 41-45.

(١٤) والمشرق ٩ (١٩٠٦) ٨٨٦ - ٨٩٠ و ٩٥٣ حيث نجد مقالة مهمة عن حياة الشماس الملكي عبدالله بن الفضل وتأليفه

(١٥) P. Boniface Kotter OSB والأب المسؤول هو Byzantinischen Institut Scheyern OBB.

منها حتى الآن عدّة أجزاء. ولكم نودّ أن نقوم إحدى المؤسسات في الشرق بالمثل، بالنسبة إلى النصوص العربية.

(١) أول ما نبدأ به سرد تأليفه في اللاهوت، وفي مقدّمها الموسوعة اللاهوتية التي هي من أشهر مؤلفات يوحنا^(١٦) وقد أسماها «ينوع المعرفة». ألف يوحنا هذا الكتاب في أواخر حياته، وتحديدًا بعد سنة ٧٤٢ وذلك تلبيةً منه لطلب أخيه بالتبني قزما، أسقف مايوما المذكور آنفًا، كما يظهر من الرسالة التي تتقدّم الكتاب. ويقسم يوحنا مؤلفه هذا إلى ثلاثة أجزاء:

آ - الجزء الأول هو «علم الفلسفة والمنطق»، يعطي فيه المؤلف القديس أهم التحديدات الفلسفية حسب أرسطو وآباء الكنيسة، ويشرح دور الفلسفة بالنسبة إلى اللاهوت. ويعتبر هذا الجزء، المؤلف من ٥٢ فصلاً، كمقدمة لفهم ما سيلي^(١٧).

ب - ويتضمّن الجزء الثاني تاريخ أغلب الهرطقات وما قضيتها وهو مستوحى من إبيفانوس وغيره من الآباء.

ج - أمّا الجزء الثالث فيدعى كتاب «الأمانة الأرثوذكسية» أو كتاب «الإيمان الأرثوذكسي» أو كتاب «المئة مقالة». وقد طبع، ككتاب مستقلّ وترجم إلى عدّة لغات^(١٨). ومن المؤسف أنه لم يطبع كاملاً بلغة الضاد إلا اليوم. وهو يتضمّن عرضاً لأهم عقائد الإيمان المسيحي: الله الواحد، الأقانيم الثلاثة، الخلق، الملائكة، العالم، الإنسان، سرّ الخلاص أو التجسّد الإلهي، الإيمان، قيامة الأموات، تكريم القديسين والايقونات...

وقد استعمل المسيحيون هذا الكتاب، على مدى العصور، - وخاصة في الشرق

(١٦) راجع هذه المؤلفات كاملة باللغة اليونانية في مجموعة الآباء: MIGNE, PG 94/96

(١٧) لهذه الفصول الفلسفية نسختان، واحدة مطوّلة، وفيها الكثير من التكرار، وأخرى مختصرة. وتعتينا المخطوطات العربية النسخة المختصرة فقط. ونأمل نشر هذا الجزء من «ينوع المعرفة» قريباً بإذن الله.

(١٨) راجع هذه النشورات حسب اللغات في أول المقدمة.

المسيحي - لدراسة اللاهوت. لذا نجد العديد من مخطوطاته في أغلب الأديرة والمكاتب^(١٩).

(٢) «مختصر الأمانة الأرثوذكسية»، كتبه يوحنا لايليا، مطران بيروت، ليقدّمه هذا الأخير كشهادة اعترافه بالإيمان القويم إلى بطرس مطران دمشق.

(٣) مقالة عن الثالوث الأقدس، وهي على طريقة السؤال والجواب.

(٤) مقالة عن «قدّوس قدّوس قدّوس» وهي موجّهة إلى الارشمندريت جوردانوس حيث يبيّن يوحنا أنّ هذه الصلاة موجّهة إلى الأقانيم الثلاثة وليس إلى الابن وحده.

(٥) مقدّمة عامة عن العقائد، كتبها القديس يوحنا، أو بالأحرى جمعها عنه تلاميذه في أول حياته في دير مار سابا. نستطيع أن نعتبرها كمختصر لكتاب «ينوع المعرفة». وقد أرسلها يوحنا إلى مطران اللاذقية يوحنا.

وللقديس الدمشقي مؤلفات دافع فيها عن الإيمان الأرثوذكسي وحارب بها الهرطقات المعروفة في عصره هي:

(٦ - ٨) ثلاث مقالات للدفاع عن الايقونات المقدّسة، كتبها القديس بين سنّي ٧٢٦ و ٧٣٠، بعد أن أصدر لاون الإيصوري مرسوماً ضدّ تكريم الايقونات المقدّسة. وقد وضع فيها يوحنا، كما ذكرنا، الأسس اللاهوتية والمبادئ العامة للدفاع عن تكريم الايقونات. وأغلب ما كتب في هذا الموضوع إنما هو مستوحى من هذه المقالات. ولقد نشرت هذه الأخيرة مراراً وبلغات عديدة^(٢٠).

(٩) مقالة ضدّ أسقف يعقوبي، يرفض فيها يوحنا آراء اليعاقبة ومبادئهم، خاصة قولهم إنّ في المسيح طبيعة واحدة.

(١٩) راجع مخطوطات «الأمانة الأرثوذكسية» عند الأب نصرالله... ص ١٨٢ - ١٨٣

أضيف إليها: (١) أورشليم، القبر المقدّس غربي ١٢ (القرن الثاني عشر أو الثالث عشر)

(٢) Glasgow Hunt. 614 (1213) (14) ff. 148-340.

(٣) القاهرة، البطريركية الأرثوذكسية ١٢٤ (القرن التاسع عشر)

(٢٠) نذكر منها الترجمة الفرنسية لـ «Pensoy»

B. KOTTER, Die Schriften des J. von DAMASKOS III Contra imagonum und der
calumniatores Oraciones tres. Berlin, New-York 1975.

(١٠) مقالة ضدَّ المانويَّة ، وهي بشكل حوار بين أرثوذكسي ومانوي^(٢١) لإظهار أخطاء الثنائية.

(١١) جدال بين مسلم ومسيحي ، يدافع فيه الدمشقي عن عقيدة التجسّد ويرفض نظرية القضاء والقدر.

(١٢) مقالة ضدَّ الساحرات ، بقي لدينا من هذه المقالة بعض المقاطع ، وهي كافية لتعطينا فكرة عن انتشار السحر والساحرات في عصر يوحنا.

(١٣) مقالة في الطبيعة المركّبة ، هي رفض لآراء القائلين بالطبيعة الواحدة.

(١٤) مقالة في أنّ للمسيح إرادتين ، وهي بالطبع ردّ على القائلين بأنّ للمسيح إرادة واحدة.

(١٥) مقالة ضدَّ النساطرة القائلين بأنّ للمسيح شخصين كما أنّ له طبيعتين.

(١٦) مجادلة يوحنا الأرثوذكسي مع مانوي حيث يرفض القديس أفكار ماني.

(١٧) وترك لنا يوحنا مؤلفاً واحداً يشرح فيه رسائل القديس بولس . وهو يستوحي فيه من كتابات يوحنا الذهبي الفم وكيرلس الإسكندراني.

أما في موضوع النسك والتقشّف فقد كتب يوحنا :

(١٨) مقالة قصيرة عن الصوم وجّهها إلى أخيه الروحي «كوميث».

(١٩) مقالة عن الأرواح السيئة الثمانية ، يعالج فيها الخطايا الرئيسية التي يرتكها الراهب ضدَّ الحياة الرهبانية.

(٢٠) مقالة في الفضائل والذرائع.

(٢١) المواعظ ، - كنّا قد ذكرنا أنّ يوحنا كان يذهب أحياناً إلى أورشليم ، عن طلب من البطريرك ، لإلقاء المواعظ في المناسبات . وقد حفظت لنا المخطوطات بعض هذه المواعظ ، نذكر منها : ثلاثاً عن رقاد مريم العذراء ، ألّفها القديس في يوم واحد ، كما يقول في الوعظة الثالثة^(٢٢) . وله أيضاً ميمر عن ولادة العذراء وغيره عن التجلي ، وعن التينة التي

(٢١) المانوي ، من يتبع آراء ماني ، زعيم المانويين . وُلد ماني في ماردين سنة ٢١٥ وكان يعلّم المذهب الثنائي القائل بوجود مبدأ للخير ومبدأ للشر ، كما النور والظلام وهما في صراع مستمرّ على هذه الأرض.

لعتها يسوع ، وآخر ألقاه يوم السبت العظيم ... الخ . هذا ولم يتأكد بعد لدى الباحثين صحة نسبة كل هذه المواعظ إلى القديس الدمشقي .

أما كتاب «برلعام ويواصف» المنسوب خطأ إلى الدمشقي ، فقد تبين علمياً أنه ليس له ، بل لأفثيموس (+ ١٠٢٨) الساكن في الجبل المقدس (٢٣) .

(٢٢) كما اشتهر يوحنا الدمشقي خاصة بتأليفه الطقسية والأناشيد الدينية ، وأخصها للعدراء . وتخبرنا سيرته أنه ألف «قوانين القيامة المقدسة مع استشارات وطروباريات» (٢٤) ، كما أن طروبارية «بالحقيقة أن الأشياء كلها باطلة دائرة ...» (٢٥) التي تقال في الجنائز تنسب إليه . وله أيضاً العديد من القوانين الخاصة بالأعياد ، نذكر منها : الميلاد والظهور والعنصرة والشارة ورقاد العدراء والصعود ... (٢٦) والأناشيد الثلاثة التي تتلى قبل تناول وترنيمه «إن الربايا بأسرها ...» التي ترتل في ليتورجية القديس باسيلوس ... الخ ، وغيرها من التراتيل الكنسية .

وعليه فإننا نجد في شخصية يوحنا القوية صفات ومواهب قلما نجدها مجتمعة عند غيره . فهو الفيلسوف الإنشائي واللاهوتي الجامع والراهب القديس والرسول الغيور والواعظ الجذّاب والمدافع الشجاع عن الإيمان الأرثوذكسي والشاعر الملهم والمترنم العذب ، فخر مدينة دمشق ونجم كنيسه اللامع .

الأب ميخائيل أبرص قب

في ١٩٨٢/١٢/٤

(٢٢) ان منبر القديس يوحنا الدمشقي ، على ما يبدو ، قد نقل إلى حلب . راجع : أنطوان رباط ،

Doc. Inéd. pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient, 1909.

(٢٣) لمزيد من المعلومات ، راجع كتاب الأب نصرالله ، المذكور في المصادر ، ص ١٥٧ - ١٦٠ ، هذا وينسب إلى القديس يوحنا أيضاً «كتاب الفردوس العقلي»

Cf. Le Baron von Rosen in Collections Scientifiques de l'Institut de Langues Orientales de Petersbourg VI, 1891.

(٢٤) سيرة القديس ، في «المسرة» ص ٣٧٩

(٢٥) الأفخولوجيون الكبير ، أورشليم ١٨٦٥ ، ص ١٢٩

(٢٦) راجع مقالة الأب ارمندس ليلي في الذكرى المئوية ... ص ٨٢ - ٨٣

كَلِمَةُ الْمَعَرَّبِ

كان أول من حملنا على البدء بترجمة كتاب القديس يوحنا الدمشقي «في الإيمان الأرثوذكسي»، المعروف بكتاب «المئة مقالة»، المثلث الرحمة البطريك مكسيموس الرابع، وذلك سنة ١٩٥٠، لمناسبة الاحتفال باليوبيل المئوي الثاني عشر لوفاة هذا القديس العظيم، دكتور الكنيسة الجامعة. وقد كان ذلك بتكليف خاص من القائم آنذاك بتنسيق حفلات اليوبيل، المنسيور نصرالله.

وقد تخصص حينئذ في آخر نيسان - أول أيار من تلك السنة في دمشق أسبوع كامل لحفلات دينية ودراسات ومحاضرات شتى وغيرها... وقد تم ذلك باشتراك حكومة الرئيس شكري القوتلي وسائر الفعاليات في العاصمة مع وفود من شتى الأنحاء. وقد توزع على الحاضرين كتاب «ذكرى اليوبيل» المحتوي على جميع الخطب الرسمية والقصائد وشتى الدراسات الموضوعية التي ألقت الأضواء على حياة القديس الدمشقي الكبير ومؤلفاته المتنوعة، مما زاد في تقديره ومحبه لدى الجميع. واغتنمها المنسيور نصرالله فرصة سانحة لإعطائنا المعلومات الغزيرة الكاملة عن هذا القديس في كتابه المنشور بالفرنسية: «القديس يوحنا الدمشقي، عصره، حياته، عمله».

وقد أخذ البطريك الكبير الراحل منذ ذلك الوقت في السعي لتشييد كنيسة للطائفة في دمشق على اسم هذا القديس. وقد نجح تماماً في مسعاه بفضل سخاء الدمشقيين، وفي مقدمتهم المرحوم السيد موسى غنّاجه وتكاتف نخبة من كبار المهندسين الدمشقيين وغيرهم. فقامت في مدخل دمشق الرئيسي وعلى مقربة من «قصر الضيافة» كنيسة فخمة وتوابعها على اسم مواطن دمشق القديس الخالد الذكر.

وقد حالت ظروف قاهرة - ومن أهمها التحاقنا بالدائرة البطريكية في السنة نفسها ١٩٥٠ ولادة ١٨ سنة كاملة - دون متابعة ترجمة الكتاب المذكور.

كلمة العرب

ثم كان المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) وما حصل فيه من انفتاح عام على الكنائس - وعلى الكنائس الشرقية بنوع خاص - وما تبع ذلك من حوار بناء معها ، وهو لا يزال ، والحمد لله ، في تصعيد مستمر...

ولما كنّا ، في أواخر سنة ١٩٧٩ ، قد قمنا بنقل مقال القديس باسيليوس في الروح القدس من اليونانية إلى العربية ، لمناسبة أسبوع اليوبيل المئوي السادس عشر لوفاة هذا القديس ، وكانت المحاضرات في هذه المناسبة تلقى في جامعة الروح القدس في الكسليك ، ألحّ علينا بعض الآباء الأجلّاء القائمين هناك بإلقاء الدروس اللاهوتية أن نقل إلى العربية المزيد من تراثنا المسيحي هذا . وكان من البديهي أن نلبي طلبهم بمتابعة وإنجاز ما بدأنا به منذ ثلاثين سنة ونيف ، لا سيّما في الظروف الحاضرة مع العلم أن كتاب «الايمان الأرثوذكسي» هذا هو الدستور العقائدي العام الذي تتقيد بمبادئه الأرثوذكسية في كل مكان . وهو الكتاب المدرسي لطلاب علم اللاهوت الأرثوذكسين ، فضلاً عن أن الكنيسة الرومانية تتقبله بارتياح ، بعد أن سار على هديه في الأجيال الوسطى كبار اللاهوتيين الغربيين ، وعلى الأخصّ القديس توما الأكويني . وهو يكوّن في ذلك وبهذه الصفة قطعاً ضخماً من العقائد المشتركة بين الكنيستين الكبيرتين تذوب أمامه كل الخلافات الجانيّة التقليدية بينهما والتي عمّقها الأحقاد العنصرية في العصور الغابرة .

ومن هنا تبدو أهمية وضع هذا الكتاب الجليل في متناول جميع أبناء جيلنا الطالع . وهو خلاصة معتقدات آبائنا القديسين جميعاً ، مسكوبة في الأصل باللغة نفسها التي كانت في بلادنا مع السريانية لغة الكنيسة الشرقية الأساسية حتى القرنين السابع والثامن على الأقل . وقد نشأ ، انطلاقاً من هذا الكتاب على الأخصّ ، «تراثنا العربي المسيحي» مع ثاودورس أبي قرّة وسليمان الغزيّ ويحيى بن عدي وغيرهم الكثير ممن يقوم اليوم المعهد البابوي الشرقي برومة ، بإدارة المطران ناوفيطوس إدلي ، بنشر كتبهم على أرفع مستوى علمي لتعميم معرفتها في العالم العربي .

هذا وإنني أقدم عملي هذا إلى روح أبي وولي نعمتي البطريرك مكسيموس الرابع إقراراً بفضلته وتكبيراً لرغبته في نشر هذه الترجمة بين المواطنين الشرقيين الذين وُضعت في الأساس لهم ، وهم حرّموا من معرفتها أجيالاً طويلة لئلا ينسأ لغتهم وآبائهم وأجدادهم الأقدمين . ولا يسعني إلا أن أشكر في الوقت نفسه للسيد الجليل مري عبد الله نعمان أتباعه الجمّة في التدقيق في مطالعة المخطوط كله ، كلمة كلمة ، وإبداء ملاحظاته واقتراحاته ، عند

الاقتضاء ، في ما يختص باللغة العربية . وكذلك الأب العزيز نقولاً أنتيبا الذي بذل الجهد نفسه والتدقيق نفسه من شتى النواحي . وفي الختام أشكر للأب العزيز ميشيل أبرص مقدّمته القيمة التي تعطي وزناً يتناسب مع قيمة هذا الكتاب الجليل .

* * *

هذا وقد لاحظ بعضهم أننا قد استعملنا في ترجمتنا بعض الاصطلاحات التي لا يسهل فهمها ، كالكلمات التالية : مقولات ونفوذ وقتّم وتاقّم وغيرها مع مشتقاتها . فنحجب أننا قد أردنا بالمقولات الكلمات نفسها التي قالها الرب يسوع نفسه في الإنجيل عن نفسه . والنفوذ أردنا به تواجد الأقانيم الثلاثة بعضها في بعض تواجداً كاملاً في الطبيعة الإلهية الواحدة التي لا يحدها مكان ولا زمان . وقتّم الجسد ، أعطاه أفتنوماً ، وتاقّم الجسد ، اتّخذ أفتنوماً . وما شاكل ذلك ... وإنما قد فعلنا ذلك عن اضطرار .

ونشير إلى أننا قد التزمنا في ترجمتنا لهذا الكتاب النص اليوناني الوارد في مجموعة ميني :

MIGNE, P.G., t. 94, Col. 789-1228.

وأحلنا إليه القارئ في مطلع كل رأس من رؤوس الكتاب . ثم لمّا تسرّ لنا الحصول على النصّ العلمي المطبوع سنة ١٩٧٣ على يد الأب قوتر البندكتي الألماني

P.B. KOTTER, O.S.B., Institut Byzantin de l'Abbaye de Scheyern.

راجعنا الترجمة كلّها بنأً على النصّ المذكور ، وخصوصاً ، على ضوء الملاحظات الدقيقة والكثيرة التي وافانا بها حضرة الأب نقولاً أنتيبا وأجربنا فيها ما رأيناه مفيداً من التعديلات .

ثمّ لمّا كانت نصوص الكتاب المقدّس الواردة على لسان القديس الدمشقي في كتابه «الإيمان الأرثوذكسي» كلّها بموجب الترجمة السبعينية ، ولمّا كانت هذه الترجمة غير منقولة إلى العربية ، فقد اضطررنا إلى إحالة القارئ عادة إلى هذه النصوص المستعملة في «الكتاب المقدّس» ، طبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت . ولكن في الحالات القليلة جداً التي يختلف فيها نصّ الترجمة السبعينية عن نصّ الآباء اليسوعيين ، قد أجربنا نحن هذا التعريب .

وها نحن نوافي قراءنا الكرام بنص الرسالة التي وجهها القديس الدمشقي إلى أخيه بالنبّي المطران قرما وهي بمثابة مقدمة^(١) من القديس لكتابه الكامل : «ينوع المعرفة».

مقدمة المؤلف

«أيها الأجلاء، إني، وقد بدأت أتأمل في ضيق تفكيري وبطء لساني، كنت أحجم عن المبادرة إلى ما يفوق قوتي والإقدام على ما لا يُستطاع. وكان شأني في ذلك شأن أي مغامر جسور يبصر الخطر المحقق بمن يأتون بمثل هذه الأعمال. لأنه، إذا كان موسى العظيم، ذاك المشترع الإلهي، الذي هجر كل مشهد بشري، واعتزل عن اضطرابات المعيشة، وأزال كل مظهر مادي، ونقّى ناظر نفسه فأضحى بذلك كفاءاً للرؤيا الإلهية، وقد استحق أن يشاهد انحدار الله الكلمة لأجلنا حباً بالبشر وتجسّده في عليقة ونار لا مادية، تلهب العوسجة وتضرمها وتحيلها إلى بهائها، فلا تحترق ولا تبيد ولا تفقد طبيعتها الخاصة. وقد كان هو أول من تلقى اسم الكائن - الكائن حقاً فوق الجوهر - وتسلم من لدن الله التسلم على أشياءه وبني قومه. فإذا كان هذا الرجل العظيم قد سمى نفسه «بطيء النطق وثقيل اللسان»، حتى إنه لا يستطيع أن يلبي إرادة الله، لعجزه عن إظهارها وعن قيامه وسيطاً بين الله والإنسان، فما تكون إذاً حالتي، أنا المتدنّس والموسوم بكل خطيئة، والحامل في ذاتي عاصفة هوجاء من الأفكار؟ ولست بصافي العقل ولا الذهن، حتى أصبح مرآة لله وللإشراقات الإلهية، وليس لدي قول أبديّه يكون على مستوى المعاني الإلهية المعجزة البيان والتي تفوق إدراك كلّ خليقة ناطقة؟!؟

وعليه، لما كنت تحت وطأة هذه الأفكار، كنت أحجم عن الكلام وأتخوف مما أمرتموني به، لثلا - والحق يقال - استجلب الضحك مضاعفاً، لسبب ما في من النقص في علمي وفي تفكيري. فكان من ثم الأمر صعباً جداً، لأن الانتساب إلى الجهل جدير

(١) في الأصل كان عنوان هذه «المقدمة» على الصورة التالية :

«رسالة من يوحنا الراهب المتوحد إلى حبيب الله البار قرما وأسقف مايوما الجزيل القداسة»

بالمساحة ، إذا لم يكن ناتجاً عن كسل . أمّا امتلاك التوهم بالمعرفة ، فذلك أمر بغض وجدير بالملامة ولا يستحق المساحة ، كليتة أكانت أم جزئية ، حتى لا أقول بأن ذلك دليل على أقصى الجهل .

ولكن لما كانت ثمرة المعصية موتاً ، وكان المتواضع والمطيع على مثال المسيح ينقاد صعوداً متواصلاً إلى العلى ويحظى من لدن الله على نعمة الاستنارة ، وإذا فتح فاه يمتلئ روحاً ، فيتفتق قلبه ويستنير ذهنه ويضيئ كلامه في فتح فمه ، دون أن يهتم لقوله ، وقد أصبح آلة الروح المتكلم فيه ، ومأخوذاً بالمسيح الذي يرثس الكهنوت بكم وفيكم . لذلك تراني ألبّي الأمر وافتح في وثاقاً بصلواتكم أنه يمتلئ روحاً ، فأبدي أقوالاً ليست ثمرة ذهني ، بل هي ثمرة الروح مرشد العميان ، لأنّي أتقبل ما يعطينيه وأنطق به .

فأقدم أولاً أحسن ما جاء في أقوال الحكماء اليونان ، لأنّي أعلم أنه إذا كان هناك شيء صالح فهو معطى من العلاء من لدن الله ، فإن « كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة هي من العلاء منحدره من لدن أبي الأنوار »^(٢) . وحسب قول غريغوريوس الخبير في علم اللاهوت : « إذا كان هناك شيء مضاد للحقيقة ، إنما هو استنباط قائم من حيل الشيطان واختراع العقل من شرّ إبليس » . لذلك ، فإنني ، على مثال ما تعمل النحلة ، أجمع ما يتلاءم مع الحقيقة وأقتطف من الأعداء خلاصاً ، فأفرز كلّ ما هو كاذب وكان اسمه مطابقاً للمعرفة الغاشّة ، ثم أرتّب حصيلة ما يتجمّع لديّ من هرطقات رجسة لديه تعالى ، حتى إذا ما عرفنا الكذب نزداد تمسكاً بالحقيقة . ثم بعد إزالة خراب الضلال وغشّ الكذب ، أبسط الحقيقة مع الله ونعمته تجعلها وتزيّنها ، كما بأهداب ذهبية ، أقوال الأنبياء الملهمين والصيادين الرشيديين والرعاة المعلمين اللاسبي الله . ولما كان مجد الحقيقة يتفجّر من داخلها نوراً ، فهو يضيء بأشعته على الذين يحفظون به ، بعد التماسهم التطهير وبهذهم الأفكار المقلقة .

وبالنتيجة ، فأنّا أقول ما سبق وقلته أن لا شيء لي البتّة (مما سأقوله) . إنما - وقد جمعت ووجدت قدر المستطاع ما تيسر لي من منتخبات المعلمين - فسأجعل كلامي مقتضباً ، مليباً في كل شيء أمركم . لكنني أقدس منكم ، يا أحبّاء الله ، أن تتعطفوا على الذي عمل بوصاياكم . واذا تقبلون طاعته ، تبادرونه بغزير صلواتكم ... »

الكتاب الأول :

الله تعالى



في أن الإله لا يُدرك ، وفي أنه ينبغي ألا نبحث
ولا ندقق في ما لم نسلّمه من الأنبياء والإنجيليين القديسين

«الله لم يره أحد قط . الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو أخير»^(١) . فالإله إذاً
يُعجز بيانه ولا يُدرك ، لأنه «ليس يعرف الآب إلا الابن ، ولا أحد يعرف الابن إلا
الآب»^(٢) . ويعرف الروح القدس ما في الله كما يعرف روح الإنسان ما في الإنسان^(٣) . أما
ما عدا الطبيعة الأولى السعيدة ، فلم يعرف أحد قط الله ، لا من البشر فحسب ، حتى ولا
من القوات الفارقة العالم ، أي الكيروبيم والسيرافيم أنفسهم إلا الذي اعتلن هو تعالى نفسه
له .

بيد أن الله لم يدعنا في جهل تام . فإنه قد زرع هو نفسه في طبيعتنا جميعاً المعرفة بأنه تعالى
موجود ، والطبيعة نفسها - باثلاثتها وانقيادها - تذيع هي أيضاً عظمة الطبيعة الالهية .
وقد أوضح لنا معرفته بالشرعية والأنبياء أولاً ، ثم بابنه ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ،
ذلك على قدر استطاعتنا . لذلك ، كل ما تسلّمناه من الشرعية والأنبياء والرسل والإنجيليين
ننقبّله ونعرفه ونوقّره ، غير فاحصين عما سوى ذلك البتة . فلما كان الله صالحاً ، فهو فيّاض
بكلّ صلاح ، دون أن يخضع البتة لبخل أو انفعال ما . فما أبعد البخل عن الطبيعة الإلهية
الصالحة وحدها والمنزهة عن الانفعال ! وعليه ، لما كان تعالى يعرف كل شيء ، وسبق
فهيئاً لكل ما يوافقه ، فقد أعلن لنا كل ما يفيدنا أن نعرفه ، وصمت عما لا نستطيع احتمالَه .
فاذاً علينا نحن أن نؤثّر ذلك ، ونقنع به ، «ولا نزيح الحدود القديمة»^(٤) ، فتجاوز التقليد
الإلهي .

(٤) أمثال ٢٢: ٢٨

(٣) ١ كور ٢: ١١

(٢) متى ١١: ٢٧

(١) يوحنا ١: ١٨

في ما يُعَبَّر وما لا يُعَبَّر عنه وفي ما يُعرَف وما لا يُعرَف

في ما نستطيع فهمه في الله ، دون التعبير عنه : - على من أراد إذا أن يتكلّم أو يسمع عن الله أن يعلم حقّ العلم أن ما يختصّ بمعرفة الله وبتدبيره ، ليس كلّه لا يُعَبَّر عنه ولا كلّهُ يُعَبَّر عنه ، وأنّ الذي يُعرَف غير الذي يُقال ، كما أن الكلام غير المعرفة . وعليه إن الكثير ممّا يُفهم عن الله فهمًا غامضًا لا يمكن التعبير عنه تعبيرًا صائبًا ، بل تضطرّ في الكلام عمّا يفوقنا إلى استعمال ما هو على شكلنا . مثلاً ، في الكلام عن الله ننسب إليه تعالى النوم والغضب والإهمال واليدين والرجلين وما شابه ذلك .

ما يمكننا فهمه والتعبير عنه : - غير أننا نعرف ونقرّ أن الله لا يده له ولا نهاية ، أبديٌّ وأزليّ ، غير مخلوق ، لا يتحوّل ولا يتغيّر ، بسيط وغير مركّب ، لا جسم له ، لا يُرى ولا يُلمس ولا يُحدّ ، ولا يقع تحت الحواسّ ، لا يستوعبه العقل ، لا يُحصّر ، لا يُدرك ، صالحٌ وعادلٌ ومبدعُ الخلائق بأسرها . قديرٌ وقابضُ الكلّ . يرى الكلّ ويعتني بالكلّ ومسلّطٌ وقاضٍ . ثم نعرف ونقرّ أن الله واحد - أي ذاتٌ واحدة ، معروفٌ في ثلاثة أقانيم ، آب وابن وروح قدس ، وآته كذلك . وأنّ الآب والابن والروح القدس واحد في كل شيء ، ما عدا اللاّولادة والولادة والانبثاق . وأنّ الوحيد الجنس ابن الله وكلمته والإله - لأجل أحشاء رحمته ، ولأجل خلاصنا - برضى الآب وموازة الروح القدس - حُبِلَ به بلا زرع ووُلِدَ بلا فساد من مريم البتول القديسة والدة الإله بواسطة الروح القدس ، وصار منها إنساناً كاملاً . وبما أنه هو نفسه إله كامل وإنسان كامل معاً - من طبيعتين لاهوت وناسوت ، وفي طبيعتين عاقلتين ومُريدتين وحرّتين - ، وبوجيز العبارة ، حاصلتين بالكمال على ما يليق بكلّ منها حداً وتعبيراً ، وأعني بذلك اللاهوت والناسوت ، مع أقنوم واحد مركّب ، لأنه جاع وعطش وتعَب ، وصُلب واختبر الموت والدّفن ثلاثة أيام ، وصعد إلى السماوات من حيث أتى إلينا . وسبأني أيضاً في الانقضاء . يشهد بذلك الكتاب الإلهي وجماعة القديسين .

ما لا يُستطاع فهمه ولا النطق به : - أمّا أي شيء هي الذات الإلهية ، أو كيف هي في الثلاثة ، وكيف الله الابن الوحيد الجنس أخلى ذاته فصار إنساناً من الدّماء البتولية ، مجبّولاً بطريقة مخالفة للطبيعة ، وكيف مشى على المياه ولم تُبلّ قدماه ، فهذا كلّهُ نجهله ونعجزُ عن الكلام فيه . إذاً لا يمكن النطق ولا التفكير عن الله خارجاً عمّا صوّره الله نفسه لنا أو قاله وأوضحه في المقولات الإلهية ، في العهدين القديم والجديد .

البرهان على أن الله موجود

معظم الأمم تعترف بوجود الله : - ومن ثم لم يكن موضوع شك أن يكون الله موجوداً ، لا لدى الذين تسلموا الكتب المقدسة - أفي العهد القديم كان ذلك أم في الجديد - ولا لدى معظم اليونانيين . فقد سبق وقلنا إن معرفة وجود الله قد زُرعت فينا طبيعياً . ولكن لما تقوى شر إبليس على طبيعة البشر ، حتى رَجَّ البعْض في لَجَّةِ اهْلاكِ البهيمية ، شرَّ الشرور كلها ، ذلك بأن أنكروا وجود الله - وقد أوضح النبي القديس داود غباوتهم بقوله : « قال الجاهل في قلبه : ليس إله »^(٥) ، حينئذٍ قام تلاميذ الرب ورسله ، ممتلئين بحكمة الروح القدس ، يعملون الآيات الإلهية بقوة ونعمته ، فأخرجوا هؤلاء بشباك المعجزات ، وأنقذوهم من عمق الجهل إلى نور المعرفة الإلهية . كذلك فعل أيضاً خلفاء هؤلاء في النعمة والاستحقاق ، الرعاة والمعلمون الذين نالوا نعمة الروح المنيرة . فقد أناروا بقوة المعجزات وكلمة النعمة أولئك الحاصلين في الظلام ، وردّوا الضالّين . أمّا نحن الذين لم تسلم موهبة المعجزات ولا التعليم - لأننا باستسلامنا إلى اللذات جعلنا أنفسنا غير مستحقّين - فهاتِ تعرض القليل ممّا وصل إلينا من مذهب النعمة ، مستدعين الآب والابن والروح القدس .

البرهان العقلي على وجود الله : - كل الكائنات مخلوقة أو غير مخلوقة . فإذا كانت مخلوقة فهي حتماً متحوّلة ، - لأن وجودها ابتدأ من تحويل . وهي خاضعة للتحويل ، فهي في كلّ شيء عرضة إمّا للفساد وإمّا للتغيير في اختيارها . أمّا إذا كانت غير مخلوقة ، فهي ، - بحسب الاستنتاج المنطقي - غير متحوّلة البتة لأن كيانها نفسه مختلف وكيفية التعبير عنها مختلفة أيضاً وأعني بذلك اختصاصاتها . فمن لا يُسلم إذاً بأن جميع الكائنات التي تقع تحت حواسنا ، بل حتى الملائكة ، تتحوّل وتتغيّر وتتحرّك بحركات شتى : فالعاقلة منها - وهي الملائكة والأرواح والشياطين - فبحسب اختيارها ، تتقدّم في الخير أو تبتعد عنه ، تميل إليه أو ترتد عنه . أمّا الباقية ، فذلك بحسب تكوينها وفسادها ، إزديادها ونقصانها ، تطوّراتها في خلقها وحركتها المكانية . وعليه فيما أنها متحوّلة ، فهي حتماً مخلوقة ، وبما أنها مخلوقة فهي

(٥) مزمور ١١٣

الكتاب الأول

حتماً صنع أحد. ويجب أن يكون صانعها غير مخلوق. أما إذا كان هذا مخلوقاً، فهو حتماً صنع أحد، ذلك إلى أن نبلغ إلى واحد غير مخلوق. إذاً لما كان الصانع غير مخلوق فهو حتماً غير متحول. ومن يكون هذا يا ترى سوى الله؟

البرهان الثاني من حفظ الكائنات وسياستها: - وإن التثام الخليفة نفسه مع حفظها وسياستها يُعلمنا هو أيضاً أن الله موجود، وأنه هو المرتب والمنسق والحافظ هذا الكون كله والمعني به على الدوام. فكيف تقترن العناصر المتنافرة بعضها ببعض - وهي النار والماء والهواء والتراب -، كيف تقترن إذاً لتكميل عالم واحد، وتستمر غير منحلة، لو لم تكن هناك قوة قديرة تجمعها وتحفظها غير منحلة؟

البرهان الثالث من ترتيب الكون: - العالم لم ينتظم ويتركز صدفة، ضد الإبيكوريين. ما الذي نظم ما هو في السماء وما هو على الأرض، كل ما هو في الهواء وكل ما هو في الماء؟ ما الذي خلطها ووزعها؟ من دفع بها إلى الحركة وقاد انطلاقها بلا هوادة ولا حاجز؟ هل هو إلا الذي أنقذها ووضع أمره فيها كلها؟ فيسير الكون بموجبه ويتدبر؟ - ومن هو متقنها؟ أليس الذي صنعها وأخرجها إلى الوجود؟ فإننا لا ننسب قوة مثل هذه إلى الصدفة، لأننا إذا افترضنا بأنها وجدت صدفة، فما هو الذي نظمها؟ وإذا سلمنا بهذا أيضاً - إذا أردت ذلك - لكن لمن نسب الاعتناء بها وحفظها طبقاً للقواعد التي تأسست عليها في البدء؟ - إن ذلك هو حتماً غير الصدفة. - وماذا يكون سوى الله؟

ما هو الله؟ - إنه غير مدرك

ست صفات في الله تدلّ على أنه لا جسم له: - إذاً إنه لواضح أن الله موجود. - ولكن ما هو الله في جوهره وطبيعته؟ - إن هذا لا يمكن إدراكه ولا معرفته البتة. وإنه لواضح أيضاً أن لا جسم له. - فكيف من لا يُختبر يكون جسماً؟ وهو لا يُحد ولا يُصور ولا يُلمس ولا يُرى وبسيط وغير مركب؟ - وكيف يكون غير متحول، إذا كان محصوراً ومنفصلاً؟ - وكيف يكون متراًها عن الانفعال من هو مركب من عناصر، وسينحل يوماً إليها؟ - فالتركيب بدء النفور. والنفور بدء التفكك. والتفكك بدء الانحلال. والانحلال غريب تماماً عن الله.

وكيف يصحّ هذا أيضاً أن الله ينفذ عبر الكلّ ويملاّ الكلّ؟ - على حسب ما قال الكتاب: «ألسن مائي السماوات والأرض؟ يقول الرب»^(٦). - فالجسم لا يستطيع النفوذ عبر الأجسام دون أن يقطعها وتقطعها، أو يشترك بها وتعارضه، مثلها مثل جميع الرطوبات التي تختلط وتمتزج بالأشياء.

يزعم الرواقيون أن الله جسم غير مادي، وهو الجوهر الخامس: - وإذا قال بعضهم أيضاً إن الله جسم غير مادي اسمه العنصر الخامس، كما يزعم بعض حكماء اليونان، نقول: إن هذا لا يمكن وجوده، لأنه يكون حتماً متحركاً، شأنه شأن السماء. وإذا قالوا إن هذا جسم خامس، فالذي يحركه من يكون؟ - لأنّ كلّ متحرك يحركه آخر - وذلك من هو؟ - ذلك إلى أقصى حدود التصور، إلى أن ننهي إلى من هو لا يتحرك. فإن الأول الذي يحرك ولا يتحرك هو هو الإله. وكيف المتحرك لا يكون في مكان محدود؟ - إن الإله إذاً وحده لا يتحرك، ويحرك الكلّ بعدم تحركه. ومن ثمّ ينبغي أن ندرك بأن الإله لا جسم له.

إن الصفة «لا جسمي» لا تفيد شيئاً عن الله: - ولكن هذا: «إن الإله لا جسم له» لا يدلّ على جوهر الله، كما هي الحالة في كونه غير مولود ولا بدء له ولا يتغير ولا يفسد. وفي

الكتاب الأول

كل ما يُقال عن الله وعن وجوده ، لأنَّ هذه الصفات تدلُّ لا على ما هو الله ، بل على ما ليس هو . ويتبعني على مَنْ يشاء التكلم عن جوهر شيء ما أن يقول ما هو هذا الشيء ، لا ما ليس هو . ومن ثمَّ أجيب على السؤال ، ما هو الله ، باستحالة الكلام عن جوهره . وهذا المنطق أقرب إلينا جداً من تحيُّل جميع الصفات . ذلك لأنَّ الله ليس واحداً من الكائنات ، لا لأنه ليس كائناً ، بل لأنه فوق جميع الكائنات ، وهو فوق الوجود نفسه . ولما كانت معارفنا على مستوى الكائنات ، فما هو فوق المعرفة هو حتماً فوق الجوهر أيضاً . وبالعكس ما هو فوق الجوهر يكون أيضاً فوق المعرفة .

في التكلم عن الله ، الإقرار بعدم المعرفة هو الأفضل : - الإله إذاً لا يُحد ولا يُدرَك . والشيء الوحيد الذي تُدرَكه عنه أنه لا يُحد ولا يُدرَك . وكل ما نقوله في الله للتوضيح يدلُّ ، لا على طبيعته ، بل على ما هو حول طبيعته . فإذا قلت بأنه صالح وعادل وحكيم ومهما قلت ، فلست تقول شيئاً عن طبيعته ، بل عما هو حول طبيعته . وهناك أيضاً بعض المقولات التوضيحية عن الله ، لها قوة توضيح تدريجي . مثلاً إذا نسبنا الظلام إلى الله ، فلنسا نفكر بالظلام بل بأنه ليس نوراً ، بل بأنه فوق النور .

البرهان على أن الله واحد لا كثرة

لقد اتضح اتضاحاً وافياً أن الله موجود وأن جوهره لا يُدرك. أمّا أنه واحد لا كثرة ، فليس هذا موضوع شك لدى الذين يؤمنون بالكتاب الإلهي. فقد قال الرب في بدء تشريعه : «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر. لا يكن لك آلهة أخرى سواي»^(٧). وأيضاً : «اسمع يا إسرائيل ، إن الرب إلهنا رب واحد»^(٨). وجاء في أشعيا النبي : «أنا الأول وأنا الآخر. ولا إله غيري»^(٩) ، و «إني أنا هو ، لم يكن إله قبلي ولا يكون إله بعدي»^(١٠). ويقول الرب في أناجيله المقدسة مخاطباً الآب هكذا : «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك»^(١١). أمّا الذين لا يؤمنون بالكتاب الإلهي فتُجادلهم هكذا :

إيضاح منطقي بأن الله واحد : - إن الإله كامل وهو ليس ناقصاً البتة في صلاحه وفي حكمته وفي قوته. وهو لا بدء له ولا نهاية ، أزلي ، غير محدود. وبالاختصار ، هو كامل في كل صفاته. وعليه إذا قلنا بالهة كثيرين ، فوجب أن نرى تبايناً في كثرتهم. لأننا إذا لم نر تبايناً فيهم ، فهم بالأحرى واحد لا كثرة. فمن كان ناقص الكمال في صلاحه أو في قوته أو في حكمته أو في الزمان أو في المكان ، فلا يكون إلهاً. ووحدة الهوية في كل الصفات إنما تشير بالأحرى إلى واحد ، لا إلى كثرة.

وكيف لعمري تسلم اللا محدودية في من هم كثرة؟ لأنه حينئذ يكون الواحد لا يمكن أن يكون الآخر.

وكيف يسوس كثيرون العالم ولا ينحلل ويفسد ، في حال قيام حرب بين الساسة؟ لأن التباين يؤذي إلى الخلاف. وإذا قيل بأن كل واحد يرثس قطاعه ، فن هو المنظم الذي يقوم بتوزيع الحصص بينهم؟ لأن ذاك بالأحرى يكون الله. ومن ثم إن الله واحد وكامل ولا يُحصَر وصانع الكل وسائسه. وهو فوق الكمال وقبل الكمال ، لأن الطبيعة تقضي بأن تكون الوحدة بدء الازدواجية.

(٩) أشعيا ٤٤: ٦

(٨) تثنية الاشتراع ٦: ٤

(٧) خروج ٢٠: ٢

(١١) يوحنا ١٧: ٣

(١٠) أشعيا ٤٣: ١٠

إيضاح منطقي في الكلمة ابن الله

مقابلة بين كلمة الله والكلمة البشرية : - ومن ثم إن الله الواحد الأحد ليس بخالٍ من كلمة . وبما أن الله له كلمته فهي ليست بخالية من أقنوم . أما وجود الكلمة فهو لا بدء له ولا نهاية . فلم يكن زمنٌ إذاً حيث لم يكن الله الكلمة . وإن الله له كلمته مولودة منه دائماً ، فهي ليست لأقنومية على مثال كلمتنا التي تتبدد في الهواء . بل هي أقنومٌ حيٌّ كامل لا يتعد خارجاً عنه ، بل هو كائن فيه دائماً . فأين يا ترى يكون موجوداً خارجاً عنه ؟ ولما كانت طبيعتنا زائلة وسريعة الانحلال ، لذلك تكون كلمتنا أيضاً لأقنومية . أما الله - وهو الكائن دوماً والكائن كاملاً - فإن له أيضاً كلمته كاملة وأقنومية وكائنة دوماً وحية ، لها كل ما لوالدها . فكما أن كلمتنا - لأنها صادرة من عقلنا - ليست هي وعقلنا شيئاً واحداً في كل شيء ، وليست هي غيره في كل شيء ، - فبما أنها من العقل ، فهي غير ما هو ، وبما أنها تؤدي بالعقل إلى تبيان ذاته ، فليست هي غير العقل في كل شيء - . لكن بما أنها واحد في الطبيعة ، فهي غير ما هو في الخضوع . كذلك قل أيضاً عن كلمة الله ، فبما أنه قائم في ذاته فهو يتميز عن الله الذي له منه أقنومه ، وهو - فيما يظهر في ذاته ما يراه في الله - له الطبيعة نفسها التي هي لله . فكما يشاهد الكمال في الآب في كل شيء ، كذلك يشاهد في الكلمة المولود منه .

إيضاح منطقي في الروح القدس

مقابلة بين الروح الإلهي والروح البشري: - يجب أيضاً أن يكون للكلمة روح، فإن كلمتنا أيضاً لا تخلو من الروح. لكن الروح عندنا غريب عن جوهرنا. فهو جذبُ الهواء وردّه، استنشاقه وتبديده، لأجل قيام الجسد. وهو نفسه يصير صوتاً في أثناء التكلم، فيُظهر في ذاته قوّة الكلمة. وينبغي الاعتراف اعترافاً تقياً بوجود روح الله أيضاً في طبيعته الإلهية البسيطة وغير المركبة، لئلا يبدو الكلمة أنقص من كلمتنا. وليس من التقوى أن نقول بأن الروح شيء غريب عن الله ومستورد إليه من خارج، شأنه شأن روحنا نحن المركبين. لكن كما نفهم - لدى ذكر كلمة الله - أنه ليس بلا أقنوم، ولا حاصلًا من تعليم، ولا محمولاً بصوت خارجي ولا مبدداً في الهواء، ولا منحلًا، بل نفهمه قائماً في جوهره، حراً وفاقلاً وقديراً، كذلك - وقد تعلمنا أن روح الله هو الملازم للكلمة والمُظهر فعله -، فإننا نرفض الاعتقاد أن يكون نسمةً عابرة، لأننا بذلك نخطئ من شأن الطبيعة الإلهية حتى الحقارة، إذا انحدرنا بالتفكير إلى أن الروح الذي فيها هو على مثال روحنا. لكننا نعتقد أنه قوة جوهرية، مرئية هي نفسها في أقنومها الخاص بها، منبثقة من الآب، مستريحة في الكلمة. ولأنها تُظهره فهي لا تبتعد عن الله الذي هي فيه، ولا عن الكلمة لأنها تُلازمه. وهي مقتدرة، فلا تتوَل إلى الزوال. أمّا الروح - على مثال الكلمة - فهو كائنٌ في أقنوم، حيٌّ، حرٌّ، متحرِّكٌ بذاته، فاعلٌ بذاته، مُريدٌ دوماً الصلاح، قوته طوع إرادته، فهو لا بداية له ولا نهاية. فالكلمة لا يغربُ قط عن الآب، ولا الروح عن الكلمة.

وعلى هذا النحو، فبالوحدة في الطبيعة الإلهية يزول ضلالُ كثرة الآلهة، وبالاعتقاد بالكلمة والروح يزول رأيُ اليهود. ويبقى ما هو مفيدٌ من كلا المعتقدين: فمن الفكرة اليهودية وحدة الطبيعة، ومن الفكرة الإغريقية التمييز في الأقانيم وحده.

أدلة من كتاب العهد العتيق على وجود الكلمة والروح

وإذا قام اليهودي يعترض ضد تعليمنا في الكلمة والروح، فلنُخاصمه أقوال الكتاب الإلهي ونُسكته! فإن داود الإلهي قد قال في الكلمة: «كلمتك يا رب ثابتة في السماء إلى

الأبد»^(١٢). وأيضاً: «أرسل كلمته فشفاهم»^(١٣). والكلمة المفوظة لا تُرسل ولا تبقى إلى الأبد. ويقول داودُ نفسه في الروح: «ترسل روحك فيُخلَقون»^(١٤)، وأيضاً: «بكلمة الرب صُنعت السماوات وبروح فيه كلُّ جنودها»^(١٥). ويقول أيوب: «روح الله هو الذي صنعني ونسمةُ القدير أحييتني»^(١٦). فالروح الذي يُرسل ويصنع ويثبت ويحيي ليس تلك النفخة الزائلة، كما أن فم الله ليس عضواً جسياً، لأنه ينبغي أن نفهمها كلها فهماً يليق بالله.

(١٥) مز ٣٢: ٦

(١٤) مز ١٠٣: ٣٠

(١٣) مز ١٠٦: ٢٠

(١٢) مز ١١٨: ٨٩

(١٦) أيوب ٤: ٣٣

في الثالث الأقدس

إيماننا بالآله الواحد

إذا تؤمن بالآله واحد ، بدء واحد لا بدء له ، غير مخلوق ولا مولود ، لا يزول ولا يموت ، أبدي ، لا يُحصَر ولا يُحدّ ، ولا يُحاط به ، لا تُحصَر قوّته ، بسيط وغير مركّب ، لا جسم له ، لا يسيل ولا يتفعل ولا يتحوّل ولا يتغيّر ، لا يرى ، ينبوع الصلاح والصدق ، نور عقلائي ، لا يُدنى منه ، قوّة لا يُعرف لها أيّ قياس وقياسها مشيئته الخاصة وحدها ، لأنه « كل ما شاء صنعه »^(١٧) . صانع كلّ المخلوقات ما يرى وما لا يرى . قابض الكلّ وحافظه ، يعني بالكلّ ، يضبط الكلّ ويرثسه ويملك عليه ملكاً لا ينتهي خالداً . ليس له مقاوم ، يملأ الكلّ . لا يُحيط به شيء وهو يُحيط بكلّ شيء ويستولي عليه ويهيئه . ينفذ عبر كلّ الجواهر ولا يمسخها . وهو أسمى من الكلّ . مترفع عن كلّ جوهر لجلال جوهره وكائن فوق الكائنات . فائق اللاهوت وفائق الصلاح وقيّاض . محدّد السلطات والرتب بأسرها ومستقرّ فوق السلطات والرتب كلها . فائق الجوهر والحياة والنطق والتفكير . هو النور بالذات والصلاح بالذات والحياة بالذات والجوهر بالذات ، لأنّ وجوده ليس من غيره ولا من كلّ الموجودات ، لأنه هو ينبوع الوجود لها كلّها ، وينبوع الحياة للأحياء والنطق للمتمتّعين بالنطق وعلة جميع الخيرات للجميع . هو عالم بكلّ الأشياء قبل كيانها ، وهو جوهر واحد ولاهوت واحد وقوّة واحدة ومشية واحدة وفعل واحد وورثاسة واحدة وسلطة واحدة وتؤمن به كلّ خليفة ناطقة وتعبّده . فالأقانيم متحدون دون اختلاط ، ومتميّزون دون انقسام - وهذا غريب - . هم آب وابن وروح قدّوس ، بهم اعتمدنا . فإنّ الربّ قد أوصى تلاميذه أن يعمّدوا على النحو التالي قائلاً : « معمّدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس »^(١٨)

إيماننا بالآب والابن : - تؤمن بآب واحد ، مبدأ الجميع وعلّتهم . لم يلدّه أحدٌ وهو وحده أيضاً غير معلول ولا مولود . صانع الكلّ وأب بالطبيعة للوحيد الجنس وحده ، ابنه ربّنا يسوع المسيح إلهنا ومخلصنا . وهو مصدر الروح القدس . وتؤمن بابن الله الواحد والوحيد

الكتاب الأول

الجنس ربنا يسوع المسيح المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء . فبقولنا أنه قبل الدهور ، نبين أن ولادته لم تكن في الزمن ولم تبدئ ، لأن ابن الله لم ينتقل من العدم إلى الوجود . فهو بهاء الجدد وميزة أقنوم الآب والحكمة الحية والقوة والكلمة الأقنومي وصورة الله الذي لا يرى الجوهرية والكاملة والحية ، بل كان دائماً مع الآب وفي الآب مولوداً منه ولادة أزلية لا بدء لها . فإنه ما كان قط زمن لم يكن الابن فيه ، بل حينما الآب فهناك الابن المولود منه ، لأنه بدون الابن لا يُسمى آبا . وإذا لم يكن له الابن ، فليس هو آبا . وإذا صار له الابن بعد ذلك ، فبعد ذلك فقط يصير آبا ويتحول من أنه لم يكن آبا إلى أنه صار آبا . وهذا أفضح من كل كفر ! وعليه لا يمكن القول بأن الله خالٍ من الخصب الطبيعي . والخصب هو أن يلد الجيل من ذاته - أي من جوهره الخاص - مثيلاً له في الطبيعة .

مقابلة بين الولادة الإلهية والمخلوق : - إنه إذا تكفّر القول في ولادة الابن أن قد تخللها زمن وأن وجود الابن كان بعد الآب . وإن ما نقوله إن ولادة الابن كانت من الآب أي من طبيعته . وإذا لم نسلم بأن - منذ البدء - كان الابن مع الآب مولوداً منه ، فإننا ندخل تحويلاً في أقنوم الآب ، ذلك أنه لم يكن آبا ثم صار آبا . أما الخليفة ، ولو أنها صارت في ما بعد ، فهي ليست من جوهر الله ، وقد صارت من العدم إلى الوجود بإرادته تعالى وقوته ، ولم يلتحق تحويلاً في طبيعة الله . إن الولادة صدور المولود من جوهر الوالد مساوياً له في الجوهر . أما المخلوق والصنع ، فيصيران من خارج ، فلا يكون المخلوق والمصنوع من جوهر الخالق والصانع ، ولا مساويان لها البتة .

لذلك ، لما كان الله منزهاً وحده عن الانفعال والتحويل والتغير ، وكان هو هو دائماً ، كان كذلك أيضاً في الولادة وفي الخلق بلا انفعال . فلأنه بطبيعته لا يفعل ولا يسيل - لأنه بسيط وغير مركب - لم يكن ليعاني الانفعال أو السيلان ، لا في الولادة ولا في الخلق ، ولم يكن بحاجة لمساعدة أحد . لكن الولادة لا بدء لها وأزلية - لأنها فعل الطبيعة ولأنها صادرة من جوهر الله - ، ذلك كي لا يخضع الوالد لتحويل ، وكلي لا يكون إله أول وإله آخر مما يحدث إضافة . أما الخلق ، بالنسبة إلى الله الذي هو فعل إرادته ، فليس مساوياً لله في الأزلية . فالمنتقل من العدم إلى الوجود لا يكون مساوياً في أزلية الوجود لمن لا بدء له وهو كائن دائماً . وعلى هذا النحو إذا لا يتساوى فعل الإنسان وفعل الله . لأن الإنسان لا يُخرج شيئاً من العدم إلى الوجود ، لكن كل ما يصنعه إنما يصنعه انطلاقاً من مادة سابقة

الوضع ، وليس ذلك بمجرد أن يُريد ، بل هو يسبق فيفكر أيضاً ويصمم المشروع في عقله ثم يعمل بيديه أيضاً ويواصل الكد والتعب . وكثيراً ما يعجز عن البلوغ إلى مرامه كما يريد . أما الله فيمكن أن يُريد فقط ويخرج كل شيء من العدم إلى الوجود . وعلى هذا النحو لا يلد الله مثلاً يلد الإنسان . فبما أن الله منزّه عن الزمن ولا بدء له ولا يفعل ولا يسيل ولا جسم له وفريد ولا نهاية له ، تكون ولادته بلا زمن وبلا بدء ولا انفعال ولا سيلان وبدون علاقة . وولادته التي لا تُدرك ليس لها بداية ولا نهاية . وهي بلا بدء لأنها لا تتحوّل ، وبلا سيلان لأنها لا تتفعل ولا جسميّة . وهي بلا علاقة لأنها أيضاً لا جسميّة ولأن الله واحد أحد وليس بحاجة إلى آخر . وهي بلا نهاية ولا انقطاع ، لأنها منزّهة عن البدء والزمن والنهية ، وإنها هي دائماً . فالذي هو بلا ابتداء يكون بلا انتهاء . أمّا الذي هو بلا انتهاء بالنعمة ، كالملائكة ، فليس هو حتماً بلا ابتداء .

الفرق بين الولادة الإلهية والولادة البشرية

وعليه يلد الله الكائن دوماً كلمته - وهي كاملة - بلا بداية ولا نهاية ، ذلك كيلا يلدَ الله في زمن ، وهو الذي طبيعته وكيانه يجعلان كثيراً فوق الزمن . أمّا الإنسان فهو ، من الواضح ، على خلاف ذلك : إنه يتم ولادته بالوضع والفساد والسيلان وكثرة النسل وبوشاح الجسد والتواجد في طبيعته للذكر والأنثى ، لأن الذكر بحاجة إلى مساعدة الأنثى . ولكن ليرحمنا من هو فوق الجميع الذي يسمو فوق كل عقل وإدراك .

في الآب والابن : - إذا تعلّمنا الكنيسة الجامعة الرسولية أن مع وجود الآب كان الابن الوحيد الجنس موجوداً منه بلا زمن ولا سيلان ولا انفعال ممّا يفوق الإدراك ، الأمر الذي يعلمه إله الجميع وحده . فكما أنه مع وجود النار يكون النور الصادر منها ، ولا تكون النار أولاً وبعد ذلك النور ، بل يكونان معاً . وكما أن النور الصادر من النار مولود منها دائماً ولا يفارقها البتة ، كذلك يولد الابن أيضاً من الآب دون أن يفارقه البتة ، بل يكون فيه دائماً . لكنّ النور المولود من النار بلا افتراق والباقي فيها دائماً ، ليس له أقنوم خاص به من قبل النار ، لأنه صفة للنار طبيعياً . أما ابن الله الوحيد الجنس المولود من الآب بلا انفصال ولا افتراق ، والثابت فيه دائماً ، فله أقنومه الخاص من قبل الله .

لماذا الابن يُسمّى كلمة وبهاء وصورة ، ولماذا يُسمّى الوحيد؟ - وعليه يُسمى الابن كلمة وبهاء ، لولادته من الآب بلا علاقة ولا انفعال ولا زمن ولا سيلان ولا افتراق . وهو

الكتاب الأول

أيضاً صورةً الأقنوم الأبوي، لأنه كامل وذو أقنوم ومساو للآب في كل شيء، عدا اللاولادة. وهو الوحيد الجنس، لأنه وُلد وحده من الآب وحده ولادةً وحيدة؛ فليس من ولادة أخرى تُساوي ولادة الابن من الله، وليس من ابن الله سواه. أمّا الروح القدس، فينبثق من الآب لا بالولادة بل بالانبثاق. وطريقة الوجود الأخرى هذه لا تُدرك ولا تُعرف، شأنها شأن ولادة الابن. لذلك كل ما للآب هو أيضاً للروح عدا اللاولادة التي لا تشير إلى جوهر أو رتبة مختلفين، بل إلى طريقة الوجود. فإن آدم مثلاً هو غير مولود لأنه جبلة الله، وشيتا مولود لأنه ابن آدم، وحواء منبثقة من ضلع آدم وهي غير مولودة. ولا يختلف واحداهم بالطبيعة عن الآخر - لأنهم بَشَر - بل يختلفون في طريقة وجودهم.

الاختلاف بين كلمة ἀγέννητος وكلمة ἀγέννητος : - واعلم أن كلمة ἀγέννητος المكتوبة بنونٍ واحدة (ν)، معناها «غير مخلوق» أو «غير كائن»، وكلمة ἀγέννητος المكتوبة بنونٍ مزدوجة (νν)، معناها «غير مولود». فبالمعنى الأول إذاً يختلف جوهر عن جوهر، لأنّ الجوهر غير المخلوق أو غير الكائن ليس كالجوهر المخلوق أو الكائن. أما بالمعنى الثاني، فلا يختلف جوهر عن جوهر، لأنّ الفرد الأول من كل الحيوانات غير مولود، ἀγέννητος، لا غير مخلوق ἀγέννητος، لأنّ الباري قد خلقها كلّها وأوجدتها بكلمته، لكنها لم تولد، لأنّ واحدها لا يولد إلا من آخر من الجنس نفسه سبقه في الوجود.

فبحسب المعنى الأول إذاً يتساوى الأقانيم الثلاثة الإلهيون في اللاهوت الأقدس. وهم متساوون وغير مخلوقين. أمّا بحسب المعنى الثاني، فلا، لأنّ الآب وحده غير مولود. ووجوده ليس من أقنوم آخر غيره. والابن وحده مولود، لأنه وُلد من جوهر الآب المترّ عن البدء والزمن. والروح القدس وحده منبثق من جوهر الآب - غير مولود بل منبثق^(١٩). فهكذا يعلمنا الكتاب الإلهي. أمّا الكيفية في الولادة والانبثاق فتظلّ غير مدركة.

واعلم هذا أيضاً أنّ اسم الأبوة والبنوة والانبثاق لم ينتقل من عندنا إلى اللاهوت السعيد بل بالعكس، فهو قد انتقل إلينا من هناك، على ما يقول الرسول الإلهي : - «لهذا السبب أجثو على ركبتيّ لأني ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمّى كل أبوة في السماوات وعلى الأرض»^(٢٠)

كيف الآب أعظم من الابن وكيف الكلمة ليس آله للآب : - وإذا قلنا بأن الآب مبدأ الابن وأعظم منه ، فلسنا نعي أنه يفوق الابن زمناً أو طبيعةً ، لأنه « به أنشأ الدهور » (٢١) ، ولا أنه يفوقه بشيء آخر سوى العلة ، أي أن الابن وُلد من الآب ، لا الآب من الابن ، وأن الآب علة الابن بحسب الطبيعة ، كما نحن نقول بأن النار ليست صادرة من النور ، بل بالأحرى النور من النار . إذاً عندما نسمع أن الآب مبدأ الابن وأنه أعظم منه ، نفكر بالعلة . وعلى نحو ما نقول بأن ليس جوهر النار سوى جوهر النور ، على نحو ذلك نقول - كما يبدو واضحاً - أن ليس جوهر الآب سوى جوهر الابن ، بل هما واحد وهما الشيء نفسه . وكما نقول إن النار تظهر بالنور الصادر منها ، ولسنا نحسب أن النور - الذي هو من النار - آله خادمة لها ، بل أنه قوتها الطبيعية ، كذلك إنه مهما يعمل الآب يعمل به بابه - ليس كما بعضو للخدمة - ، بل بقوته الطبيعية الأقنومية . وكما نقول إن النار تضيء ونقول أيضاً إن النور يضيء ، كذلك نقول : « مهما يعمل الآب فهذا يعمل الابن » (٢٢) . لكن الفرق أن النور لا أقنوم له خاصاً متميزاً عن النار ، وأن الابن أقنوم كامل غير منفصل عن الأقنوم الأبوي ، كما أثبتنا ذلك في ما تقدم . فإنه - في الخليقة - لا يمكن إيجاد صورة توضح في ذاتها حالة الثالوث الأقدس إيضاحاً كاملاً دون اختلاف . فكيف المخلوق والمركب والسائل والمتحول والحدود وذو الشكل والفساد ، كيف هذا يبين بصفاء الجوهر الإلهي السامي الجوهر ، الغريب عن هذه الصفات كلها ؟ إنه لتواضح أن كل خليقة غارقة في الكثير من هذه الصفات وهي جميعها بموجب طبيعتها خاضعة للفساد .

في الروح القدس . - لا نعلم كيفية التمييز بين الولادة والانبثاق : - وبالمثل ، نؤمن أيضاً بالروح القدس الواحد ، الرب المحيي ، المنبثق من الآب والمستريح في الابن والموجود له والممجّد مع الآب والابن ، على أنه مساوٍ لها في الجوهر والأزلية ، الروح الذي هو من الله ، المستقيم ، صاحب الأمر وينبوع الحكمة والحياة والتقديس ، - لأنه إله مع الآب والابن فعلاً واسماً - غير المخلوق ، الممتلئ ، المبدع ، صاحب الاقتدار ، كاملٌ الفعالية والقوة ، لا حدٌ لقوته ، المتسلط المطلق على الخليقة كلها . يؤله ولا يتأله ، يملأ وليس ما يملأه ، يُستمد منه ولا يستمد ، يُقدّس ولا يتقدّس ، يُلبّج إليه لتقبّله استغاثات الجميع . مساوٍ للآب والابن في كل شيء . منبثق من الآب وموهوبٌ بالابن فتناله الخليقة كلها . خالقٌ بذاته ،

الكتاب الأول

يَكُونُ الكلّ وَيَقْدَسُهُ ويعتني به ، قيوم بأقنومه الخاص ، غير مفترق ولا منفصل عن الآب والابن . له كل ما للآب والابن عدا اللاولادة والولادة ، فَإِنَّ الآب غير معلول وغير مولود - لأنه ليس من أحد ، بل له وجوده من ذاته ، ولا شيء مما هو له كان من غيره ، بل بالأحرى هو لكليها بالطبيعة المبدأ وعلة كَيْفِيَّة الوجود - . أمّا الابن فهو من الآب بالولادة . والروح القدس هو أيضاً من الآب ، لكن لا بالولادة بل بالانبثاق . ونحن نعلم أَنَّ هناك فرقاً بين الولادة والانبثاق لكننا نجهل كَيْفِيَّتَهُ . وإننا نعلم أيضاً بأنّ ولادة الابن وانبثاق الروح القدس من الآب كانا معاً .

اختصاصات الأقانيم : - إذاً كل ما كان للابن والروح ، كان لها من الآب ، حتى الوجود نفسه . ولو لم يكن الآب ، لما كان الابن ولا كان الروح . ولو لم يكن للآب شيء ، لما كان أيضاً شيء للابن ولا للروح . وبسبب الآب كان للابن والروح كل ما لها - أي بسبب أَنَّ للآب هذه كلّها - ما عدا اللاولادة والولادة والانبثاق . فهذه الاختصاصات الأَقْنُومِيَّة وحدها يتميز أحد الأقانيم الثلاثة القدّوسة عن الآخرين . ويتميّزون بلا انقسام في الجوهر ، بل ذلك بميزة الأَقْنُوم الخاص .

لا تركيب في الثالوث : - ونقول إنّ لكلّ من الثلاثة أَقْنُومُهُ الكامل ، لثلاثتهم بأنهم طبيعة واحدة كاملة مركّبة من ثلاثة غير كاملين ، ونقول أيضاً إنّ في الأقانيم الثلاثة الكاملين جوهرًا بسيطاً واحداً فائق الكمال وقبل الكمال . لأنّ كلّ مجموعة من غير كاملين تكون حتماً مركّبة ، ولا يمكن إيجاد مركّب من ثلاثة أقانيم . لذلك فإننا لا نتكلّم عن نوعهم إنّهم من أقانيم بل إنّهم في أقانيم . وقد سمّيناها ناقصة تلك الأشياء التي لا تحتفظ بنوع الصنع المصنوع منها . فالحجر والخشب والحديد ، كلّ منها كامل بذاته في طبيعته الخاصة . أمّا بالنظر إلى البيت المصنوع منها ، فكلّ منها ناقص ، لأنّ كلّاً منها ليس في ذاته بيتاً .

كيف الثلاثة إله واحد : - وعليه إنّنا نقول بأنّ الأقانيم كاملون لثلاثتهم بتركيب في الطبيعة الإلهية . فالتركيب بدء التقسيم . ونقول أيضاً إنّ كلّاً من الأقانيم الثلاثة هو في الآخر ، لثلاثتهم نصير إلى كثرة وجمهرة من الآلهة . لذلك نفّر بعدم تركيب الأقانيم الثلاثة وبعدم اختلاطهم ، ولذلك أيضاً نعتزف بتساوي الأقانيم في الجوهر وبأنّ كلّ واحد منهم هو في الآخر وبأنّها هي هي مشيئتهم وفعلهم وقوّتهم وسلطتهم وحركتهم - إذا صحّ التعبير ، وبأنّهم إله واحد غير منقسم . فَإِنَّ الله واحد حقاً ، وهو الله وكلمته وروحه .

في العيز بين الأقسام الثلاثة - والفرق بين النظر بالفعل والنظر بالنطق والتفكير :
 - واعلم أن النظر بالفعل غير النظر بالنطق والفكر . وعليه يتضح لنا تمييز الأفراد بالفعل في
 جميع المخلوقات ، لأن بطرس يبدو منفصلاً بالفعل عن بولس . أما ما هو فيها مشترك
 ومتجانس وواحد ، فلنستأشده إلا بالمنطق والتفكير . فنفكر في عقلنا أن بطرس وبولس
 من طبيعة هي نفسها وأن لها طبيعة مشتركة . فكل منها حيوان ناطق ومائت ، وكل منها
 تُحْيِي جسده نفس ناطقة وعاقلة . أما الطبيعة المشتركة فتشاهد بالمنطق ، لأن الأفراد ليسوا
 بعضهم في بعض ، ولكل فرد - في ما يختص به - نفور من غيره ، أي يتعد بذاته في
 الكثير مما يميزه من غيره . فهم أيضاً ينفصلون في المكان ويختلفون في الزمان وينقسمون في
 الرأي والقوة والشكل أي الهيئة والبنية والطبع والحجم والسيرة وسائر الميزات الخاصة ،
 - وأكثر الكل - في أنهم ليسوا بعضهم في بعض ، بل إن كيانهم منفصل انفصلاً تاماً .
 ومن ثم يُقال رجلان وثلاثة رجال ورجال كثيرون .

لذلك نقول بطبيعة الهية واحدة وبأقسام ثلاث لا ينقسم وبرجوع الابن والروح إلى
 مبدأ واحد : - هذا هو الذي نراه في الخليقة كلها . أما الثالوث القدوس الفائق الجوهر
 الذي يعم جلأه الكل وغير المدرك فهو بعكس ذلك . فإن ما يرى هنالك بالفعل إنما هو
الشركة والوحدة بسبب التساوي في الأزلية ووحدة الجوهر والفعل والمشيئة واتفاق الرأي
والسلطة والقوة ووحدة هوية الصلاح . وإني لست أقول بتشابه ، بل بوحدة هوية ، ووحدة
 انطلاق الحركة . فالجوهر واحد والصلاح واحد والقوة واحدة والمشيئة واحدة والفعل واحد
 والسلطة واحدة ، بل هي واحدة وهي نفسها ، لا ثلاثة أمثال بعضهم في بعض ، بل
 حركة واحدة وهي في الأقسام الثلاثة . فكل منهم ، بالنسبة لغيره ، ليس أقل مما له
 بالنسبة لنفسه ، أي أن الآب والابن والروح القدس واحد في كل شيء ، ما عدا اللاولادة
 والولادة والانبثاق . وهذا التمييز يكون بفعل التفكير ، فنعرف الله واحداً ، ونعرف في وحدة
 خواصه الأبوة والبنوة والانبثاق . ونفهم الفرق على حسب العلة والمعلول وكما كل أقنوم ،
 أي طريقة وجوده . فلنستطيع القول بانفصال مكافي - كما هو عندنا - في اللاهوت
 غير المحدود ، لأن الأقسام هم بعضهم في بعض ، لا على طريقة الاختلاط ، بل التواجد ،
 على نحو قول الرب القائل : « أنا في الآب ... والآب في »^(٢٣) . ولنا نقول باختلاف في

الإرادة أو الرأي أو الفعل أو القوة أو أي شيء آخر ، الأمر الذي يُحدث الانقسام الفعلي الذي فينا في كل شيء . لذلك لا نقول بألّة ثلاثة ، أب وابن وروح قدس ، بل بالأحرى بإله واحد ، الثالوث القدّوس ، مرجع الابن والروح فيه إلى علّة واحدة بدون تركيب ولا اختلاط - ذلك ضد هرطقة صابيلوس - ، فإنهم متّحدون ، كما قلنا ، لا للاختلاط بل للتواجد بعضهم في بعض ونفوذ أحدهم في الآخرين بدون امتزاج ولا تشويش ، ولا انفصال ولا انقسام - ذلك ضد هرطقة أريوس - . وإذا وجب الاختصار نقول : إنّ اللاهوت لا يمكن أن يُقسم إلى أقسام ، وهو على نحو ما يصير في ثلاثة شمس متواجدة بعضها في بعض وهي لا تنفصل ، فيكون مزيج النور واحداً والإضاءة واحدة . إذا عندما ننظر إلى اللاهوت ، على أنه العلّة الأولى ، والرئاسة الواحدة ، والواحد ، وحركة اللاهوت ومشيئته الواحدة - إذا صحّ القول - ، وقوة الجوهر وفعله وسيادته ذاتها ، فالذي يتصوّر في ذهننا هو الواحد . أمّا عندما ننظر إلى مَنْ فيهم اللاهوت أو - بعبارة أدقّ - إلى مَنْ هم اللاهوت ، لا سيما إلى الصادريّين من العلّة الأولى بلا زمن والمساويين لها في المجد وعدم الانفصال - وأعني الابن والروح - فالمسجود لهم ثلاثة : الآب أبّ واحد وهو لا مبدأ له - أي لا علّة له - لأنه ليس من أحد . والابن ابنٌ واحد وهو ليس بلا مبدأ - أي بلا علّة - وهو من الآب . وإذا اعتبرت البدء انطلاقاً من الزمن ، فالابن لا بدء له ، لأنه صانع الأزمان وهو ليس تحت الزمن . والروح القدس روح واحد صادر من الآب وذلك ليس بالولادة بل بالانبثاق ، لأنّ الآب لم ينفك أن يكون غير مولود - فإنه قد وُلد الابن - والابن لم ينفك أن يكون مولوداً - لأنه وُلد من غير المولود - ، فكيف إذا؟ والروح القدس لا يستحيل إلى الآب أو إلى الابن ، لأنه منبثق ولأنه إله . فإن خاصّته لا تتحرّك ، وإلّا كيف تبقى خاصّة إذا تحركت واستحالت؟ فإذا صار الآب ابناً ، فلا يكون أباً بالحقيقة - لأنّ الآب واحد حقاً - . وإذا صار الابن أباً ، فلا يكون ابناً بالحقيقة ، لأنّ الابن واحد حقاً . والروح القدس واحد .

واعلم أننا لا نقول بأنّ الآب من أحد ، بل نقول انه أبو ابنه ، ولا نقول إنّ الابن علّة أو أب ، بل نقول إنه من الآب وإنه ابن الآب . ونقول أيضاً إنّ الروح القدس من الآب ونُسَمِّيه روح الآب . ولا نقول إنّ الروح القدس من الابن ، ونسمّيه روح الابن . يقول

الرسول الإلهي : « إن كان أحد ليس فيه روح المسيح فهو ليس منه »^(٢٤). ونعترف أن الابن يُظهره ويمنحه لنا ، فقد قال : « نفخ في تلاميذه وقال لهم : خذوا الروح القدس »^(٢٥) . فكما أن الشعاع والإشراق من الشمس - وهي ينبوع الشعاع والإشراق - كذلك يمنح لنا إشراقه بواسطة الشعاع ، فينيرنا به ويكون متعتنا . ولسنا نقول بأن الابن ابن الروح ولا إنه من الروح .

المقولات في الله

إِنَّ الإله بسيط ولا تركيب فيه. والمركب هو المؤلف من أشياء مختلفة. وعليه إذا قلنا في الله إنه غير مخلوق ولا بدء له ولا جسمي وغير ماث وأبدى وصالح وخالق وما شاكل ذلك، فإننا نجعل فيه اختلافات جوهرية - لأن المؤلف من هذه كلها لا يكون لها بسيطاً، بل مركباً - وهذا أقصى الكفر. - وعليه يجب أن نعتبر كلاً من المقولات في الله لا يشير إلى ما هو من جوهره تعالى، ولا يدل على شيء من ذلك، بل هو حالة تتعلق بما يتميز عنه، أو هو شيء من توابع طبيعته أو هو فعله.

«الكائن» هو اسم الله الأكثر اختصاصاً: - يتضح إذاً أن أبلغ الأسماء المقولة في الله إنما هو «الكائن»، كما أوحاه الله نفسه لموسى على الجبل قائلاً: «قل لبني اسرائيل: الكائن أرسلني» (٢٦)، فإنه بذلك يجمع في ذاته الوجود كله، على مثال بحر من الجوهر لا يعرف له عمق ولا حد. أما على نحو ما يقول القديس ديونيسيوس، فهو «الصالح» لأنه لا يقال في الله إنه موجود أولاً، ثم إنه صالح.

والاسم الثاني هو الله: **ὁ θεός**، المشتق من كلمة **θεέiv**، ركض وامتد وأحاط بالكل، أو من كلمة **αἰθεiv**، أحرق، لأن الله نار تحرق كل الشرور، أو من كلمة **θεᾶσθαι**، شاهد الكل، لأنه لا يغفل عن شيء ويُلقي نظره على الكل، فيشاهد كل شيء قبل وجوده، مفكراً بتجريد عن الزمن في كل فرد أيضاً، بحسب فكره المريد خارجاً عن الزمن، الذي هو تحديد سابق وصورة ومثال يتحقق في الوقت الذي سبق تحديده.

وعليه إن الاسم الأول **«الكائن»** تعبير عن الوجود وعن ماهية الوجود. أما الثاني «الله» فهو تعبير عن الفعل. والأسماء: لا بدء له ولا يبلى وغير مصنوع أو غير مخلوق ولا جسم له ولا يرى وما شاكلها تدل على ما ليس هو أي أنه لم يبدأ وجوده ولا يفنى ولم يُخلق وليس له جسد ولا يرى. وتدل الأسماء صالحٌ وصديقٌ وبار وما مائلها على ملحقات الطبيعة، لا على الجوهر نفسه. وتدل الأسماء ربٌ وملكٌ وما مائلها على حالة من يتميزون عنه. فهو سيد من يسود عليهم وملك من يملك عليهم وخالق من خلقهم وراعي من يرعاهم.

في الاتحاد والتمييز الإلهيين

وعليه يجب أن نرتضي هذه التعابير كلها شاملة اللاهوت ككل، هي هي، بسيطة، كاملة، إتحادية. أما التمييز فيكون في الآب والابن والروح، وفي غير المعلول والمعلول، وفي غير المولود والمولود والمنبثق، فإن هذه لا تدل على الجوهر، بل على نسبة أحدهم إلى الآخر، وعلى كيفية وجودهم.

إذاً، إذا عرفنا هذه الصفات وتوصلنا بها إلى الجوهر الإلهي، فلا نكون قد أدركنا الجوهر نفسه، بل ما هو حول الجوهر، كما أننا لو عرفنا أن النفس لا جسد لها ولا كمية ولا شكل، فلا نكون قد عرفنا جوهرها، كما لا نكون قد عرفنا جوهر الجسد من معرفتنا أنه أبيض أو أسود، بل ما هو حول الجوهر. والكلام الصادق يعلمنا أن الإله بسيط وأن له فعلاً بسيطاً واحداً وهو صالح وفاعل الكل في الكل، على مثال شعاع الشمس الذي يرسل حرارته إلى الكل، ويفعل في كل الأشياء على حسب منفعتها الطبيعية ومقدرتها على القبول، لأن الله الخالق قد منحه هذه القوة الفاعلة.

يُسْتَنى من ذلك كل ما يتعلق بتجسد الكلمة الإلهي حباً بالبشر، لأن الآب والروح لم يشتركا فيه بشيء سوى بالرضى، وبالأعجوبة الفائقة الوصف التي عملها الله الكلمة إذ صار إنساناً مثلنا، وهو الإله الذي لا يتغير وابن الله.

في الصفات الجسمانية الموقولة في الله

ولمّا كنّا نرى ، في الكتاب الإلهي ، الكثير من المقولات ترمز إلى الله بصورة جسميّة أكثر منها روحية ، فيجب أن نعلم ، نحن البشر لابسّي هذا الجسد الكثيف ، أنه لا يمكننا أن نفهم أفعال اللاهوت الإلهيّة ، السامية ، اللاماديّة ، ولا أن نعبّر عنها إلا إذا استعملنا الصور والأمثال والرموز المختصّة بنا . وعليه كلّ ما يُقال في الله بصورة جسميّة إنما يُقال بصورة رمزيّة ، ومعناه أسمى من ذلك ، لأنّ الإله بسيطٌ ولا شكل له . إذا يُراد بعبديّ الله وجفنيّه ونظرة قوّته المشرقة على الكلّ ومعرفة التي لا خفيّ أمامها ، ذلك لما يحصل لنا من أكمل المعرفة واليقين بواسطة هذه الحاسة . ويُراد بأذنيه وسمعه تعطفه واستجابة سؤلنا ، لأننا نحن أيضاً - بواسطة هذه الحاسة نفسها - نؤخذ بالعاطفة فنصبح أكثر استعداداً لتقبل بأذننا نحو من يتوسّلون إلينا . ويُراد بفمه وكلامه إعلان مشيئته ، لأننا نحن أيضاً ندليّ بالفم والكلام عن مكنونات صدورنا . ويُراد بالأكل والشرب إسراعنا إلى تكميم مشيئته ، لأننا بواسطة حاسة الذوق نلبّي شهوة الطبيعة الضروريّة . ويُراد بشمّه إعلان فكرنا إليه . وعلى مثال حاسة الشمّ نفسها عندنا يحصل قبول رائحة فكرنا العطرة لديه . ويُراد بوجهه إعلانه تعالى وظهوره بأفعاله ، كما يتمّ ظهورنا من وجهنا . ويُراد بيديه فاعليّته في عمله ، لأننا نحن أيضاً ننجز بأيدينا أنفسنا أفيد أعمالنا وأكثرها كرامة . ويُراد بيمينه إغاثتنا في الصالحات ، لأننا نحن أيضاً نستعين بيميننا ، خاصة في الأعمال الأكثر شرفاً وكرامة والمتطلّبة قوة أعظم من غيرها . ويُراد بلمسه فحوصه أدقّ صغائر الأمور وما خفيّ منها وطلب الحساب عنها ، لأنّ الأشياء التي نلمسها نحن لا يمكننا أن نخفيّ علينا . ويُراد برجليه ومشيه ، مساعدة المحتاجين أو ردّ الأعداء أو أيّ عمل آخر يقتضي مجيئاً وحضوراً ، لأننا نحن أيضاً ننقل بواسطة رجلينا للمجيّ . ويُراد بالحلف ثبات عزمه ، لأننا نحن أيضاً نثبت بالحلف عهداً بعضنا مع بعض . ويُراد بغضبه وغيظه ، بغضه الشرّ ونفوره منه ، لأننا نحن أيضاً نبغض ما يضادّ رأينا فنغضب . ويُراد بنسيانته ونومه ونعاسه ، تأجيله الانتقام من الأعداء وابطاؤه في منح الإغاثة الاعتباريّة لأخصائيه . وباختصار الكلام ، إنّ كلّ ما يُقال في الله بطريقة جسميّة يتضمّن فكرة خفية تُرشدنا ممّا فينا إلى ما يفوقنا . عدا ما يُقال عن مجيّه الله الكلمة بالجسد ، فإنه هو نفسه قد اتخذ - لأجل خلاصنا - الإنسان كلّّه ، نفسه العاقلة وجسده وخصائص طبيعته الشريّة ، الآلام الطبيعيّة البريئة من اللوم .

اتخذ
الله
إنساناً
طاهر

في الموضوع نفسه

وعليه لقد تعلّمنا من الأقوال المقدّسة - كما يقول ديونيسيوس الأريوباخي الإلهي - أن الله علّة الكلّ ومبدأهم. فهو جوهر الكائنات وحياة الأحياء ونطق الناطقين وعقل الكائنات العاقلة. وهو أيضاً استدعاء الساقطين عنه وإنهاضهم وتجديدهم ما أفسدوه في طبيعتهم وتحويله. وهو أقدم توطيد للمتحرّكين باضطراب ذميم، وثبات الصامدين، وطريق المقيدين إليه ودليلهم الأمين. وأضيف أنه أيضاً أب للذين صنعهم، لأن الله أحقُّ بأن يكون أبانا - وقد أخرجنا من العدم إلى الوجود - من والدينا الذين نالوا منه الوجود والمقدرة على الولادة. وهو راعي تابعيه الذين يرعاهم، وضياء المستنيرين ومبدأ كمال الكاملين ومبدأ تأليه المؤلّمين وسلام المتباعدين وبساطة البسطاء واتحاد المتحدّين. وهو يحلّ بجوهره على كلّ مبدأ، لأنه مبدأ كل مبدأ وعطاء صالح لكل أحد، على قدر ما هو حقّ وممكن من خفايا معرفته.

في مكان الله وفي أن الله وحده غير محدود

المكان الجسماني : - المكان جسماني وهو نهاية الفضاء الواسع حيث يوسع الموسوع . مثلاً إن الهواء يتسع للجسم والجسم يوسع فيه . وليس كل الهواء الواسع مكان الجسم الموسوع بل هي حدود الهواء الواسع التي تمس الموسوع . وذلك حتماً ، لأن الواسع ليس في الموسوع .

المكان العقلائي . - ليس الله في مكان . - مكان الله يفوق الطبيعة : - وهناك مكان عقلائي فيه تُعقل الطبيعة العقلية اللاجسمية ، وفيه توجد وتعمل . لكنها لا تُوسع اتساعاً جسمياً ، بل عقلياً . فليس لها جسم لكي توسع اتساعاً جسمياً . فإن الله إذاً - الذي هو لامادي وغير محدود - هو أيضاً ليس في مكان ، بل هو مكان لذاته ، وهو يملأ الكل وهو فوق الكل وهو نافذ في الكل . ويُقال بأنه تعالى في مكان ، ويقال مكان الله حيث يكون فعله فيه واضحاً . وهو ينفذ بذاته في الكل دون اختلاط ويُشرك الجميع بفعله نفسه ، كلاً على حسب طاقته واستيعاب قوته - أي على حسب طهارته الطبيعية والطوعية . فإن ما كان منها خالياً من المادة أظهر من الماديات ، وما كان منها ثاراً فيه الفضيلة أظهر من التي هي تحت نير الشر . إذاً إن ما يدعي مكان الله هو ذلك الذي له نصيب أوفر في فعله تعالى ونعمته . لذلك « فالسما عرش له » (٢٧) - لأن فيها الملائكة يتممون مشيئته ويمجدونه على الدوام . - و« الأرض موطن قدميه » (٢٨) - لأنه « تراءى عليها بالجسد وتردد بين البشر » - (٢٩) . وتطلق تسمية « رجل الله » على جسده المقدس . ويُقال للكنيسة أيضاً مكان الله لأنها مخصصة لتجديده ، كأنها قطاع فرزانه لتقيم فيه ابتهالنا إليه . كذلك أيضاً الأمكنة التي يتم فيها فعل الله ظاهراً - بجسد أو بلا جسد - تسمى أمكنة الله . ويجب أن نعلم أن الإله لا يتجزأ ، لأنه كله كائن في كل مكان ، وليس موزعاً كالاجساد جزءاً في جزء ، بل كله في جميعها وكله فوق جميعها .

في مكان الملائكة والنفس . وفي ما لا يمكن حصره وما يمكن حصره : - الملاك لا يُحصر في مكان حصرًا جسمانيًا لكي يمكن تمثيله بصورة أو بشكل . ومع ذلك يُقال إنه في

مكان، لحضوره حضوراً عقلياً وفعله بحسب طبيعته. وهو لا يوجد إلا حيث يُحصر حصراً عقلياً، ومن ثم يفعل أيضاً. وأنه لا يستطيع أن يفعل في آن واحد في أمكنة مختلفة، لأن الله وحده يعمل في كل مكان في آن واحد، إلا أن الملاك - لسرعة طبيعته - ينتقل انتقلاً فجائياً أي سريعاً، فيعمل في أمكنة مختلفة. لكن الإله الكائن في كل مكان وفوق الجميع، يفعل في الوقت نفسه أفعالاً مختلفة بفعل واحد بسيط.

أما النفس فترتبط كلها بالجسد كله - لا جزء في جزء - ولا يستولي عليها الجسد، بل هي تستولي عليه، مثلها مثل النار والحديد. لِمَا تكون فيه تفعل أفعالها الخاصة. - المحدود ما كان محصوراً في مكان أو زمان أو إدراك. أما غير المحدود فهو ما لا يخضع لهذه الأقسام الثلاثة.

وعليه إن الإله وحده غير محدود، لأنه لا بدء له ولا نهاية، وهو يُحيط بالجميع، ولا يمكن أي إدراك الإحاطة به. فهو وحده لا يدرك ولا يرى ولا أحد يعرفه، وهو وحده قادرٌ على مشاهدة ذاته. أما الملاك فهو محدود في الزمان، لأنه ابتداءً أن يكون، وفي المكان، ولو عقلياً، كما سبق وقلنا، وفي الإدراك أيضاً. لأن الملائكة يعرف بعضهم طبيعة بعض كيف هي، على حسب ما حدّد الخالق كمال هذه المعرفة. والأجسام أيضاً محدودة في بدنها ونهايتها ومكانها الجسمي وإدراكها.

في الله الآب، وفي الابن، وفي الروح القدس. - وفي الكلمة والروح: - إن الإله إذاً لا يتحوّل البتة ولا يتغيّر. وقد سبق وحدّد بسابق معرفته كل ما هو ليس في مقدورنا، كلا على حسب ما يخصّه ويليق به من زمان ومكان. وبمقتضى ذلك، «إن الله لا يدين أحداً، بل أعطى الحكم كله للابن» (٣٠). ومن الواضح أن الآب قد دان، والابن كذلك لكونه إلهاً، والروح القدس أيضاً. غير أن الابن نفسه قد أتى بالجسد كإنسان، ويجلس على عرش المجد - والهيبة والعرش من شأن الجسد المحدود - فيدين المسكونة كلها بالعدل.

- كل الكائنات بعيدة عن الله، لا بالمكان بل بالطبيعة. والتمييز والحكمة والرأي - من حيث هي حالات فينا - تخضر وتغيّب. لكنّها غير هذا عند الله، فلهذه تعالى ليس ما يحضر ويغيّب. وهو لا يتحوّل ولا يتغيّر، ومن الممتنع الكلام عن عارض في الله. والصالح

حليفُ جوهره ، فمن يتغيه دائماً ، ذاك هو الذي يحده . لأن الله في الجميع ، والكائنات منوطة بالكائن ، وليس من وجودٍ إلا وقد نال وجوده في الكائن ، لأن الله يستمر في الكل ، من حيث هو حافظ الطبيعة . أما الكلمة فقد اتخذ بجسده المقدس في أقنومه وخاطب جبلتنا دون امتزاج . لا يرى الآب أحدٌ سوى الابن والروح (٣١) .

- الابن مشيئة الآب وحكمته وقوته . وينبغي ألا نقول بصفة في الله لئلا نجعل فيه تركيباً من جوهر وصفة .

- الابن من الآب . وكل ما لذاك هو لهذا . لذلك لا يستطيع الابن أن يعمل من ذاته شيئاً (٣٢) ، لأن ليس له فعل خاص به يتميز عن فعل الآب .

- نعرف من نظام الكون وسياسته أن الله الذي لا يرى بطبيعته يرى بأعماله (٣٣) .

- الابن صورة الآب ، وصورة الابن الروح الذي به يسكن المسيح في الإنسان فيمنحه أن يكون على صورة الله .

- إن الروح القدس الله ، وهو وسطُ البلامولود والمولود ومرتبطة إلى الآب بالابن . ويدعى روح الله وروح المسيح وعقل المسيح وروح الرب والرب نفسه وروح البتوة الإلهية وروح الحق والحرية والحكمة . - وهو يصنع هذه كلها أيضاً - . وهو يملأ الكل بجوهره ويستحوذ على الكل . يمدُّ العالم بالجوهر ولا يتسع العالم لقوته .

- الله جوهر أزلي لا يتغير ، صانع الكائنات ، ويسجد له بدافع من منطق التقوى .

- الآب الله وهو كائنٌ دوماً بلا ولادة ، لأنه لم يلد أحدٌ وهو والد الابن ولادةً أزلية . والابن الله وهو كائنٌ دوماً مع الآب مولوداً منه بلا زمن ومنذ الأزل ، بلا سيلان ولا انفعال ولا انفصال . والروح القدس الله وهو قوة تقديسٍ وقيومٌ ومنبتٌ من الآب بلا انفصال ومستريحٌ في الابن ، ومساوٍ للآب والابن في الجوهر .

- الكلمة حاضرٌ دوماً للآب حضوراً جوهرياً . والكلمة أيضاً حركة العقل الطبيعية التي بموجبها يتحرك ويعقل ويفكر . وهي له بمثابة النور والشعاع . وتكون الكلمة أيضاً داخليةً متكلمةً في القلب . وتكون أيضاً الفكرة المرسلة . وعليه إن الله الكلمة ذو جوهر وأقنوم ، أما الكلمات الثلاث الأخرى فهي قوى النفس . ومن ثم لا تُعتبر أنها في أقنوم خاص بها ، لأن

(٣١) راجع يوحنا ٤: ٦ - (٣٢) راجع يوحنا ٥: ٣٠ - (٣٣) راجع الحكمة ١٣: ١ - ٥

الأولى منها وليدة العقل الطبيعيّة، نابعة منه نبعا طبيعياً. والثانية يُقال لها الداخليّة، والثالثة هي الخارجيّة.

إنّ للروح معاني مختلفة، فهو الروح القدس - ويقال أيضاً لقوى الروح القدس أرواحاً. والروح أيضاً هو الملاك الصالح، والشيطان أيضاً روح، والنفس روح، وقد يدعى العقل أيضاً روحاً. والريح روح أيضاً والهواء روح.

ميزات الطبيعة الإلهية

هي غير مخلوقة ، لا مبدأ لها ، لا تموت ، لا تُحصى ، أبدية ، لامادية ، صالحة ، خالقة ، عادلة ، مُنيرة ، لا تتحول ، لا تنفعل ، لا يُحاط بها ، لا تُوسع ، لا تُحدّ ، غير محدودة ، لا تُرى ، لا يستوعبها الفكر ، لا ينقصها شيء ، لها قوتها وسلطانها من ذاتها ، قديرة ، محيية ، كاملة القوة ولا حدّ لقوتها ، تُقدّس وتمنح ذاتها ، تحيط بالكلّ وتضمّ الكلّ وتعتني بالكلّ ، وكلّ هذه الميزات وما شاكلها هي لها من طبيعتها وليست مستجلبّة من غيرها ، بل هي نفسها تمنح مبرواتها كل صلاح على قدر استيعاب كلّ منها .

بقاء الأقانيم أحدهم في الآخر ودوامهم - إنهم لا يفترون ولا ينفصلون أحدهم عن الآخر ، لأنّ لهم في ما بينهم نفوذاً مطبقاً بلا سيلان ، ليس إلى حدّ الاختلاط والامتزاج ، بل حتى يكون أحدهم في الآخر ، فالابن هو في الآب والروح ، والروح في الآب والابن ، والآب في الابن والروح ، دون أيّ إدغام أو انعجان أو اختلاط . وميزة حركتهم أنها واحدة وهي هي نفسها ، فإن انطلاقة الأقانيم الثلاثة وحركتهم واحدة ، مما لا تمكن رؤيته في الطبيعة المخلوقة .

ولما كان الوحي الإلهي وفعله واحداً وبسيطاً ولا يتجزأ ويتنوع في التوزيعات بأشكال الخيرات الممنوحة للجميع بما تقتضيه طبيعتهم الخاصة ، فهو يبقى بسيطاً ومتكاثراً بلا تجزؤ في المتجزئات وجامعاً المتجزئات ومحولاً إياها إلى بساطته نفسها . لأن الكل ينتبهي وينال فيه الكيان . وهو يُعطي الوجودَ الجميع كمقتضى طبيعتهم ، وهو وجود الكائنات وحياء الأحياء ونطق الناطقين وتفكير المفكرين ، لأنه فوق العقل وفوق النطق وفوق الحياة وفوق الجوهر .

وهو أيضاً ينفذ في الكلّ بلا اختلاط ولا ينفذ شيء فيه . وهو بمعرفته البسيطة يعرف الكلّ . وبعينه الإلهية الكلية النظر ، اللامادية ، يرى الكل رؤية بسيطة ، الحاضرات والماضيات والمستقبلات ، قبل حدوثها^(٣٤) . وهو لا يخطأ بل يغفر الخطايا ويخلص . وهو يقدر على كل ما يشاء ، ولكنه لا يشاء كلّ ما يقدر عليه ، لأنه يقدر أن يُزيل العالم ، ولكنه لا يشاء ذلك .

الكتاب الثاني :

المخلوقات



رئيس الملائكة ميخائيل
(إيقونة روسية من القرن ١٦)

في الدهر

إنَّ الذي صنع الدهور هو الذي كان قبل الدهور . ويقول فيه داود الإلهي : « من الأزل إلى الأبد أنت الله »^(١) . ويقول الرسول الإلهي : « وبه أنشأ الدهور »^(٢) .

وعليه يجب أن نعلم أنَّ كلمة « دهر » كثيرة المعاني ، وهي تشير إلى مسميات كثيرة ، فإن حياة كلِّ من البشر تدعى دهرًا ، وفترة ألف سنة تُدعى أيضًا دهرًا . والدهر هو العمر الحاضر كله ، والدهر هو ذاك الذي سيأتي بعد القيامة ولا يكون له انتهاء . ويُسمَّى أيضًا دهرًا ، لا الزمان ، ولا قسم من الزمان - يُقاس بانتقال الشمس وجريها أي بقيام الأيام والليالي - بل ما يمتد في الآزال ، وهو شبيه بحركة ومسافة زمنية . فما كان تحت حكم الزمن هو زمان ، وإذا كان الحاضر للآزال هو دهر .

دهور الحياة الحاضرة السبعة والثامن هو الدهر الآتي : - يقولون إذا إنَّ لهذا العالم سبعة دهور هي من ابتداء خلق السماء والأرض حتى انقراض البشر العام في القيامة . لأن موت كلِّ حيٍّ بمفرده إنما هو نهاية جزئية . أمَّا النهاية الكاملة فتكون عندما تصير قيامة البشر العامة . أمَّا الآتي فهو الدهر الثامن .

وقبل قيام الكون ، عندما لم تكن شمسٌ تفصل بين نهار وليل ، لم يكن دهرٌ يقاس ، بل كان تعاقبٌ مستمرٌّ في الآزال ، شبيه بحركة ومدى زمنيَّين . وبناء على هذا فهو دهرٌ واحد ومن ثمَّ يُقال بأنَّ الله دهرٌ ، بل هو قبل الدهر ، لأنه صنع الدهر نفسه . ولما كان الله وحده لا بدء له ، فهو هو نفسه صانع الدهور كلها والكائنات بأسرها . ويقول الله ، أعني إلهنا الواحد الآب وابنه الوحيد الجنس ربنا يسوع المسيح وروحهُ القدوس .

دهور الدهور . - الحكم على تجديد أوريجينيس : - ويقولون أيضًا بدهور الدهور ، على أنَّ للعالم الحاضر سبعة دهور ، تستوعب دهورًا كثيرة هي أجيال البشر ، والدهر الواحد هو الذي يمتد إلى جميع الدهور ويُقال له دهر الدهور ، الحاضر والآتي . أمَّا الحياة الدهرية والعقاب الدهري فيدلان على ما لا ينتهي من الدهر الآتي . لأنه بعد القيامة لا يُعدُّ الزمان

(٢) عبرا ١: ٢

(١) مزمو ٨٩: ٢

الكتاب الثاني

بالأيام والليالي ، بل بالأحرى يكون نهارٌ واحدٌ لا مساء له ، تضيء فيه شمس العدل بهايمها
 للصدّيقين ، ويكون للخطاة ليلٌ عميقٌ لا نهاية له . وعليه كيف سيُعدُّ زمن السنوات الألف
 لإعادة التجديد الأوريجيني ؟ إذا إن الله صانع الدهور كلّها واحدٌ وهو خالق الكل لأنه
 كائنٌ قبل الدهور .

في الخليفة

وعليه إذ كان الله صالحاً وفائق الصلاح ، لم يكتف بمشاهدته ذاته ، بل ارتضى بدافع فائق من صلاحه أن يكون من يحسن إليهم ويشركهم بصلاحه ، فأخرج الكل من العدم إلى الوجود وخلق ما يرى وما لا يرى ، جاعلاً الإنسان مركباً من منظور وغير منظور . إنه تعالى قد خلق بفكره ، وفكره أضحي عملاً بمؤازرة كلمته ، وكمل بالروح .

في الملائكة

خلق الملائكة وطبيعتهم : - هو الله نفسه صانع الملائكة وبارئهم ومخرجهم من العدم إلى الوجود. وقد خلقهم على صورته الخاصة ، طبيعةً لاجسميةً ، على مثال ربح ما وناز لاماديةً ، كما يقول داود الإلهي : «الصانع ملائكته رياحاً وخدامه لبيب نار» (٣) . وقد صمَّم الله فيهم الخفةَ والتوقُّدَ والحرارةَ وسرعةَ النفوذ والحلَّةَ في تلبية أوامره وخدمته والتساميَ بذواتهم ونفوسهم من كلِّ فكر مادي.

الملاك لا جسم له : - ومن ثمَّ إنَّ الملاك جوهرٌ عقلائي ، دائم الحركة ، مطلق الحرية ، لا جسم له ، يخدم الله ويتمتع في طبيعته بنعمة الخلود. أمَّا نوع جوهره وتحديدده فلا يعرفها إلا الخالق وحده. ويُقال فيه بأنه لاجسمي ولا مادي ، ذلك بالنسبة إلينا ، لأنَّ كلَّ شيء بالمقابلة مع الله - الذي هو وحده ليس من بضائيه - يبدو كثيفاً ومادياً. وبالحقيقة إنَّ اللاهوت وحده متَّزَّعٌ عن المادة والجسم.

يتمتع الملاك بحرية الرأي : - وعليه إنَّ طبيعة الملاك ناطقة وعاقلة وحرَّة ، متقلِّبة الرأي ، أي متحوِّلة الإرادة ، فإنَّ كلَّ مخلوق متحوِّل ، وغير المخلوق وحده لا يتحوِّل . وكلُّ ناطق حرٌّ . فإذا ، بما أنَّ طبيعته ناطقة وعاقلة فهي حرَّة ، وبما أنَّها مخلوقة فهي متحوِّلة ، لها المقدرة على البقاء والتقدُّم في الصلاح وعلى التحوُّل إلى الشرِّ .

الملاك غير قابل للتوبة : - إنه غير قابل للتوبة ، لأنَّ لا جسد له ، أمَّا الإنسان فلسبب ضعف جسده يحظى بالتوبة .

والملاك خالد ، ليس بالطبيعة ، بل بالنعمة : - وهو خالدٌ ، لا بالطبيعة بل بالنعمة . لأنَّ كلَّ من ابتدأ ، فيموجب طبيعته ينتهي أيضاً . أمَّا الله وحده وقد كان دائماً فهو بالأحرى فوق الديمومة ، لأنَّ خالقي الأزمان ليس هو تحت الزمن بل فوق الزمن .

الملائكة نيران ثابته : - إنَّها النِّيران العقلية الثابتة تستمدُّ إنارتها من النور الأول الذي لا بدء له . وهي ليست بحاجة إلى لسان وسمِّع ، لكنها تتبادل الأفكار والآراء بدون نطق خارجي .

وعليه إِنَّ الملائكة قد خُلِقُوا جميعاً بالكلمة وتكلموا بالروح القدس فحصلوا على الإنارة والنعمة طبقاً لكرامتهم ورتبتهم.

الملائكة محدودون : - إنهم محدودون، فهم عندما يكونون في السماء لا يكونون على الأرض وإذا أرسلهم الله إلى الأرض لا يبقون في السماء. لكن الأسوار والأبواب والأقفال والأختام لا تُحول دون وجودهم ، لأنهم لا يُحصرون. وأقول لا يُحصرون لأنهم لا يظهرون كما هم للمستحقين الذين يريد الله أن يظهروا لهم ، بل يتخذون صورةً يستطيع معها الناظرون إليهم أن يروهم . أما ذاك الغير المحدود طبعاً وحقيقةً فهو الأحد الذي لم يُخلق ، لأن كلَّ خليفة إنما يحددها الله الخالق نفسه.

إنهم ينالون التقديس من الروح القدس من خارج جوهرهم ، ويتبنأون بموازة النعمة الإلهية . ولا يتزوجون لأنهم لا يموتون .

مكان الملائكة : - ولأنهم عقول ، فهم في أمكنة عقلانية أيضاً ، غيرُ محصورين حصراً جسدياً . ومن اقتضاء طبيعتهم أن لا يكون لهم شكلٌ جسديٌّ ولا أن يمتدوا في الأجزاء الثلاث ، بل أن يحضروا حضوراً عقلياً ويعملوا حيثما يؤمرون دون أن يستطيعوا في آن واحد أن يكونوا ويعملوا هنا وهناك .

لا يتضح أنهم متساوون في الجوهر : - ولسنا نعلم هل هم متساوون في الجوهر أم هم مختلفون بعضهم عن بعض . إن الله وحده الذي صنعهم يعلم هذا ، لأنه يعرف كل شيء . وهم يختلف بعضهم عن بعض بالإنارة وبالمقام ، لحصولهم على المقام نظراً للإنارة ، أو على الإنارة نظراً للمقام . وهم ينيزون بعضهم بعضاً لسمو رتبتهن أو طبيعتهم ، لأنه واضح أن المتفوقين منهم يُشركون من هم دونهم بالضياء والمعرفة .

يتولى الملائكة الشؤون البشرية : - هم أقوياء ومستعدون لتلبية مشيئة الله . ولسرعة طبيعتهم يوجدون فوراً حيثما تدعوهم إشارة منه تعالى . وهم يحافظون على قطاعات الأرض ويعتنون بالشعوب والمواضع على حسب ما رتبهم لهم الخالق ويسوسون شؤوننا ويُغيثوننا . وهم يقيمون بكنيتهم في حضرة الله لأجلنا تلبيةً لمشية الله وأمره .

يصعب تحريكهم نحو الشر : - إنه لصعب تحريكهم نحو الشر ، وليسوا بغير متحركين إليه إطلاقاً . وهم لا يتحركون إليه الآن ، لا من طبيعتهم ، بل بالنعمة وببشائهم في الخير الوحيد .

طعام الملائكة : - هم يرون الله على قدر استطاعتهم . وبهذا يقوم طعامهم . إنهم

الكتاب الثاني

يتفوقون علينا بصفتهن خالين من الجسد ومن كل انفعال جسائي. ولكنهم ليسوا بدون انفعال البتة، لأن الإله وحده لا يتفعل.

ظهورات الملائكة: - وإنهم يغيرون شكلهم تلبية لما يأمرهم به الله سيدهم وعلى هذا النحو يتراءون للبشر ويكشفون لهم الأسرار الإلهية.

هم يعيشون في السماء وعملهم الواحد تسبيح الله وخدمة مشيئته الإلهية.

رتب الملائكة: - على نحو ما جاء في أقوال ديونيسيوس الأريوباجي المتفوق في القداسة والطهارة وعلم اللاهوت، إن علم اللاهوت - أو بالحري الكتاب المقدس - يذكر تسعة جواهر سماوية. ويحصرها صاحب الكهنوت الإلهي هذا في ثلاث ثلاثيات من الرتب، ويقول: إن الثلاثي الأول موجود دوماً حول الله مستسلماً للاتحاد به تعالى عن قرب وبدون وسيط وهم جماعة السرافيم المسدسي الأجنحة والكيروبيم الكثيري الأعين والعروش الفائتي القداسة، والثلاثي الثاني هم جماعة الأرباب والقوات والسلطات، والثلاثي الثالث هم الرئاسات ورؤساء الملائكة والملائكة.

متى خلق الله الملائكة: - إذاً يقول بعضهم إن الملائكة وُجدوا قبل الخليفة كلها، على نحو ما قال غريغوريوس اللاهوتي: «لقد فكر الله بالقوات الملائكية والسماوية، وكان تفكيره عملاً». ويقول آخرون إنه تعالى قد خلق الملائكة بعد أن كانت السماء الأولى. ويتفق الجميع على أن ذلك كان قبل جبل الإنسان. أما أنا فأقف إلى جانب اللاهوتي، لأنه كان يليق أن يُخلق الجوهر العقلائي أولاً، ثم الحسي، وأخيراً الإنسان نفسه، من كلا الجوهرين.

لم يكن الملائكة قط خالقين: - أما أولئك الذين يقولون بأن الملائكة صنعوا جوهرها ما، فإنما هم فم الشيطان أبيهم، لأن الملائكة خلائق وليسوا خالقين. وما صانع الكل والمعني به وحافظه إلا الله وحده الذي لم يخلقه أحد وهو المسجود له والممجّد في الآب والابن والروح القدس.

في إبليس والشياطين

✚ أصل الشياطين من رتبة دنيا من الملائكة. - الشر والظلام فقدان ما يُضادُّهما ، ذلك ضد ماني : - لقد كان الشيطان أحد تلك القوّات الملائكية ، وقد نصّب الله قائماً بحراسة نظام ما حول الأرض والأرض نفسها . لم يكن شريراً من طبيعته ، بل كان صالحاً ومخلوقاً على الصلاح ، ولم يضع الخالق في تكوينه أثراً للشرّ البتة . لكنّه لم يحمل الإنارة ولا الكرامة اللتين خصّه الخالق بهما ، فحاد بمطلق حرّيته عمّا هو من طبيعته إلى ما هو خارج عن طبيعته ، فانتصب تجاه الله صانعاً مريداً أن يقاومه ، فأصبح أول منتقل من الخير إلى الشرّ . والشرّ إنّ هو إلا فقدان الخير كما أنّ الظلام هو أيضاً فقدان النور . وعلى هذا النحو فالخير نورٌ عقلائيّ والشرّ ظلامٌ عقلائيّ . وعليه إنّ صانعاً قد خلقه نوراً وكونه صالحاً : « ورأى الله جميع ما صنعه فإذا هو حسنٌ جداً »^(٤) . وقد أصبح الشيطان ظلاماً بمطلق إرادته الحرّة ، وانجذب إليه وتبعه وسقط معه عددٌ لا يحصى من الملائكة الخاضعين له . وقد كانوا مع الملائكة ومن طبيعتهم نفسها ، فصاروا أشراً ، لأنهم حادوا عن الخير إلى الشرّ بمطلق حرّيتهم .

✚ لا يستطيع الشياطين شيئاً إلا بإذن الله : - وعليه ليس للشياطين سلطة ولا سطوة على أحد ، ما لم يسمَح الله بذلك سماحاً تديرياً ، كما جرى لأيوّب وكما جاء في الإنجيل عن الخنازير . وفي حال سماح الله ، فهم يتجبرون ويتقلّبون ويتحوّلون إلى أي شكل أرادوا من وحي مخيلتهم .

وبأي صفة يتنبأ الملائكة عن المستقبلات : - أمّا المستقبلات فلا يعلمها ملائكة الله ولا الشياطين . وهم مع ذلك يتنبأون . لكنّ الملائكة ، إذا كشفها الله لهم وأمرهم بقولها ، فيتمّ كل ما يقولونه . غير أنّ الشياطين يتكلّمون أحياناً عن أشياء صائرة بعيداً ، ويختلقون أحياناً الأشياء اختلاقاً . لذلك يكذبون في أمور يجب ألاّ تُصدّق ، ولو كانوا صادقين مراراً كثيرة على نحو ما قلناه . وهم يعرفون الكتب أيضاً .

✚ لا يستطيع الشياطين إكراه الإنسان : - إنّ الشرور والتأثرات الدنسة كلّها تصل إلى

الكتاب الثاني

عقولنا من قِبَل الشياطين. وقد سمح الله لهم بتجربة الإنسان، ولكنهم لا يقوون على إكراهه، لأن فينا من القوة أن نقبل التجربة وألا نقبلها. لذلك قد أعدت النار التي لا تطفأ والعقاب الأبدي لإبليس وشياطينه وللذين يتبعونه.

على نحو ما هو الموت للإنسان تكون السقطة للملاك: - ويجب أن نعلم أن السقطة للملائكة هي على ما هو الموت للبشر. لأن بعد سقطتهم ليس لهم توبة، وكذلك بعد الموت للبشر.

في الخليقة المنظورة

إن الله نفسه الممجّد في ثالوثه ووحدانيته « قد صنع السماء والأرض وكل ما فيها » (٥) ،
 لأنه أخرج من العدم إلى الوجود ما لم يكن من مادة سابقة الوجود كالسماء والأرض والهواء
 والنار والماء ، وما كان من تلك المواد التي كونها هو كالحيوان والنبات والبذور . فإن هذه قد
 تكونت بأمر الخالق من أرض وماء وهواء ونار .

في السماء

السماء ما يُحيط بالبرايا المنظورة وغير المنظورة. وفي إطارها تتوقف وتنحصر قوَّات الملائكة العقليَّين والمحسوسات بأسرها. أمَّا الإله فهو وحده غير محدود، لأنه مألَّى الكلِّ ومحيط بالكلِّ ومحدِّد الكلِّ، على أنه فوق الكلِّ وصانع الكلِّ.

آراء في طبيعة السماء :- وعليه لما كان الكتاب يذكر السماء وسماء السماء وسموات السماوات، وأن بولس المغيوط يقول «إنَّه أُخْتُطِف إلى السماء الثالثة» ^(٦)، فنقول نحن بأنه - في كلِّ بحث وصل إلينا عن تكوين السماء - يُؤتى على ذكر إبداع السماء، فيصفُّها الحكماء الذين هم من خارج الدين بكثرة خالية من النجوم، منتحلين بذلك آراء موسى: «وسمَّى الله الجَلَدَ سماءاً أيضاً» ^(٧)، وأمرها بأن تكون في وسط المياه بحيث تفصل بين المياه التي فوق الجَلَد والمياه التي تحت الجَلَد. وقال باسيليوس الإلهي، مقتبساً تعليمه من الكتاب الإلهي، إنَّ طبيعة السماء لطيفة كالدخان. وقال غيره بأنها مائيَّة لوجودها في وسط المياه. وقال آخرون بأنها من العناصر الأربعة. وقال آخرون أيضاً: بل هي جسم خامس ومختلف عن العناصر الأربعة.

السماء شكلها كروي :- وقد ارتأى بعضهم أنَّ السماء تحيط بالكلِّ بشكل دائرة وأنها كروية المظهر، وهي نفسها تُكوِّن القسم الأعلى من كلِّ جهة، وتكون النقطة الوسطى من المكان الذي تحيط به قسمه الأسفل. وإنَّ ما كان من الأجسام فارغاً وخفيفاً حظي من قبل الخالق على المركز الأعلى، وما كان منها ثقيلاً ومنشفاً إلى الأسفل نال المكان الأدنى، وهو الوسط. فيقولون إذاً إنَّ النار - وهي أخفَّ العناصر وأكثرها اندفاعاً إلى العلاء - ترتب حالاً بعد السماء وهي تُسمَّى الأثير. وبعدها الهواء في رتبة أدنى. أمَّا الأرض والماء - وهما الأكثر ثقلًا وانحداراً إلى أسفل - فهما معلقان في الوسط بحيث أنَّ الأرض والماء يكونان في الجهة السفلى تجاه الهواء والنار. غير أنَّ الماء، لكونه أخفَّ من الأرض، فهو أسهل حركةً منها ويعلوها في كلِّ مكان مثل الرداء وحوله الهواء من كلِّ جهة الأثير. أمَّا السماء فهي من خارج حول الجميع.

(٧) تكوين ١: ٨

(٦) ٢ كور ١٢: ٢

حركة السماء دورية :- ويقولون إن السماء تتحرك تحركاً دورياً. وبذلك تضغط على ما في داخلها فيبقى جامداً لا يتزعزع.

السيارات السبع وأفلاكها :- ويقولون إن أفلاك السماء سبعة وإن كل واحد منها أعلى من الآخر. ويضيفون أنها كالدخان لحقة طبيعتها وإن لكل فلك كوكبه. ويقولون بأن الكواكب السيارة السبعة هي : الشمس والقمر والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة وزحل. ويلاحظون أن الزهرة تكون مرة كوكب الصبح وأخرى كوكب المساء. وإنما تدعى هذه سيارات لأن حركتها معاكسة لحركة السماء. فبينما السماء وباقي النجوم تتحرك من المشرق إلى المغرب ، ترى هذه وحدها تقوم بحركتها من المغرب إلى المشرق. نعلم ذلك من سير القمر الذي يتراجع قليلاً كل مساء.

لذلك يقول جميع الذين ارتأوا أن السماء كروية بأنها متساوية البعد عن الأرض من فوق ومن الأطراف ومن أسفل. وأقول من أسفل ومن الأطراف ذلك بالنسبة إلى شعورنا ، لأن السماء - بحسب منطق الاستنتاج - ترتفع من كل الجهات إلى المكان الأعلى ، وإن الأرض تنخفض إلى المكان الأسفل. ويقولون إن السماء تحيط بالأرض على شكل كرة وتحمل معها في دورانها ، في حركة سريعة جداً ، الشمس والقمر والكواكب. ولما تكون الشمس فوق الأرض يكون هناك نهار ، ويكون تحت الأرض ليل. ولما تصير الشمس تحت الأرض ، يكون هنا ليل وهناك نهار.

يرى بعضهم أن يثبتوا أن السماء ليست كروية من كل جهاتها :- وتخيّل آخرون السماء بشكل نصف كرة ، مستندين إلى قول داود الناطق بالإلهيات : «أنت الباسط السماء كسجف»^(٨) أي كخيمة. وإلى قول المغيوط أشعيا : «يسط السواوات كسرادق»^(٩) ، فقالوا إن الشمس والقمر والكواكب ، عند غروبها ، تدور حول الأرض من المغرب إلى الشمال ثم تظهر من جديد في الشرق. ورغم ذلك ، إنه لسيان أن يكون سيرها على هذا أو ذاك النحو. والمهم أنها كلها قد وجدت بأمر الله وتركزت وحصلت على مشيئته تعالى وعزمه أساساً ثابتاً لها. «فإنه هو قال فكانت وهو أمر فخلقت. وأقامها إلى الدهر والأبد. جعل لها رسماً فلا تتعداه»^(١٠).

(١٠) مز ١٤٨ : ٥ - ٦

(٩) أشعيا ٤٠ : ٢٢

(٨) مز ١٠٣ : ٢

الكتاب الثاني

السموات ثلاث : - إن السماء الأولى إذاً هي سماء السماء ، لأنها فوق الجَلَد . ومن ثمَّ هما سماءان ، لأن الله يُسمِّي الجَلَد أيضاً سماء . وقد درجت العادة في الكتاب الإلهي أن يُسمَّى الهواء أيضاً سماءً ، لأننا نراه فوقنا . وقد قال : «باركي الرب يا جميع طيور السماء» ^(١١) ، وهو يتكلَّم هنا عن الهواء ، لأن الهواء ، لا السماء ، هو مسلكُ الطيور . وبذلك يتمَّ عدد السموات الثلاث التي يتكلَّم عنها الرسول الإلهي ^(١٢) . وإذا أردت أن تفهم الأفلاك السبعة على أنها سموات ، فلا حرج البتة على كلام الحق . وإن من عادة اللغة العبرية أن تدعو السماء سموات أيضاً ، بصيغة الجمع . فهي إذاً ، إذا أرادت أن تقول سماء السماء ، قالت سموات السموات ، وتعني بذلك سماء السماء التي فوق الجَلَد والمياه التي فوق السموات أيضاً ، أو فوق الهواء والجَلَد ، أو فوق أفلاك الجَلَد السبعة ، أو فوق الجَلَد ، على حسب عادة اللغة العبرية التي تستعمل السموات بصيغة الجمع .

السموات من طبيعتها قابلة الفساد : - وعليه كل ما كان ، في تكوينه ، مبنياً على الفساد هو كذلك بمقتضى طبيعته . والسموات أيضاً هي كذلك . لكنَّ نعمة الله تُمسِكُ بها وتصونها . أمَّا الإله فهو وحده بطبيعته لا بدء له ولا نهاية . لذلك قيل : «هي تزول وأنت تبقى» ^(١٣) . إلّا أنَّ السموات لا تزول زوالاً تاماً : «ورأيتُ سماءً جديدةً وأرضاً جديدةً ، لأنَّ السماء الأولى والأرض الأولى قد زالتا . والبحر لم يكن من بعد» ^(١٤) .

السماء ، بحجمها ، أكبر كثيراً من الأرض . أمَّا جوهرها ، فيجب ألا نبحث عنه ، لأننا لا نستطيع معرفته .

السموات ليست حيَّة : - ولا يظنُّ أحدٌ أنَّ السموات والكواكب حيَّة ، فإن لا حياة فيها ولا حس . وإذا كان الكتابُ الإلهي يقول : «لتفرح السموات وتبتهج الأرض» ^(١٥) . فذلك أنه يدعو إلى السرور الملائكة الذين في السماء والبشر الذين على الأرض . والكتاب يعرف أن يُشخص الجوامد ويُخاطبها مخاطبته للأحياء إذ يقول : «البحر رأى فهرب ، الأردن رجع إلى الوراء» ^(١٦) ، و «ما لك يا بحر تهرب؟ يا أردن ترجع إلى الوراء؟» ^(١٧) . فهنا تسأل الجبال والتلال عن سبب ارتكاضها ، كما اعتدنا نحن أيضاً أن نقول : «التأمت

(١٤) رؤيا ٢١ : ١

(١٣) مز ١٠١ : ٢٧

(١٢) ٢ كور ١٢ : ٢

(١١) دانيال ٣ : ٨٠

(١٧) مز ١١٣ : ٥

(١٦) مز ١١٣ : ٣

(١٥) مز ٩٥ : ١١

المدينة». ولسنا نريد بذلك الإشارة إلى البيوت نفسها ، بل إلى سكّان المدينة. وأيضاً :
 «السموات تنطق بمجد الله»^(١٨) ، لا أنها تُخرج صوتاً تسمعه الآذان الحسيّة ، بل هي ،
 نظراً لعظمتها ، تُظهر لنا قدرة الخالق. وبتأملنا في جمالها ، نمجّد المبدع البارِع في صنعه.

في النور والنار والنيرين أي الشمس والقمر والكواكب

النار أحد العناصر الأربعة ، خفيفة ومندفة إلى العلاء أكثر من سائر العناصر ، محرقة ومنيرة معاً ، خلقها الله في اليوم الأول . وقد قال الكتاب الإلهي : « قال الله : ليكون النور فكان النور » (١٩) . وما النار إلا النور ، كما يقول بعضهم . ويقول آخرون إنها النار الكونية التي فوق الهواء ، ويسمونها الأثير . إذاً في البدء - أي في اليوم الأول - صنع الله النور ، بهاء الخليفة المنظورة كلها وزينتها . لأنك إذا رفعت الآن النور ، فيبقى الكل في الظلام مجهولاً ، دون أن يستطيع إظهار بهائه الخاص به : « وسمى الله النور نهاراً والظلام سمّاه ليلاً » (٢٠) . وليس الظلام جوهرًا ، بل عرضٌ ، لأنه فقدان النور ، أما الهواء فليس له أن يكون النور في جوهره . إذاً إن الله قد سمى ظلاماً ذلك الذي يُفقدُ الهواء نوره . وليس جوهر الهواء ظلاماً ، لكن فقدان النور الذي يعني عرضاً أكثر منه جوهرًا . ولم يبدأ بتسمية الليل بل بتسمية النهار . ومن ثم كان النهار أولاً وكان الليل أخيراً . فالليل إذاً تابعٌ للنهار . ومن بدء النهار إلى النهار التالي يكون يوم واحدٌ . فقد قال الكتاب : « وكان مساءً وكان صباح يوم واحد » (٢١) .

النهار والليل في أيام الخليفة الثلاثة الأولى وفي باقي الأيام : - إذاً في الأيام الثلاثة الأولى ، كان النهار وكان الليل في اندفاق النور وفي انسحابه بأمر الله . وفي اليوم الرابع صنع الله النير الكبير - أي الشمس - لبدء النهار وسيطرته ، وبذلك يقوم النهار . والنهار يكون بوجود الشمس فوق الأرض . واستمرار النهار يكون بسير الشمس فوق الأرض من المشرق إلى المغرب . وصنع الله أيضاً النير الأصغر - أي القمر - ثم الكواكب ، لبدء الليل وسيطرته . والليل هو أن تكون الشمس تحت الأرض . ويكون استمرار الليل بسير الشمس تحت الأرض من المغرب إلى المشرق . وعليه قد جعل القمر والكواكب لإتارة الليل . ولكن ليس لتكون دائماً تحت الأرض في النهار ، لأن هناك كواكب في السماء تكون في النهار فوق الأرض ، غير أن الشمس تحجبها بأشعتها الوهاجة هي والقمر أيضاً فلا تسمح لها بالظهور . وقد وضع الله في هذه النيرات النور المخلوق أولاً ، لأنه يعجز عن خلق نور غيره ، بل للنا يبقى هذا النور دون استعمال . لأن النير ليس النور نفسه ، بل هو مخزن للنور .

السيارات السبع : - إنَّ سبعةً من هذه النِّيرات تُسمَّى سِيَّارات ، ويقال بأنَّ حركتها معاكسة لحركة السماء . ولذا فهي تُدعى سِيَّارات . ويقولون بأنَّ السماء تتحرك من المشارق إلى المغارب . أما السِيَّارات فمن المغارب إلى المشارق . وأنَّ السماء ، بحركتها الذاتية الأشدَّ سرعةً ، تحمل معها في دورانها السِيَّارات السبع . وهذه أسماءُها : - الشمس (☉) والقمر (☾) والمشتري (♃) وعطارد (☿) والمريخ (♂) والزُّهرة (♀) وزُحل (♄) . وإنَّ في كُلِّ فلك من أفلاك السماء واحدة من السِيَّارات السبع . فزُحل (♄) في الفلك الأول أو الأعلى ، والمشتري (♃) في الثاني ، والمريخ (♂) في الثالث ، والشمس (☉) في الرابع ، والزُّهرة (♀) في الخامس ، وعطارد (☿) في السادس ، والقمر (☾) في السابع والأدنى .

وتسير الكواكب سِيراً متواصلاً رسمه لها الخالق ، وكأنَّه أسَّسها عليه ، على ما يقول داود الإلهي : « القمر والكواكب التي أنْتَ أسَّستْها » (٢٢) . ويريد بقوله : « أسَّستْها » الترتيب والارتباط الثابتين والثبوتيين المغروسين فيها من قِبَل الله . فقد وضعها الله لتنظيم الأوقات والعلامات والأيام والسنين .

فصول السنة الأربعة . - كان خَلَقُ العالم في الربيع : - فإنَّ بالشمس تقوم الفصول الأربعة . والربيع أولها ، لأنَّ الله أبدع فيه الكائنات كلها . والدليل على ذلك أنَّ تَفَتُّحَ الزهور يصير فيه حتى الآن . وهو فصل يعتدل فيه النهار والليل ، لأنَّ النهار فيه اثنتا عشرة ساعة والليل كذلك . قيام الربيع من متوسط مشرق الشمس . وهو معتدل ومنمي الدم ، لأنَّه حارٌّ ورطب ، وفيه مزيج من الشتاء والصيف . وهو أكثر حرارةً ويبوسةً من الشتاء وأكثر برودةً ورطوبةً من الصيف . والربيع يمتدُّ من الحادي والعشرين من آذار إلى الرابع والعشرين من حزيران . ثم يأتي فصل الصيف ، في ارتفاع شروق الشمس إلى النواحي الشمالية . وهذا وسط بين الربيع والخريف ، له من الربيع الحرارة ومن الخريف اليبوسة ، لأنَّه حارٌّ ويابس . تنمو فيه المراة الصفراء . نهاره هو الأطول وساعاته خمس عشرة ، وليله هو الأقصر ومدته تسع ساعات . ويمتدُّ من الرابع والعشرين من حزيران إلى الخامس والعشرين من شهر أيلول . ثم تصل الشمس من جديد إلى منتصف مشرقها فيتلو الخريف فصل الصيف وهو في حالة وسط بين البرودة والحرارة ، واليبوسة والرطوبة . وهو يتوسط

الكتاب الثاني

فصل الصيف وفصل الشتاء. له من الصيف اليبوسة ومن الشتاء الرطوبة. ولَمَّا كان بارداً ويابساً فهو يُنمي المارة السوداء. وفي هذا الفصل يتساوى أيضاً النهار والليل. ساعاته اثنتا عشرة نهاراً وليلاً. وهو يمتد من الخامس والعشرين من أيلول حتى الخامس والعشرين من كانون الأول. ثم تبلغ الشمس مشرقها الجنوبي، وهو الأصغر والأدنى، فيبدأ فصل الشتاء البارد والرطب والوسط بين الخريف والربيع. له من الخريف البرودة ومن الربيع الرطوبة. فيه النهار الأقصر وساعاته تسع، والليل الأطول وساعاته خمس عشرة. وهو يُنمي البلغم ويمتد من الخامس والعشرين من كانون الأول إلى الحادي والعشرين من آذار. وعليه فقد دبر المبدع عمله تدبيراً حكيماً ذلك بالألّا نتقل من أقصى البرد أو الحرارة أو الرطوبة أو اليبوسة إلى أقصاها المعاكس، لئلا نفع في أمراض عضالة، لأن المنطق يعلمنا أنّ الانتقالات الفجائية خطيرة.

وتعمل الشمس إذاً هكذا على تحقيق الفصول التي تكمل بها السنة بأيامها ولياليها، ذلك بوجود الشمس فوق الأرض وبغروبها تحت الأرض وبمنحها الإضاءة لسائر النّيرات أي القمر والكواكب.

ويقولون أيضاً بأنّ في السماء اثني عشر برجاً من النجوم، حركتها معاكسة لسير الشمس والقمر والسيّارات الأخر الخمس، وبأنّ السيّارات السبع المذكورة تعبّر كلّها في الأبراج الاثني عشر، وأن الشمس تقضي شهراً واحداً في كلّ منها، وبأنّها تجتاز الاثني عشر برجاً في الأشهر الاثني عشر. وإليك أسماء الأبراج الاثني عشر وأسماء شهورها:

تصل الشمس

إلى الحمل	♈	في ٢١ آذار
إلى الثور	♉	في ٢٣ نيسان
إلى الجوزاء	♊	في ٢٤ أيار
إلى السرطان	♋	في ٢٤ حزيران
إلى الأسد	♌	في ٢٥ تموز
إلى العذراء	♍	في ٢٥ آب
إلى الميزان	♎	في ٢٥ أيلول
إلى العقرب	♏	في ٢٥ تشرين الأول
إلى القوس	♐	في ٢٥ تشرين الثاني

إلى الجدي	♈	في ٢٥ كانون الأول
إلى الدلو	♏	في ٢٥ كانون الثاني
إلى الحوت	♐	في ٢٤ شباط

سير القمر هو الأقصر : - أما القمر فيجوز في كل شهر في الأبراج الإثني عشر. ولقربه منها يجتازها بأكثر سرعة، كما لو جعلت كرة ضمن كرة أخرى لوجدت الكرة التي في الداخل أصغر من الأخرى. على هذا النحو أيضاً يكون سير القمر الموجود في الفلك الأسفل فهو الأقصر ومن ثم هو الأسرع.

ضد التنجيم : - لذلك يقول الإغريق بأن كل شؤنونا تتدبر بواسطة هذين الكوكبين، الشمس والقمر، بشروقها وغروبها وتشابكها. وبهذه الأمور يقوم علم التنجيم. أما نحن فنقول: بأنها قد تكون علامات مطير أو عديمه، برد أو حر، رطوبة أو يبوسة، أو أهوية وما شاكلها. أما أن تكون إشارات إلى أعمالنا فكلّا، لأنّ الباري تعالى قد كوّننا مطلقين الحرية. فأصبحنا أرباب أعمالنا. وإذا كنّا نعمل أعمالنا كلها بدافع من النجوم، فنكون نعمل عن اضطرار. وما كان عن اضطرار فليس هو بفضيلة أو برذيلة. وإذا لم نقتر فضيلة ولا رذيلة، فلنستحق ثواباً أو عقاباً، ويكون الله ظالماً إذا منح البعض الخيرات وأنزل بالبعض المحن، بل يكون الله لا يدبر مبرواته ولا يعتني بها، إذا كانت كلها منقاداً وعمولة إلى العمل عن اضطرار، ويكون النطق فينا دون فائدة، لأننا إذا لم نكن أقله أرباب عمل واحد، فبعثاً نتبصر. والحال أن النطق قد منحناه الله للتبصر تبصراً كاملاً. لذا فكل ناطق مطلق الحرية.

ما نعرفه من النجوم : - ونقول نحن بأن النجوم ليست في شيء من سبب الحوادث أو من ولادة المواليد وتكوينهم أو فساد تكوينهم، لكنّها بالأحرى هي علامات الأمطار والتقلب الجوي. ونجيب بالمثل لمن يقول بأنها سبب حروب، أنها بالحرى أدلة عليها. وإن حوادث الجو تحدثها الشمس والقمر والنجوم فتكون - في ظروف مختلفة - أمزجة وملكات وميولاً مختلفة. أما الملكات التي هي في حوزتنا، فننقاد إلى المنطق وهو يسيرها إلى ما يليق.

وأحياناً كثيرة تظهر كواكب مذنبية أو نوع من العلامات تشير إلى موت ملوك. وهي ليست من النجوم المتكونة منذ البدء، لكنّها قائمة بأمر الله إلى حين، ثم تعود فتحلّ، لأنّ

الكتاب الثاني

النجم أيضاً الذي رآه المجوس في ميلاد الرب لأجلنا حباً بخلص البشر لم يكن من النجوم المخلوقة في البدء. والدليل على ذلك أنه كان يسير أحياناً من المشرق إلى المغرب، وأحياناً من الشمال إلى الجنوب. وكان يخفي حيناً ويظهر حيناً آخر، ذلك لأنه لم يكن من الكواكب النظامية الطبيعية.

لماذا أراد الله أن يستمد القمر نوره من الشمس: - واعلم أن القمر يستمد نوره من الشمس، لا لأن الله عاجز عن منحه نوراً خاصاً به، بل ذلك كي يقوم الائتلاف والنظام في الخليقة بوجود رئيس ومرؤوس، ونتحقق نحن أيضاً على المبادرة ببذل الذات والعطاء والانقياد، فنخضع أولاً للرب الإله الصانع والجابل، ثم للمترسبين الذين نحن موضوعون من قبله تعالى تحت ولايتهم، ولا ندقق في الفحص لماذا هذا هو الرئيس، وأما أنا فلا، ونتقبل كل ما يأتيانا من الله بشكر ورضى.

سبب كسوف الشمس وخسوف القمر: - وتنكسف الشمس وينخسف القمر ذلك لنقص ضلال الذين يسجدون للخليقة دون الخالق ولتثقيفهم على أن الشمس والقمر متحولان ومتغيران. وكل متحول ليس هو الله، لأن كل متحول فاسد من طبيعته. وتنكسف الشمس عندما يكون جرم القمر متوسطاً كحائط ومظلاً وحاجباً عنا النور. وعليه، طالما يستمر جرم القمر حاجباً الشمس، يبقى الكسوف قائماً. ولا تستغين ذلك لصغر حجم القمر، فإن بعضهم يقولون إن الشمس أكبر كثيراً من الأرض، ويقول الآباء القديسون إنها متساوية حجماً مع الأرض، لأن أحياناً كثيرة سحابة صغيرة تحجبها أو تل صغير أو حائط.

أما خسوف القمر فينجم عن ظل الأرض، عندما يكون القمر في الخامس عشر من أيامه، وتكون الشمس تحت الأرض والقمر فوق الأرض متعاكسين كل في قطبه. فترسل الأرض ظلها ولا يستطيع النور الشمسي إنارة القمر. ومن ثم يصير الخسوف.

الأشهر القمرية والأشهر الشمسية. - خلق الله القمر بداراً: - واعلم أن البارئ تعالى قد خلق القمر تاماً أي في يومه الخامس عشر، لأنه كان يليق أن يكون كامل الصنع. وكما قلناه، قد خلق الشمس في اليوم الرابع. إذاً إن القمر قد سبق الشمس أحد عشر يوماً. والفرق بين الرابع والخامس عشر أحد عشر يوماً. لذلك كل سنة تنقص أشهر القمر الاثنا عشر عن أشهر الشمس الإثني عشر أحد عشر يوماً. لأن أيام السنة الشمسية ثلاثمائة

وخمسة وستون يوماً وربع ، لذلك يُجمع الربع في السنوات الأربع ليكتمل نهار واحد ويسمى كيبساً . وتكون أيام تلك السنة ثلاثمائة وستة وستين . أما أيام السنة القمرية فتلاثمائة وأربعة وخمسون . والقمر - منذ مولده أي تجديده - ينمو إلى أن يبلغ الرابع عشر ونصفاً وربعاً ، ثم يبدأ ينقص إلى أن يبلغ اليوم التاسع والعشرين ونصفاً وربعاً ويصير بلا ضياء بتاتاً . ثم يعود فيقترن بالشمس فيولد ويتجدد حاملاً بذلك تذكّار قيامتنا . وإنه إذا أعطي الشمس ، كل سنة ، الأحد عشر يوماً الإضافية ، ومن ثم يتجمع شهر إضافي لدى اليهود كل فترة ثلاث سنوات وتصبح تلك السنة ثلاثة عشر شهراً ، حصيلة الأحد عشر يوماً المتكررة .

وإنه لو اوضح أن الشمس والقمر والكواكب مركبة ، وأنها من طبيعتها عرضة للفساد . أما طبيعتها فلا نعرفها . وعليه يزعم بعضهم أن النار لا تكون مضيئة بدون مادة ما . ومن ثم هي لا تضيء إذا طُفئت . ويزعم غيرهم أنها إذا طُفئت تحولت إلى هواء .

حركة الأبراج : - تتحرك الدائرة البرجية تحركاً منحنياً ، مقسوماً إلى اثني عشر قطاعاً ، تسمى أبراجاً . وفي البرج ثلاث عشرات أو ثلاثون درجة ، وفي الدرجة ستون دقيقة . إذا تُقسم السماء إلى ثلاثمائة وستين درجة ، مئة وثمانون منها في الشطر الأعلى فوق الأرض ومئة وثمانون تحت الأرض .

بيوت السيّارات

للمريخ بيتان الحمل والعقرب ، وللزهرة بيتان الثور والميزان ، ولعطارد بيتان الجوزاء والعذراء ، وللقمر بيت واحد هو السرطان ، وللشمس بيت واحد هو الأسد ، وللمشتري بيتان القوس والحوت ، ولزحل بيتان الجدي والدلو .

علالي السيّارات

عليّة الشمس الحمل ، وعليّة القمر الثور ، وعليّة المشتري السرطان ، وعليّة عطارد العذراء ، وعليّة زحل الميزان ، وعليّة المريخ الجدي ، وعليّة الزهرة الحوت .

حالات القمر

- إقتران : - لما يكون القمر في الدرجة التي فيها الشمس .
 ولادة : - لما يتعد عن الشمس خمس عشرة درجة .
 شروق : - لما يظهر بشكل هلال ، مرتين ، ويتعد عنها ستين درجة .
 نصفي : - مرتين ، لما يتعد عنها تسعين درجة .
 في ثلاثة أرباعه : - عند ابتعاده عنها مئة وعشرين درجة .
 تام في ضوءه : - مرتين ، عند ابتعاده عنها مئة وخمسين درجة .
 بدر في تكوينه : - عند ابتعاده عنها مئة وثمانين درجة .
 وقد قلنا «مرتين» أي مرة في ازدياد ومرة في تناقص .
 ويمر القمر في كل من الأبراج مدة يومين ونصف .

في الهواء والريح

الهواء عنصر لطيف جداً ، رطبٌ وحارٌ ، أثقل من النار وأخف من التراب والماء ، يُسبب التنفس والتصويت ، لا لون له - أي من طبيعته ليس له لون - . هو نقيّ وشفاف ويمتاز به النور ويخمد ثلاثاً من حواسنا : فيه نرى ونسمع وتنفس . وهو قابل للحرارة والبرودة ، لليبوسة وللرطوبة . واليك جميع اتجاهاته في حركته : إلى فوق وإلى أسفل ، إلى الداخل وإلى الخارج ، إلى اليمين وإلى اليسار ، فضلاً عن حركته اللولبية .

الهواء خالٍ من النور : - الهواء من ذاته خالٍ من النور . لكنّه يستنير بالشمس والقمر والكواكب والنار . قال الكتاب : « وكان على وجه القمر ظلام » (٢٣) . والقصد من ذلك أن الهواء لا يملك النور من ذاته ، بل أن جوهره غير جوهر النور .

ما هو الريح ؟ - الريح حركة الهواء ، وهو انطلاق الهواء من مكان إلى آخر متخذاً اسمه من مصدر انطلاقه .

مكان الهواء وعدد الرياح : - والمكان أيضاً من الهواء ، لأن مكان كل جسم ما يحيط بهذا الجسم . وما الذي يحيط بالأجسام إلا الهواء ؟ - وهناك أمكنة مختلفة يكون منها تحرك الهواء ، ومنها أيضاً تتخذ الرياح أسماءها . وعددها كلها اثنتا عشرة . ويقولون إن الهواء نار خامدة أو بخار ماء ساخن . ولذا فالهواء حارٌّ من طبيعته الخاصة وهو يبرد بمجاورته للماء وللأرض . ومن ثمّ أجزاؤه السفلى باردةٌ والعليا ساخنة .

في المياه

وصف الماء . - الغاية من وجود الماء فوق الجَلَد : - والماء أيضاً أحد العناصر الأربعة . صنعهُ الله حسناً جداً . وهو عنصر رطب وبارد ، ثَقِيل وسهل الانصباب لاندفاعه إلى أسفل . ويذكرهُ الكتاب قائلاً : « وكان على وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرفّ على وجه المياه »^(٢٤) . وما « الغمر » سوى الماء الكثير الذي لا يمكن البشر إدراك آخره . إذ في البدء كان الماء يغمر الأرض كلها . وصنع الله الجَلَد أولاً يفصل نصف الماء الذي فوق الجَلَد من الماء الذي تحت الجَلَد ، وقد تأسّس بالأمر السيدي في وسط غمر المياه . ومن ثمّ قال الله : « ليكن الجَلَد فكان » . وما السبب في وضع الله ماءً فوق الجَلَد ؟ - ذلك لأجل هُيب الشمس والأثير الجليل الحرارة . فالأثير منتشر حالاً بعد الجَلَد . والشمس مع القمر والكواكب في الجَلَد . فلولا وجود الماء لالتهب الجَلَد من الحرارة .

البحار : - ثمّ قال الله : « لتجتمع المياه إلى موضع واحد »^(٢٥) . ويقولهُ : « موضع واحد » لا يعني أنها تجتمع في مكان واحد ، لأنه قال حالاً بعد ذلك : « وجميع المياه سماءً بجاراً »^(٢٦) ، بل أن تكون المياه بالأحرى منفصلة عن الأرض . وهذا ما يوضحهُ المنطق . وعليه قد اجتمعت المياه إلى مجتمعاتها وبرزت اليابسة . ومن ثمّ ظهر البحران المحيطان بمصر ، لأنّ مصر واقعة بين بحرين . واجتمعت البحار المختلفة ، بوجود الجبال والجزر والمنعطفات والموانئ والخلاجان المتنوعة المحيطة بها ، والسواحل والشواطئ . - لأنّ الساحل ما كان رملياً ، والشاطئ ما كان صخرياً ، قريباً من العمق ، قمره حالاً في بدئه . - مثال ذلك البحر الذي هو في المشرق المسمّى البحر الهندي ، وفي الشمال ذاك المسمّى بحر جرجان ، وسائر الموانئ التي اجتمعت .

الأوقيانوس الذي يحيط بالأرض من كل جهة . - سبب ملوحته : - ثمّ إنّ هناك الأوقيانوس وهو شبيه بنهر يحيط بالأرض كلها ، - وعلى ما أظنّ - إنّه هو الذي قال عنه الكتاب الإلهي : « وكان نهرٌ يخرج من عدن »^(٢٧) ، ماؤه سائغ وعذب ، ولكنه يصبّ في البحار ، ولا استمراره هناك وبقائه بلا حركة ، تمتصّ الشمس على الدوام ما لطّف منه ،

وكذلك الفجرات الأرضية، فيصبح مالخاً. ولذلك تتكوّن السحب وتطلّ الأمطار لتحويله إلى ماء حلّو.

أنهر الفردوس الأربعة. - ماء الينابيع والبحار. - المياه الساخنة: - ويشعب الأوقيانوس إلى أربعة فروع أي أربعة أنهر، اسم أحدها فيشون - أي الجنجيس الهندي - واسم ثانيها جيجون - وهو النيل المنحدر من الحبشة إلى مصر - واسم الثالث دجلة. واسم الرابع الفرات. وهناك أنهر أخرى كثيرة وعظيمة، بعضها بضيع في البحار وبعضها الآخر يغيب في الأرض. ومن ثم فالأرض كلّها متخلخلة ومثقبة كأن لها عروقاً تتقبّل المياه فتفجرها إلى ينابيع. إذاً على حسب تكوين الأرض يكون ماء الينابيع، لأنّ الماء البحري يمرور في الأرض يصفو ويتنقى، وعادةً يصبح في النتيجة حلّواً. أمّا إذا صدف أنّ المكان الذي يتفجر منه ينبوع مرّاً أو مالخاً، فيكون الماء على ما هي التربة الأرضية. وأحياناً كثيرة يكون الماء مضغوطاً عليه ومتفجراً بقوة، فيكون ساخناً. ومن ثم تخرج المياه حارة بطبيعتها.

السماك والطيور: - إذاً في الأرض قد تكوّنت بالأمر الإلهي تجويفات حيث اجتمعت المياه في مجتمعاتها. ومن ثم تكوّنت الجبال أيضاً. فأصدر الله أمره للماء الأول بإخراج نفس حية، لأنه تعالى كان قاصداً في البدء تجديد الإنسان بالماء والروح القدس المرفّ فوق المياه. - فإنّ هذا ما قاله باسيليوس الإلهي. - وأخرج الماء حيوانات صغاراً وكباراً، حيتاناً وتنانين، أسماكاً تسبح في المياه وطيوراً ذات أجنحة. فبالطيور إذاً يتمّ لقاء الماء والأرض والهواء، لأنها قد تكوّنت من المياه وتعيش على الأرض وتطير في الهواء. والماء عنصر حسن جداً، جزيل المنفعة، يُطهر ليس من الدنس الجسديّ فحسب، بل من الروحي أيضاً، إذا اقترن بنعمة الروح.

في الأرض وفي ما هو منها

لا يُعرف أساس الأرض : - الأرض أحد العناصر الأربعة ، يابسة وباردة ، ثقيلة ومتحركة ، أخرجها الله من العدم إلى الوجود في اليوم الأول : « في البدء خلق الله السماوات والأرض » (٢٨) ولم يستطع أحدٌ من البشر أن يقول ما هو مركزها ولا ما هي قاعدتها . فالبعض يقولون بأنه تعالى أسسها وثبّتها على المياه ، كقول داود الإلهي : « الباسط الأرض على المياه » (٢٩) . ويقول غيرهم بأنها تأسست على الهواء . ويقول آخر : « يعلّق الأرض على العدم » (٣٠) . ويقول أيضاً داود المتكلم بالإلهيات ، على لسان الخالق : « إنما أنا واضعُ عمدها » (٣١) ، مسمياً قوتها المثبتة عمداً . أمّا قوله : « لأنه على البحار أسسها » (٣٢) ، فيدلّ على أنّ طبيعة الماء تحيط بالأرض كلها من كل جهة . وعليه ، ولو سلّمنا بأنها مؤسّسة على ذاتها أو على الهواء أو على المياه أو على العدم ، فيجب مع ذلك ألاّ نخيد عن الرأي الصحيح ، بل أن نعترف بأنّ قوّة الخالق تضبط الكلّ وتحفظه معاً .

حالة الأرض في بدء تكوينها . - كلّ الأحياء وتطوّراتها لأجل الإنسان : - في البدء إذاً كما يقول الكتاب الإلهي ، كانت الأرض محجوبة تحت المياه ، خاوية خالية . وأمر الله فكانت مجتمعات المياه ، وظهرت حينئذٍ الجبال ونالت بالأمر الإلهي زيتها ، متحلّية بكلّ أنواع الأعشاب والأغراس . ووضع فيها الأمر الإلهي قوّة للنموّ والتغذية والتناسل - أي أن تلدّ على مثالها - . ورسم الخالق ، فأخرجت كل أنواع الحيوانات من زحافات ووحوش ومواش ، كلّها لاستعمال الإنسان وفائدته ، بعضها لأكله كالغزلان والغنم والماعز وما شاكلها . وبعضها لخدمته ، كالجمال والبقر والخيول والحُمير وما شاكلها ، وغيرها لتسليته كالقردة وبعض الطيور كالعقّاقق والبيّغا وما شاكلها . وأخرجت من النبات والأعشاب ما هو مثمر لأكله وما هو طيّب الرائحة وما هو مزهرٌ أعطى لنا الملمدتنا كالورود وما شاكلها ، وما هو لشفاء أمراضنا ، - لأنه ليس من حيوان ولا نبات إلّا وقد حياه الله قوّة تستعمل لفائدة البشر - . لأنّ عارف كلّ الكائنات قبل وجودها ، والعالم بأنّ الإنسان سوف يتجاوز

٤: ٧٤ مز (٣١)

٧: ٢٦ أيّوب (٣٠)

٦: ١٣٥ مز (٢٩)

١: ١ تكوين (٢٨)

٢: ٢٣ مز (٣٢)

حدود إرادته الحرة فيصير في الفساد ، قد خلق الكل بغية أن يستفيد من استعماله ، ما هو في الجسد وما هو على الأرض وما هو في المياه .

كل شيء كان مهيباً للإنسان : - إذاً قبل المعصية كان الكل تحت حوزة الإنسان وكان الله قد أقامه متسلطاً على كل ما في الأرض وما في المياه . وكانت الحية أيضاً أليفة الإنسان تأتي إليه أكثر من غيرها وتؤانس بحركاتها المبهجة . لذا قد تمكن بها إبليس رئيس الشرور من إبلاغ مشورته الشريرة إلى أبونا الأولين . وكانت الأرض تحمل الثمار من ذاتها لمنفعة الحيوانات الخاضعة للإنسان . ولم يكن مطرٌ على الأرض ولا شتاء . أما بعد المعصية ، فالإنسان قد « مائل البهايم وتشبه بها » (٣٣) ، تاركاً الشهوة الحيوانية تتسلط على عقله الناطق ، فأضحى متمرداً على وصية الرب ، وقامت الخليفة بوجه رئيسها الذي كانت خاضعة له وكان الخالق قد سلطه عليها . وبعرق جبينه ترتب عليه أن يجرث الأرض التي منها أخذ .

التمرد عليه بعد سقطته . - الفائدة من الوحوش : - لكن وجود الوحوش الآن ليس بلا فائدة ، فهي تخيف الإنسان وتحمله على معرفة الله صانعه والاستغاثة به . والشوك أيضاً - بعد المعصية ، وبحسب قضاء الرب - تنبت من الأرض ويقرن ببطافة الورود فيحملنا على التذكر بمعصيتنا التي سببت لنا أن تنبت الأرض شوكاً وحسكاً .

وكان أمر الله بأن يستمر كل شيء بقوة الفطرية : - وعلينا أن نؤمن بأن هذه الأمور تجري على هذا النحو منذئذ إلى الآن ، وأنها تستمر في عملها تنفيذاً لقول الرب الذي قاله : « انموا واکثروا واملأوا الأرض » (٣٤) .

صورة الأرض وحجمها : - ويقول بعضهم إن الأرض كروية الشكل ، وآخرون إنها بشكل مخروط ، وإنها صغيرة جداً وأقل كثيراً من السماء ، بل إنها شبه نقطة معلقة في وسطها وسوف تزول وتتغير . وإنه لسعيدٌ من حظي بميراث أرض الودعاء ، فهي خالدة تلك الأرض التي سوف تعطى للقيدين . ومن هو الذي يتعجب تعجباً لاثقاً بحكمة الخالق التي لا تُحْد ولا تُدرَك ؟ ومن هو الذي يؤدي الشكر اللائق بمانح هذه الخيرات العظيمة ؟

في الفردوس

الفردوس قصرٌ ملكيٌّ للإنسان : - ولَمَّا كان الله عازماً على أن يَجْعلَ الإنسان من خَلِيقَةٍ منظورة وغير منظورة ، على صورته كمثاله ، بمنزلة ملك متسلط على الأرض كلها وعلى ما فيها ، هَيأَ له شبه مملكة ، لو عاش فيها لكانت له حياة سعيدة هنيئة . وما الفردوس الإلهي سوى ذلك المغروس بيدي الله في عدن ، وهو خزانة للأفراح والمسرات . لأنَّ عدن تعني النعم ، وهي موجودة في المشرق في أعلى مكانٍ على الأرض كلها . مناخها طيبٌ ، وهي تزهو بأرق نسيم وأنفاه ، خصبةٌ بالغروس الدائمة الخضرة ، عابقةٌ بالعبور ، مليئةٌ نوراً ، تفوق بهاء كل ما يخاطر على الفكر من حسن وجمال . بقعة إلهية حقاً ، ومتمزلة بلبق بمن هو على صورة الله . ما كان ليحلَّ فيه قط أحدُ البهائم ، بل الإنسان وحده ، لأن الأيدي الإلهية جعلته .

لماذا غُرست شجرة المعرفة : - وغرسَ الله في الفردوس شجرةَ الحياة وشجرةَ المعرفة ^(٣٥) . وقد غرس شجرةَ المعرفة تجربةً وامتحاناً واختباراً لطاعة الإنسان ومعصيته . ولذلك سُمِّيت أيضاً شجرةَ معرفة الخير والشر ، أو ذلك لأنه أعطى المتناولين منها قوةً لمعرفة طبيعتهم الخاصة ، إنَّ صلاحه للكاملين ، وإنَّ شرَّه لغير الكاملين والمتقادين إلى الشهوات - كما هو الطعام القويُّ للأحداث الذين لا يزالون بحاجة إلى اللبن - . فلم يكن يريد الله خالفنا أن نقلق ونضطرب في أمور كثيرة ، ولا أن نفكر ونهتم في معيشتنا الخاصة . وهذا في الحقيقة ما حلَّ أخيراً بآدم . فلَمَّا ذاق عرف أنه عريان ، وصنع له مئزرًا من ورق التين واتزر به . وقد كان كلاهما - قبل الأكل - عريَّتين ، آدم وحواء ، ولم يخجلَا ^(٣٦) . وقد كان الله يريد أن نكون نحن أيضاً كذلك بدون انفعال ، فإنَّ ذلك لدليل على بعد النفس جدًّا عن الشهوات ، وأن نكون بلا هموم ، لنا عملٌ واحد - هو عمل الملائكة - أن نَسبِّحَ الخالق دون انقطاع ولا انتهاء ، وأن نتمتع بمشاهدته ونلقى عليه اهتمامنا . هذا ما أكَّده لنا أيضاً بلسان داود النبي قائلاً : « ألقى على الرب همك وهو يعولك » ^(٣٧) ، وعلمه تلاميذه الأخصاء في الأناجيل قائلاً : « لا تَهْتَمُوا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون » ^(٣٨) . وأيضاً

(٣٧) مز ٥٤ : ٢٧

(٣٦) راجع تكوين ٣ : ٧

(٣٥) راجع تكوين ٢ : ٩ - ١٠

(٣٨) متى ٢٥ : ٦

«أطلبوا أولاً ملكوت الله وهذا كله يُزاد لكم» (٣٩). وقال لمرتا: «مرتا، مرتا، إنك مهتمة ومضطربة في أمور كثيرة، وإنما الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الأصح الذي لا يُترَع منها» (٤٠)، أعني الجلوس عند قدميه واستماع كلامه.

لماذا شجرة الحياة. - الفردوسُ الحسيّ والفردوسُ العقلائيّ. - **عودُ الحياة وكلُّ عود:** - أما شجرة الحياة، فكانت شجرةً مفعولها منحُ الحياة، أو شجرة يصحُّ الأكل منها لمستحقّي الحياة وحدهم وغير الخاضعين للموت. لذا قد تحيل لبعضهم أن الفردوس كان حسياً، ولآخرين أنه كان عقلاً وكنه يبدو لي أنه - لما كان الإنسان قد خلُقَ حسياً وعقلاً، فعلى مثال ذلك كان مترله الأقدس - حسياً وعقلاً معاً، أي مزدوج المظهر. فإنه، مع عيشه بالجسد في بقعة إلهية فائقة الجمال - كما أخبرنا - كان ينعمُ بالنفس في مكان فائق السموات والجمال، متخذاً الله نزله بيتاً له، ومتخذاً إياه رداً فاحراً ومتوشحاً بنعمته ومتغذياً بثمره مشاهدته الجزيلة الحلاوة وحدها، شأنه شأن الملاك. ومن ثم هذا ما يستحق أن يُسمى شجرة الحياة. فإذا كانت الحياة لا يقطعها الموت، تعود لهذه الشركة الإلهية إلى المتمتعين بها. وهذا ما سماه الله «كل شجرة»، قائلاً: «من كل شجر الجنة تأكل» (٤١) لأنه هو نفسه «الكل» الذي فيه وبه يقوم كل شيء.

عود المعرفة: - وإنَّ عودَ معرفة الخير والشر هو التمييز في الرؤيا المتشعبة وهو معرفة الطبيعة الذاتية نفسها التي هي صالحة للكاملين والثابتين في الرؤيا الإلهية، لأنها تُذيع من ذاتها عظمة الخالق، وهم لا يخشون الزلزال بسبب الزمن الذي قضوه في ممارسة هذه الرؤيا، وقد صارت لهم عادة. وهي غير صالحة للذين لا يزالون أحداثاً، مندفعين إلى الشهوات، لعدم ثباتهم في ابتغاء ما هو الأفضل ولعدم تأسيسهم تأسيساً قوياً على الخير الوحيد، وقد صار اهتمامهم بجسدهم يجذبهم إليهم ويستميلهم من كل صوب.

«كلُّ عود»: معرفة الله من مبروهاته - إني لا أزال أعتقد بأن الفردوس الإلهي كان مزدوجاً، على الرغم من أن الآباء اللاهوتيين، بالحقيقة، قد سلموا في تعليمهم هذا التقليد أو ذاك، وأنه يمكن أن نفهم «كل عود» ما نعرفه عن القوة الإلهية من المخلوقات، على نحو ما يقول الرسول الإلهي: «لأن غير منظوراته قد أبصرت منذ خلق العالم إذ أدركت بالمبرهات» (٤٢)، وأن المعرفة المختصة بنا أي معرفة تكويننا هي أسنى المفاهيم والمنظورات

جميعاً ، كما يقول داود النبي : « قَدْ عَجِبْتُ مَعْرِفَتِكَ مِنِّي »^(٤٣) ، أي من تكويني . وإن هذه المعرفة نفسها كانت خطرةً على آدم الحديث التكوين ، للأسباب التي قلناها .

عودُ الحياة تعبيرٌ أيضاً عن الصلاح والطعام الحسيُّ يُوْدي إلى الموت : - ويمكن أن نفهم أيضاً « عودُ الحياة » بأنه تلك الفكرة الإلهية المكونة في جميع المحسوسات والمرتقية منها إلى مصدر الكل وعلته المبدعة . وهذا ما يُسمى أيضاً « كل شجرة » . وهو لكماله وعدم تجزئته يحمل إلى الاشتراك بالخير الوحيد . أما شجرة معرفة الخير والشر فتدلّ على الأكل الحسيّ المسبّب للذّة ، الذي - ولو تراءى حلوّاً - يجعل مَنْ يتناول منه مشتركاً في الشرور ، لأنّ الله يقول : « من جميع شجر الجنة تأكل »^(٤٤) . فكأنّني به يقول : « ارتق بواسطة جميع الخلائق إليّ أنا صانعك ، واجن منها كلّها ثمرةً واحدةً هي أنا ، الحياة الحقيقية ، الثمرة لك كلّ حياة ، واصنع من الاشتراك في قوام وجودك ، لأنك على هذه الصورة تكون خالداً » . « وأما شجرة معرفة الخير والشر ، فلا تأكل منها . فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً »^(٤٥) ، لأنه من الطبيعي أن الأكل الحسيّ إمّلاء مما يدوي ويؤول إلى الخارج والفساد ، فلا يمكن مَنْ يشترك في الأكل الحسيّ أن يبقى غير فاسد .

(٤٥) تكوين ١٧: ٢

(٤٤) تكوين ١٦: ٢

(٤٣) مز ١٣٨ : ٦

في الإنسان

على هذا النحو إذا قد أوجد الله الجوهر العقلاني، أعني الملائكة وكل رتبهم التي هي في السماء، لأنه من الواضح حقاً أن هؤلاء طبيعة عقلانية بدون جسم. وأقول «بدون جسم» بالمقابلة مع كثافة المادة، لأن الحقيقة أن الإله وحده منزّه عن المادة والجسم. وقد خلق الله أيضاً السماء والأرض الحسيتين وكل ما في وسطها. فمن جهة قد خلق الجوهر القريب إليه - لأن الطبيعة العقلية قريبة إليه وهي تُدرك بالعقل -، ومن جهة أخرى خلق الجوهر البعيد منه كل البعد، لأنه واقع تحت الحس. «وكان يلزم أيضاً أن يكون مزيج من كليهما - وهو دليل على مزيد من الحكمة والسيطرة على الطباع -، على رأي غريغوريوس المتكلم بالإلهيات، حتى تكون صلة بين الطبيعة المنظورة والطبيعة غير المنظورة». وبقولي «يلزم» أعني في النهاية مشيئة المبدع، لأنها هي الأجدر بالأمر والنهي. ولا يقول أحدٌ قط لجابله: «ماذا صنعتني هكذا؟» فلخزاف أن يصنع من كتلته آنية مختلفة لإظهار حكمته» (٤٦).

أن الله والحالة هذه، قد صنع الإنسان بيديه من طبيعة منظورة وغير منظورة، على صورته كمثاله، فجعل جسمه من الأرض وأعطاه بنفخته نفساً ناطقة وعاقلة. وهذا ما نسميه الصورة الإلهية. فإن لفظة «على صورته» تدلُّ على أنه عاقلٌ وحرٌّ، ولفظة «كمثاله» تعني مشابهة له بالفضيلة قدر المستطاع.

ضلال أوريجينيس المستقي من طيمائوس: - وبمقتضى تخرصات أوريجينيس، أن الجسد والنفس قد أبدعا معاً، لا هذا أولاً وتلك أخيراً.

مواهب الإنسان في بدء خلقه: - إذا لقد صنع الله الإنسان خالياً من الشر، مستقيماً فاضلاً، لا غم له ولا هم، زاهياً بكل فضيلة، مزداناً بالصالحات كلها، تخاله عالماً ثانياً، صغيراً في كبر، ملاكاً آخر معبوداً، مزيجاً، ناظراً الخليقة المنظورة، ومسار الخليقة العقلية، ملك ما على الأرض ومملوك ما في العلي، أرضياً وسماوياً، وقتياً وخالداً، منظوراً ومعقولاً، وسطاً بين العظمة والضعفة، روحاً وجسداً معاً، روحاً بالنعمة وجسداً بالأصل، ذاك ليقى ويمجد المبدع، وهذا ليشقى، وبشقائه يفتن ويرتد عن الطموح إلى العظمة،

هنا - أي في الحياة الحاضرة - حيواناً خاضعاً للتدبير ، وهناك ، في الدهر الآتي حيث المكافأة ، ونهاية السر ، يتأله بانقطاعه إلى الله بإشارة رضى منه تعالى . وتأله اشتراك في الضياء الإلهي ، لا انتقال إلى الجوهر الإلهي .

الإنسان مخلوق بلا خطيئة وذو إرادة حرة : - وقد صنع الله الإنسان بلا خطيئة طبعاً ، وإذا إرادة مطلقة الحرية . وأقول « بلا خطيئة » ، لا أنه منزّه عن الخطيئة ، لأن الإله وحده منزّه عن الخطأ ، بل أن الخطأ لا يأتيه من طبيعته ، بل بالأحرى من اختياره . أي له أن يبقى وينمو في الخير ، بمعونة النعمة الإلهية ، كما له أن يجحد عن الخير ويصير في الشر ، فيتعد عن الله بمطلق إرادته . فان الفضيلة لا تكون بالإكراه .

في النفس : - وعليه فإن النفس جوهر حي وبسيط ولاجسمي . وهي من طبيعتها لا ترى بالأعين الجسدية ، وهي خالدة وناطقة وعاقلة لا يمكن تصويرها . وهي في حاجة إلى جسم عضوي لتتحه الحياة والنمو والحس والتناسل . والعقل في النفس لا يتميز عنها ، بل هو جزؤها الأتقي . والعقل في النفس كالعين في الجسم . وهي مطلقة الحرية ، مريدة وفاعلة ومتحولة ، - أي متحوّلة الإرادة لأنها مخلوقة . وبما أنها نالت كل هذا طبعاً بنعمة مبدعها ، فقد نالت بهذه النعمة طبعاً الوجود ونوع الوجود .

ليست اللاجسمية على السواء في الجميع : - ونعتبر اللاجسميين الذي لا يرون ولا شكل لهم على نوعين . فهم كذلك بجوهرهم أو بالنعمة ، وهم كذلك بالطبيعة أو بالنظر إلى كثافة المادة . فلما نقول إذاً في الله إنه لاجسمي ، فذلك بالطبيعة ، ولما نقول ذلك في الملائكة أو في الشياطين أو في النفوس ، فذلك بالنظر إلى كثافة المادة .

في الجسد : - والجسم ما كان منتشرًا في الأنحاء الثلاث أي في الطول وفي العرض وفي العمق أو العلو . ويتركّب الجسد من العناصر الأربعة . أمّا أجسام الحيوانات فن الأخطاط الأربعة .

الأخطاط الأربعة قريبة بصفاتها من العناصر الأربعة : - واعلم أن العناصر أربعة : هي الأرض - وبابسة وحارة - والماء - بارد ورطب - والهواء - رطب وحار - والنار - حارة وبابسة . وبالمثل إن الأخطاط أيضاً أربعة وتناسب مع العناصر الأربعة . وهي المראה السوداء - تناسب مع الأرض لأنها بابسة وحارة ، والبلغم - يتناسب مع الماء لأنه بارد ورطب ، والدّم - يتناسب مع الهواء لأنه رطب وحار - ، والمرارة الصفراء - تناسب مع النار لأنها حارة وبابسة . وعليه فإن الثمار تتركّب من العناصر ، والأخطاط من الثمار ،

وأجسام الحيوانات من الأخلاط ، وتنحلّ إليها . وكل مركّب ينحلّ إليها .

للإنسان اشتراك مع الجوامد والحيوانات والناطقين : - واعلم أنّ الإنسان يشارك الجوامد وينعم بحياة الحيوانات وقد نال تفكير أصحاب النطق . فهو يشارك الجوامد بحسبه ويتكوّنه من العناصر الأربعة ، والنبات بهذه نفسها وبقوّة التغذية والنحو والتناسل أو الولادة ، والحيوانات ، بهذه نفسها أيضاً وبالأفراط في الميل أي في الشهوة والغضب ، وفي الحسّ ، وفي الحركة في الاندفاع .

الحواسّ إذاً خمسٌ وهي النظر والسمع والشمّ والذوق واللمس . وخواصّ الحركة في الاندفاع . الانتقال من مكان إلى مكان وحركة الجسم كله والتصويت والتنفس . وإتنا نستطيع أن نفعل ذلك وأن لا نفعله .

وينتمي الإنسان بنطقه إلى الطبائع اللاجسميّة والعقلانيّة ، لأنه يفكر ويعقل ويحكم في الأمور ويسعى وراء الفضائل ويعتق التقوى ، قيمة الفضائل . لذلك فالإنسان عالمٌ صغير .

اختصاصات النفس والجسد : - واعلم أنّ اختصاصات الجسد وحده هي القطع والسيلان والتبديل . ويكون التبديل في الصفة ، كالتمسخين والتبريد وما شاكلها ، ويكون السيلان في الاستفراغات ، باستفراغ الياسات والرطبات والهواء من الجسم ، ومن ثمّ يحتاج هذا إلى التعويض . لذلك تحدث الانفعالات الطبيعيّة كالجوع والعطش . أمّا القطع فهو ابتعاد الأخلاط بعضها عن بعض ، فيتمّ الانفصال إلى صورة ومادّة .

ويختصّ بالنفس التقوى والتفكير . أمّا الفضائل فهي مشتركة بين النفس والجسد ، ومرجعها إلى النفس ، على أنّ النفس تُسيّر الجسد .

العاقل من طبعه التسلّط على غير العاقل . - وقوى النفس خاضعة أو غير خاضعة للعقل : - واعلم أنّ العاقل من طبعه أن يتسلّط على غير العاقل ، وأنّ قوى النفس تُقسّم إلى عاقل وغير عاقل . فالقوى غير العاقلة قسّمان : قسمٌ لا يُصغي إلى العقل أي لا يخضع له ، وقسمٌ يُصغي إلى العقل ويخضع له . والذي لا يُصغي إلى العقل ولا يخضع له هو الحيوانيّ - ويدعى النبطيّ - والناسل أي المولّد ، والنباتيّ - ويدعى الغازيّ ، وهو يختصّ بإتماء الأجساد وصيانتها . وهذه ليست تحت سيطرة العقل بل الطبيعة . أمّا القوى التي تُصغي إلى العقل وتخضع له فتقسم إلى شهوة وغضب . والقسم غير العاقل من النفس يُدعى عموماً الشهوات والأهواء ، مع العلم أيضاً أنّ الحركة في الاندفاع هي مما يختصّ بالعقل .

الكتاب الثاني

ويختصُّ بالقسم الذي لا يخضع للعقل القوى الغاذية والناسلة والنابضة. فالقوى النامية والغاذية والناسلة تُسمى نباتية. أما القوة النابضة فتسمى حيوانية.

وللغاذية أربع قوى : - الجاذبة - وهي التي تجذب الطعام - . والماسكة - وهي التي تضبطه ولا تدعه يستفرغ للحال - ، والمهاضمة - وهي التي تُحوّل الطعام إلى أخلاط - والدافعة - وهي التي تستفرغ الفضلة في منفذ الإبراز وتُخرجه .

أنواع القوى الحيوانية المختلفة : - واعلم أن القوى النفسانية مختصة بالحيوان وهي النامية والحيوانية . والنفسانية هي المنوطة بالاختيار أعني الحركة في الاندفاع والحس . ويختصُّ بالحركة في الاندفاع كل ما هو انتقال مكاني وحركة الجسم كله والتصويت والتنفس . فإن لنا أن نعمل هذه كلها أو لا نعملها . أمّا ما لا يتعلق بالاختيار فهو القوى النباتية والحيوانية . والنباتية هي الغاذية والنامية والناسلة . والحيوانية هي النابضة . فإن هذه كلها تعمل ، شيئاً أم شيئاً .

الأعمال الصالحة والطالحة : - واعلم أن الأعمال منها ما هو صالح ومنها ما هو طالح . فالذي يُظنُّ أنه صالح يجلب الارتياح علاوة على اللذة . والذي يُظنُّ أنه طالح يجلب الخوف علاوة على الغم . واعلم أننا هنا بقولنا « صالح » نعي ما هو صالح في الحقيقة أو في الظاهر . وكذلك « الطالح » .

٩٢٩ - ٩٣٢ • الرأس الثالث عشر • المقالة السابعة والعشرون

في اللذات

التمييز بين اللذات : - من اللذات ما هو نفساني ومنها ما هو جسدي . واللذات النفسانية هي تلك المختصة بالنفس ذاتها وفي ذاتها ، كتلك المتعلقة بالعلوم والتأمل العقلاني . والجسدية ما كان بالاشتراك بين النفس والجسد . ولذلك يُنسب للجسد كل ما يتعلّق بالطعام والعلاقة الجنسية وما شاكلها . ولا يمكن إيجاد فكرة ما عن لذة تتعلّق بالجسد وحده .

ومن اللذات أيضاً ما هو حقيقي وما هو كاذب ، ومنها ما يتعلق بالذهن وحده كالعلم والتأمل العقلاني ، ومنها ما يشترك مع الجسد والحس . واللذات التي يشترك فيها الجسد منها طبيعية وضرورية معاً ، وبدونها لا يمكن العيش ، كالأطعمة التي تُسدّ الحاجة والألبسة الضرورية . ومنها ما هو طبيعي ولكنه غير ضروري ، كالعلاقة الجنسية بمقتضى الطبيعة والشرعة ، فهي تتمّ لبقاء الجنس كلّه وبدونها يمكن العيش في البتولية . وتكون اللذات غير ضرورية وغير طبيعية ، كالسكر والعهارة والإفراط في الأكل - وهي لا تتمّ لقيام حياتنا ولا لدوام الجنس ، بل بالعكس تكون بالأحرى لضررنا . وعليه ينبغي لمن يعيش في رضى الله أن يسعى وراء ما هو منها ضروري وطبيعي معاً . وأن يجعل ما هو طبيعي وغير ضروري في الرتبة الثانية . وليصبر ذلك بمقتضى الظرف والحال والاعتدال . أما ما هو سوى ذلك فيجب الامتناع عنه تماماً .

مقياس صلاح اللذة : - وينبغي أن نحسب اللذات صالحة تلك التي لا يتخلّلها غم ، ولا يعقبها ندامة ، ولا يتأثّر منها ضرر آخر ، ولا تتجاوز حد الاعتدال ، ولا تصرفنا طويلاً عن أعمالنا الملحة وتستعبدنا .

في الحزن

للحزن مظاهر أربعة : - الكآبة والغم والحسد والرحمة . فالكآبة الحزن الصامت .
والغم الحزن المُضني . والحسد الحزن لنجاح الآخرين . والرحمة الحزن لضرر الآخرين .

المقالة التاسعة والعشرون الرأس الخامس عشر .

٩٣٢

في الخوف

ويُقسم الخوف إلى ست حالات: الكسل والاستحياء والخجل والفرع والذهول والحذر. وعليه فالكسل هو الخوف من الإتيان بعمل. والاستحياء هو الخوف من استجلاب الملامة - وهذه عاطفة حسنى - والخجل هو الخوف من جرّاء عمل مشين - وهذه العاطفة ليست لقطع الرجاء من الخلاص - والفرع هو الخوف من جرّاء مخيلة واسعة. والذهول هو الخوف من جرّاء مشهد غير مألوف. والحذر هو خوف السقوط أو الخيبة. ومن يخشى الخيبة في عمله يجتهد.

في الغضب

الغضب غليان الدم حول القلب من تبخر المرارة وتكدرها. لذلك يسمّى أيضاً «المرّة» والتمرمر. ويصحب الغضب شهوةً إلى الانتقام أحياناً. فإننا متى ظلمنا أو ظننا أننا مظلومون، نناثر ويكون ألمانا خليطاً من شهوة وغضب.

وللغضب ثلاثة مظاهر هي الحقن ويسمى المرّة والتمرمر. والغيط والضغينة. وللغضب بدءٌ وحركةٌ ويُقال لها حقنٌ ومرّةٌ وتمرمر، ثم يصبح غيطاً $\mu\eta\nu\iota\varsigma$ ، وهو المرّة الثابتة أعني التذكر بالشر. ولفظه مشتقٌ من الثبات $\tau\acute{o}\ \mu\acute{e}\nu\epsilon\iota\nu$ ، ويستمر في الذاكرة. والضغينة هي الغضب المترصد فرصةً للانتقام ويسمى $\kappa\acute{o}\tau\omicron\varsigma$ لاشتقاقه من لفظة $\tau\acute{o}\ \kappa\epsilon\iota\sigma\theta\alpha\iota$ اضطجع.

والغضب خفرٌ للمنطق ومنتهقٌ للشهوة. لأننا عندما نرغب في أمرٍ ويصدنا عنه آخر، نثور كمظلومين، إذا حكم المنطق أن ما حدث يستوجب استيائنا وكنا ممن يحافظون على مقامهم الطبيعي.

في الخيِّلة

الخيِّلة قوة النفس اللاناطقة وهي تتأثر بالحواس ويُقال لها الإحساس . أما الخيِّل والمحسوس فهو ما كان واقعاً تحت الخيِّلة والإحساس ، على مثال النظر الذي هو القوَّة الناطقة نفسها ، والمنظور ما يقع تحت النظر كالحجر مثلاً أو ما شاكلة . والتهيِّل تأثير النفس اللاناطقة من جراء مخيِّل ما . والخيال تأثير نفسي فارغ في النفوس اللاناطقة من جراء مُخيِّل ما . أما عضو الخيِّلة فجوف الدماغ الأمامي .

في الحس

الحسُّ قوةٌ في النفس من شأنها تفهّمُ الموادِّ أي تمييزها. والحواسُّ هي الأعضاء أو الآلات التي نحسُّ بها. والحسوسات ما يقع تحت الحسِّ. والحسّاس هو الحيّ المتمتع بالحسِّ. وأنواع الحسِّ خمسة، وبالمثل الحواسُّ خمس.

الحسُّ الأول هو النظر. - وآلاتُ حسِّه وأعضاء النظر هي الأعصاب الصادرة من الدماغ مع العينين. ويشعر النظر، بادئ ذي بدء، باللون، ثم انطلاقاً من اللون يُميّز الجسمَ الملونَ وحجمه وشكله والمكان الذي هو فيه ومسافة بعده وعدده وحركته وسكونه وخشونته ونعومته، واستوائه وعدم استوائه، وحدته وتثلمه، وهل سطحه مائي أم أرضي، وهل أرضه رطبة أم يابسة.

الحسُّ الثاني هو السمع. - وهو يشعر بالأصوات والضججات. فيميّز حدّتها وثقلها، نعومتها وضخامتها. أما أعضاؤه فهي أعصاب الدماغ اللطيفة وجهاز الأذنين. والإنسان والقرود وحدها لا تتحرّك أذانها.

الحسُّ الثالث هو الشم. - وهو الذي يصير بإصعاد الروائح عبر المنخرين إلى الدماغ، فتبلغ إلى حدود تجويفات الدماغ الأمامية. وهي الحاسة التي تشعر بالروائح. وأهم اختصاصاتها تمييز الروائح طيبها وكرهها وما يتوسط بينهما مما ليس طيباً ولا كريهاً. فإذا تمّ للرطوبات التي هي في الأجسام أن تنضج، كانت الرائحة الطيبة، وفي الحالة الوسطى، كانت الوسطى، وإذا نقص النضوج كثيراً أو فقد تماماً كانت الرائحة الكريهة.

الحسُّ الرابع هو الذوق. - وهو إدراك الطعوم أو الإحساس بها. وأعضاؤه اللسان، ولا سيّما أوله، وسقف الفم. وفيها تمتد الأعصاب الصادرة من الدماغ، فتوصل ما تدركه من إحساس إلى مرجعها. أمّا صفات الأخطاط الطعمية فهي هذه: - الحلاوة والحاموضة والحمازة والحرارة والملوحة والمرارة والدهنية واللزوجة. والذوق هو تمييز هذه الطعوم. أمّا الماء فهو خالٍ من هذه الصفات كلّها وليس فيه البتّة شيء منها. وما الحرّافة إلا شدة الحرارة وكثرتها.

والحسُّ الخامس هو اللمس. - وهو شائعٌ أيضاً بين جميع الحيوانات. وهو صادر من

الدماغ إلى الجسم كله بامتداد الأعصاب . لذلك فإنَّ اللمس في الجسم كله ، بل في الحواس الأخرى أيضاً . ويخضع للمس الحارّ والبارد ، اللين والصلب ، اللزج والمشقق ، الخفيف والثقيل ، لأن هذه تُعرف باللمس وحده . أمّا المشترك بين اللمس والنظر فهو الحسّس والناعم ، اليابس والرطب ، الغليظ والدقيق ، العلويّ والسفليّ ، المكان والحجم لما يتمُّ لهذا أن يحصر الملموس بقبضة واحدة ، الكثيف والدقيق أي الرقيق ، والمدور إذا كان صغيراً ، وأشكال أخرى . وعلى هذا النحو نحسُّ باقتراب الجسم ذلك بمؤازرة الذاكرة والذهن معاً ، وكذلك أيضاً نحسُّ بالعدد حتى الاثنين أو الثلاثة ، شريطة صغر أحجام الأشياء وسهولة قبضها . ويُدرِك النظر هذه الأمور أكثر من اللمس .

واعلم أنَّ الخالق قد هيأ لكلٍّ من الحواسِّ الأخرى عضوين ، حتى إذا فقد أحدهما قام الآخر مقامه . فإنَّ لنا عينين اثنتين وأنفاً مزدوج المجرى ، ولساناً مزدوجاً - غير أنه منفصل لدى بعض الحيوانات ، كالحيات ، ومتّصل لدى البعض الآخر ، كالإنسان . واللمس منتشر في الجسم كله ، ما عدا العظام والأعصاب والأظافر والقرون والشعر والروابط وما مائلها .

واعلم أنَّ النظر يرى ما يقع أمامه مواجهة ، والشمّ والسمع يحسّان - لا بما هو تجاهها وحسب - بل بما هو في كلّ الجهات . أمّا اللمس والذوق فيشعران - لا بما هو تجاهها ولا بما هو في كلّ الجهات - ، بل بمحسوساتها المتنصقة بهما وحدهما .

في التفكير

ومن التفكير الحكم والقبول والاندفاع إلى العمل والكف عنه والهرب منه. ويخصه فهم المفاهيم والفضائل والمعارف وأصول الفنون والمشورة والاختيار، فضلاً عما هو فينا، عبر الأحلام، يتنبأ عن المستقبل الذي يعتبره البيثاغوريون بأنه التكهن الوحيد الحقيقي. وقد تبعهم في ذلك العبرانيون. أما عضوه فهو التجويف الأوسط من الدماغ والروح النفساني الذي هو فيه.

٩٣٧ - ٩٤٠ الرأس العشرون • المقالة الرابعة والثلاثون

في الذاكرة

تحديد الذاكرة : - الذاكرة من الذكر وهي علة التذكر ومخزنه . والذكر صورة مطبوعة في الحسّ والفكر تظهر بالفعل أو هي حفظ للحسّ والفكر معاً . فإنّ النفس ، بواسطة حواسّها من جهة ، تنطبع فيها إحساسات أي يصير إحساس ويتكوّن مظهر ، ثم بواسطة العقل من جهة أخرى ، يصير تفكير . إذاً عندما تحفظ النفس رسوم ما قد ظهر لها وما قد فهمته يقال بأنّها تتذكره .

كيف تتكوّن الذاكرة : - واعلم أنّ فهم المقولات لا يكون إلا بالتعلّم أو بالتفكير الطبيعيّ ، وليس ذلك من الإحساس ، لأنّنا نتذكر المحسوسات كما هي . أما المقولات فما نتعلّم منها نذكره . وليس لنا ذكر لجوهرها .

ما هو التذكّر : - والتذكّر عبارة عن إعادة ذكر أضاعه النسيان . والنسيان فقدان الذكر . وعليه فإنّ الخيّلة ، وهي تنطبع بإحساسات الموادّ ، تسلمها لقوة التمييز أو المنطق ، وكلاهما واحد . ثمّ تسلمها هذه القوة وتمحصها وترسلها إلى الذاكرة . وعضو الذاكرة تجويف الدماغ الخلفي المسمّى المخيخ وفيه الروح النفسانيّة

في الكلمة الداخلية والكلمة الخارجية

ثم يقسم النطق في النفس إلى كلام داخلي وخارجي. فإن الكلام الداخلي حركة النفس الصائرة في القوة التفكيرية بدون صوت البتة. ومن ثم كثيراً ما - ونحن صامتون - نطلق في ذواتنا بحدوث بأسره ، ونحدث في الأحلام. ولهذا نحن بالأكثر كلنا ناطقون. وإن البكم منذ مولدهم أيضاً أو الذين فقدوا صوتهم لمرض أو عارض ما ليسوا بأقل نطقاً في شيء. أما الكلام الخارجي فيكون في الصوت وفي المحادثات أي هو الكلام الملفوظ باللسان والفم. لذلك يدعى أيضاً خارجياً ، وهو رسول الفكر. وبسبب ذلك ندعى نحن ناطقين.

٩٤٠ - ٩٤٩ . الرأس الثاني والعشرون . المقالة السادسة والثلاثون

في الانفعال والفعل

الانفعال كلمة مهمة : - للانفعال معانٍ مختلفة ، فإن الانفعال يكون جسدياً كالأعراض والجروح ويكون نفسانياً كالشهوة والغضب . وانفعال الحيوان هو الذي - عموماً وأصلاً - يتبعه لذة ووجع . والوجع يتبع الانفعال ، والانفعال نفسه ليس وجعاً . فإن الجوامد تنفعل دون أن تتوجع . إذاً ليس الانفعال توجعاً ، بل الشعور بالانفعال . ويجب أن يكون هذا الانفعال جديراً بالاعتبار أي كبيراً كي يخضع للحس .

ما هو انفعال النفس : - وهذا هو حدُّ الانفعالات النفسانية : الانفعال حركة اللقوة الشاهية حسية تجاه صورة خير أو شر . وبتعبير آخر ، الانفعال حركة للنفس لانطقية ابتغاء خير أو شر . فإن ابتغاء الخير إذاً يحرك الشهوة وابتغاء الشر يحرك النفور . أما الانفعال الأصيل أي العام فهو هذا : - الانفعال حركة في شيء من شيء آخر . والفعل حركة فاعلة . والفاعل هو المتحرك من ذاته . والنفور حركة النافر . ويكون الانفعال في قسمي النفس وفي الجسم كله أيضاً ، عندما ينقاد بقوة النفور إلى الأعمال . فإن الحركة تصير من واحد في آخر ، وهذا يسمى انفعالاً .

الحركة نفسها انفعال وفعل : - وبتعبير آخر ، يسمى الفعل انفعالاً ، ذلك لأن الفعل حركة بحسب الطبيعة والانفعال حركة ضد الطبيعة . وبهذا المعنى أيضاً يسمى الفعل انفعالاً ، ذلك عندما لا يتحرك بحسب الطبيعة إما من ذاته وإما من غيره . وعليه ، بما أن حركة القلب بالنبضات طبيعية فهي فعل ، وبما أن حركته بالخفقان ليست موزونة ومن ثم هي غير طبيعية ، فهي انفعال ، لا فعل .

ليس كل حركة المنفعل يسمى انفعالاً ، بل أشدها الذي يبلغ إلى الحس . فإن الصغيرة منها والتي لا تخضع للحس ليست انفعالات بالمرّة . ويجب أن يكون أيضاً للانفعال الحجم الجدير بالاعتبار . لذلك يضاف إلى تحديد الانفعال : حركة محسوسة والحركات الصغرى التي تتناسى الحس لا تكون انفعالاً .

قوى النفس المزدوجة ، العارفة منها والناشطة : - إعلم أن لنفسنا قوى مزدوجة : منها عارفة ومنها ناشطة . فالعارفة منها هي العقل والتمييز والظن والمحبة والحس . أما الناشطة أو

الراغبة فهي الإرادة والاختيار . وزيادة في الإيضاح ، ندقق في معانيها مبتدئين بالقوى العارفة .

إذاً لقد قيل الكافي في ما تقدم في الحيلة والحس . وعليه يقوم الانفعال في النفس بواسطة الحس ويدعى حيلة ، ومن الحيلة ينجم الظن . ثم ينظر التمييز في الظن هل هو صادق أم كاذب فيختار الصادق . ولذا فالتمييز مشتق من ميز واختار . إذاً فإن المميز والمحدد يُسمى عقلاً .

ومن جهة أخرى ، إعلم أن حركة العقل الأولى تدعى تفكيراً . وما يقع عليه التفكير يدعى فكراً . وهذا إذا استمر وانطبع في النفس لتفهّمه يسمى تأملاً . والتأمل إذا طال وجال في ذاته وفحص النفس لتفهّمه يسمى تبصراً . والتبصر إذا امتد أصبح نقاشاً ، اسمه الكلام الباطني . ويقولون في تحديده إنه كمال حركة النفس في تفكيرها الخالي من صوت خارجي ، ويقولون إن منه يصدر الكلام الخارجي المعبر عنه باللسان . هذا وقد تكلمنا في القوى العارفة ، فلنتنقل أيضاً بالكلام إلى القوى النشطة أي الرغبة .

القوى الرغبة . - تحديد الإرادة : - إعلم أن قد زُرعت في النفس طبيعياً قوة رغبة في ما هو بحسب طبيعة الكائن ، وهي مجهزة تجهيزاً جوهرياً لكل ما يؤول بالنفع على الطبيعة ، وتسمى إرادة . فإن الجوهر يرغب في وجوده وعيشه وحركته بحسب عقله وحسه ، لأنه يميل إلى كمال كيانه الطبيعي الخاص . لذلك يحدّدون أيضاً هذه المشيئة الطبيعية هكذا : المشيئة ميلٌ نطقيٌ وحيويٌ منوطٌ بالأمور الطبيعية وحدها . حتى إن الإرادة نفسها أي القوة البسيطة الطبيعية هي ميل حيويٌ ونطقيٌ إلى جميع مقومات الطبيعة . غير أن ميل البهائم الذي ليس هو بنطقي لا يسمى إرادة .

إرادة شيء ما طبيعية : - والإرادة مشيئة ما طبيعية أي ميل طبيعي ونطقي إلى عملٍ ما . لأن في نفوس البشر قوة تميل بهم ميلاً نطقياً . إذاً عندما يتحرك الميل النطقي نفسه تحركاً طبيعياً إلى عملٍ ما يقال له إرادة ، لأن الإرادة ميلٌ واندفاعٌ نطقيٌ إلى عملٍ ما .

وتشمل الإرادة ما هو بوسعنا وما هو ليس بوسعنا ، أي ما هو ممكن وما هو غير ممكن . لأننا نريد مراراً كثيرة أن نرzi أو أن نغف أو أن ننام . وهذه هي بوسعنا ممكنة . وإننا نريد أيضاً أن نملك ، وهذا ليس ممّا هو بوسعنا . وقد نريد أن لا نموت مطلقاً ، وهذا من غير الممكنات .

فعل الإرادة هو غايتها وهو موضوع الإرادة : - إن إرادة الغاية ليست مما يؤدي إلى الغاية . فإن المراد إذاً هو الغاية ، كالمُلك مثلاً أو الشفاء . أما ما يؤدي إلى الغاية فهو موضوع المشورة أي الطريقة التي تنال بها الشفاء أو الملك . ثم بعد الإرادة البحث والفحص ، وبعد ذلك ، - إذا كان الأمر مما هو بوسعنا - تكون المشورة أو الشور . والشور ميلٌ من شأنه أن يبحث في الأمور التي بوسعنا تميمها ، لأننا نتشاور في هل يجب الإتيان بالعمل أم لا . ثم يأتي الحكم في ما هو الأفضل ويدعى حكماً . ثم يصير التمييز وإيثار ما حكمت به المشورة ويسمى رأياً . لأنه إذا صدر الحكم ولم يكن ثمة تمييز ما صدر الحكم فيه أي إثارة ، فلا يدعى رأياً . ثم بعد التمييز يصير الاختيار أي الانتخاب . فإن الاختيار هو تجاه موضوعين اثنين وينتهي باختيار الواحد وإهمال الآخر . ثم يصير العزم على العمل . ثم يُنجز ويدعى استعمالاً . ثم يتوقف العزم بعد الاستعمال .

الإرادة مفقودة في البهائم : - وعليه لدى الحيوانات ، حالما يكون ميلٌ إلى شيء ، يصير العزم على إنجازه . لأن ميل البهائم غير نطقي ويُسيرها العزم الطبيعي . لذلك فإن ميل البهائم لا يُسمى مشيئة ولا إرادة . فالمشيئة ميلٌ طبيعيٌ نطقي ، والميل الطبيعي لدى البشر الناطقين ينقاد أكثر مما يقود ، لأن الإنسان المتمتع بالحرية يتصرف بقيادة عقله ، بسبب أن القوى العقلية والحيوية مجتمعة فيه . إذاً هو يميل بحرية ويريد بحرية ويبحث بحرية ويفحص بحرية ويتشاور بحرية ويحكم بحرية ويؤثر بحرية ويختار بحرية ويعزم بحرية ويعمل بحرية في ما هو بحسب الطبيعة .

في الإرادة الإلهية . - في الله إرادة بدون مشورة : - واعلم أننا لما نتكلم في إرادة الله لا نقول بأنها تختار اختياراً حقيقياً ، لأن الله لا يتشاور . فالتشاور يفترض الجهل . وليس من يتشاور في ما يعرفه . وإذا كانت المشورة دليل الجهل ، فإن الاختيار يكون حتماً كذلك . وإن الله الذي يعرف كل شيء معرفة بسيطة ، فهو لا يتشاور .

وكذلك في نفس الرب : - ولسنا نقول باختيار في نفس الرب ، ذلك لأن ليس فيها جهل . فإنها ولو كان من طبيعتها أن تجهل المستقبلات ، غير أنها - وقد اتحدت أقنومياً بالله الكلمة - فقد كان لها معرفة كل شيء ، ليس بالنعمة ، بل - كما يقال - بسبب اتحادها الأقنومي . فإن الأقنوم هو نفسه كان لها وإنساناً معاً . لذلك فالإرادة عنده لا يتخللها رأي . فقد كانت للرب تلك الإرادة الطبيعية البسيطة ، على نحو تلك المشاهدة في سائر الأقسام البشرية . أما نفسه المقدسة ، فلم يكن لها رأي أو مراد تجاه مشيئته الإلهية ولا مشيئة أخرى

ضد مشيئته الإلهية. لأن الرأي يختلف في الأشخاص ، ما عدا في اللاهوت الأقدس البسيط والمنزه عن التركيب والانفصال. فإن الأقانيم هنا - وهم بلا انقسام ولا انفصال قطعاً ، - ليس ثمة انقسام في مرادهم. وهنا أيضاً ، بما أن طبيعتهم واحدة ، فإن مشيئتهم الطبيعية واحدة. ومن حيث أن الأقانيم بلا انفصال ، فإن مرادهم أيضاً واحد وواحدة حركة الأقانيم الثلاثة. أمّا في البشر ، فن حيث أن طبيعتهم واحدة ، فإن مشيئتهم الطبيعية واحدة أيضاً. ومن حيث أن أشخاصهم مشتبون ويتميز بعضهم عن بعض بالمكان والزمان وبوضعهم بالنسبة للأمور ، وبأشياء أخرى كثيرة ، فلأجل ذلك إن مشيئاتهم وآراءهم مختلفة. أمّا في ربنا يسوع المسيح ، فن حيث أن طبيعتيه مختلفتان ، فإن مشيئتي لاهوته وناسوته الطبيعتين مختلفتان وهما قوتاه الشائيتان. ومن حيث أن أقنومه واحد ، فإن الذي يشاء واحد ، وواحد ما يشاؤه أي إن المشيئة ذات الرأي التي يشاؤها ناسوته تتبع حتماً مشيئته الإلهية ، وهي تشاء ما شاءت أن تشاء المشيئة الإلهية.

واعلم أن المشيئة شيء والإرادة شيء آخر. وما تشاؤه المشيئة شيء وما تشاؤه الإرادة شيء آخر ، والذي يشاء شيء آخر. والمشيئة قوة الشبهة البسيطة نفسها ، والإرادة مشيئة شيء ، والشيء العمل الموضوع للمشيئة أي هو ما نشاؤه ، مثلاً تحرك المبل للطعام. والمبل على بساطته مشيئة نطقية ، وذو المشيئة هو الحاصل على قوة تشاء ، مثلاً الإنسان. والشائي هو نفسه الذي يستعمل المشيئة.

واعلم أن المشيئة الفاعلة تعني تارة المشيئة العازمة ، - ويقال لها المشيئة الطبيعية - وتارة تعني الشيء الذي نشاؤه ويقال لها المشيئة الشورية.

في الفعل

اعلم أن جميع القوى التي سبق الكلام عنها - العارفة والناشطة والطبيعية والفنية - تُسمى أفعالاً. فإن قوة كل جوهر الطبيعية وحركته هي فعله. وأيضاً إن حركة كل جوهر الغريزية هي فعله الطبيعي. ومن ثم إنه لو اُضح أن على قدر جوهر الأشياء نفسه يأتي أيضاً فعلها نفسه. وعلى قدر ما أن طبائع الأشياء مختلفة، تأتي أفعالها أيضاً مختلفة. ولا يُعقل جوهر خالياً من فعل طبيعي.

والقوة التي من شأنها أن توضح كل جوهر إنما هي أيضاً فعله الطبيعي. وأيضاً إن قوة النفس الأولى الدائمة الحركة هي فعلها الطبيعي. وهذا هو كلامها الدائم الحركة، التابع منها دوماً تبعاً طبيعياً. وأيضاً إن قوة كل جوهر وحركته هي فعله الطبيعي. ولا يخلو منه سوى العدم. والأعمال أيضاً، كالتكلم والمشى والأكل والشرب وما مائلها تُسمى أفعالاً. والانفعالات الطبيعية كثيراً ما تُسمى أفعالاً، كالجوع والعطش وما مائلها. وإن تكمل القوة أيضاً يسمى فعلاً.

ويكون الفعل مضعفاً: بالقوة وبالفعل. فنقول إن الطفل الرضيع نحوي بالقوة، لأن له الجدارة - إذا تعلم - أن يصير نحوياً. ونقول أيضاً إن النحوي نحوي بالقوة وبالفعل. فهو بالفعل لأن له معرفة النحو. وهو بالقوة لأنه يستطيع أن يشرحه، ولو كان لا يمارس الشرح. ولما يفعل، أي يشرح، نقول أيضاً إنه نحوي بالفعل.

واعلم أن الحالة الثانية مشتركة لما هو بالقوة ولما هو بالفعل. فالثانية لما هو بالقوة والأولى لما هو بالفعل.

الحرية فعل الطبيعة الأول والوحيد الحقيقي، ذلك أنها حياة ناطقة ومستقلة، وبانية الصورة التي تمثلنا. والذين يترعونها عن ربنا لست أفهم كيف يقولون إنه إله متأنس. الفعل حركة الطبيعة النشطة. والمتحرك من ذاته يقال له الفاعل.

في ما هو طوعي وغير طوعي

لَمَّا كَانَ للمرء أن يأتي بعمل ما هو طوعي وأنَّ له أن يأتي بعمل ما يحسبه غير طوعي ، وكان كثيرون يعملون أيضاً ما هو حقاً غير طوعي ، ليس في الانفعال فحسب ، بل في الفعل أيضاً ، فيجب العلم بأنَّ العمل فعل نطقي ، وأنَّ الأعمال يتبعها مدح أو ذم ، وأنَّ بعضها يتم بلذة وبعضها بغم ، وأنَّ بعضها يؤثر عاملها وبعضها ينفر منه ، وأنَّ - بين المأثورات - بعضها مأثور دائماً وبعضها مأثور إلى حين ، وأنَّ الأعمال التي ينفر منها هي على هذا النحو أيضاً . فَإِنَّ الأعمال منها ما يُؤخذ بعين الرحمة وهو جدير بالغفران ، ومنها ما يُمقت ويستوجب العقاب . إِذَا فَإِنَّ العمل الطوعي يتبعه حتماً مدح أو ذم ، ويلتحق أيضاً بعاملي الأعمال أنها تُنجز بلذة وتكون مأثورة ، إمَّا دائماً وإمَّا حيناً تُعمل . أمَّا الأعمال المعمولة عن إكراه فهي جديرة بالمساحة أو الرحمة ويصحها غم ، ولا تكون مأثورة وهي معمولة ليس بدافع من عاملها ، بل تكون عن إكراه .

والإكراه يكون عن اغتصاب أو عن جهل . فهو يكون عن اغتصاب متى كان المبدأ العامل - أي العلة - من خارج . أي متى اغتصبنا غيرنا دون أن نُبدي رضى البتة ودون أن نجاريه بنشاط خاص أي دون أن نصنع نحن بذاتنا ما نغتصب عليه . ونقول في تحديده : - الإكراه هو الذي مبدؤه من خارج دون مجازاة المغتصب بنشاط منه خاص . ونعني بالمبدأ العلة العاملة . أمَّا الإكراه عن جهل فيكون عندما لا نفتعل نحن علة الجهل ، بل يحدث الأمر صدفة . فإذا اقترف سكران قتلًا ، يكون قد قتل جهلاً لا كرهاً لأنَّ علة الجهل - أي السكر - قد افعلها هو نفسه . أمَّا إذا كان أحدهم يرشق النبال في مكان معتاد وقتل أباه المتواجد هناك صدفةً ، فيُقال إنه فعل ذلك عن جهل كرهاً .

فالإكراه إذاً على نوعين : عن اغتصاب وعن جهل . أمَّا الفعل الطوعي فهو خالٍ منهما كليهما ، وهو يكون لا عن اغتصاب ولا عن جهل . وإنه إذاً لطوعيُّ الفعل الذي مبدؤه - أي علته - في مَنْ يعرف الأمور بدقائقها وبأسبابها وبظروفها . ويُسمَّى علماء البيان معرفة الأمور بدقائقها الأنواع الظرفية وهي : « مَنْ الفاعل ؟ وَمَنْ المفعول به ؟ وما هو الفعل ؟ - في حال قتل ما - وماذا ؟ أي الآلة - وأين ؟ أي المكان - ومتى ؟ - أي الزمان - وكيف ؟ - أي نوعية الفعل - ولماذا ؟ - أي لأي سبب ؟ .

واعلم أن هناك أفعالاً وسطى لا تصير طوعاً ولا كرهاً ، ولا يصحبها لذة أو غم ، إنما ترتضي بها ، تجنباً لشر أعظم . فنلق ، مثلاً ، ما في السفينة خوفاً من الغرق .

واعلم أن ما يعمله الأطفال والبهائم يصير طوعاً ولكن بدون سابق تمييز ، وما نعمله نحن بغضب وبدون ترو ، يتم طوعاً ، ولكن بدون سابق تمييز . وإذا وقف بنا صديقنا فجأة ، ترتضي بذلك طوعاً ، ولكن بدون سابق تمييز أيضاً . والذي يعثر على كنز لا يتوقعه ، يتلقاه طوعاً ، ولكن بدون سابق تمييز . وإن كل هذه الأمور تصير يرضى لأننا نسر بها ، ولكن بدون سابق تمييز ، لأنها ليست صادرة عن تشاور ، فإن على التشاور أن يسبق الإيثار ، كما قلنا .

في ما هو في استطاعتنا - أي في الحرية

تساؤلات في الحرية: - يقنضي للكلام في الحرية أي في ما هو باستطاعتنا أن نبحث أولاً إذا كان ثمة شيء في استطاعتنا ، لأن كثيرين يعارضون ذلك . وأن نبحت ثانياً ما هي الأمور التي هي في استطاعتنا ، وما هي سلطتنا عليها . ثالثاً أن نبحت عن السبب الذي لأجله صنعنا الله جابلنا أحراراً . ولنعد إذاً إلى ما بدأنا به ، مبيّنين أولاً أن هناك شيئاً هو في استطاعتنا مما يعترف به أولئك ، فنقول هكذا :

يقولون إنَّ علّة جميع ما نعرفه هو الإله أو القضاء أو القدر أو الطبيعة أو الحظ أو الفطرة . غير أنَّ عمل الإله جوهر وعناية ، وعمل القضاء الحتمية في مفاعيل الحركة ، وعمل القدر أن تنمُّ الأمور عن اضطراب وباضطرار - لأنه هو نفسه من الاضطراب - وعمل الطبيعة ولادة ونمو وفساد للنبات والحيوان ، وعمل الحظّ النواذر والمفاجآت ، وإنَّ هذا هو تحديد الحظّ : اتفاق ومصادفة علّتين اثنتين قد وُضعتا لغاية وتمّتا على غير ما كان في الحساب . كذلك الذي يحفر قبراً فيجدُ كنزاً ، فإنَّ واضع الكنز لم يضعه لكي يجده غيره ولا الذي وجد الكنز حفر ليجده ، بل الأول قد وضعه ليسترجعه متى شاء ، والثاني أراد أن يحفر قبراً . واتفق وقوعُ أمر غير ما توخّاه كلاهما . وعمل الفطرة مرصود على الجوامد والحيوانات . هذا هو قولهم . فإلى ماذا إذا نسبُ ما يحدث على يد البشر ، إذا لم يكن الإنسان علّة عمله ومبدؤه ؟ فإنه لا يجوز تسجيلُ الأعمال القبيحة والظالمة على الله ، ولا على القضاء لأنها لا تكون دائماً على حال واحدة ، ولا على القدر - لأنَّ أعمال القدر مفروضة لا معروضة - ، ولا على الطبيعة - لأنَّ أعمالها مختصة بالنبات والحيوان - ، ولا على الحظّ - لأنَّ أعمال البشر ليست نواذر ومفاجآت - ، ولا على الفطرة - لأنهم يقولون إنَّ ميدان الفطرة في الجوامد والحيوانات - . وعليه بقي أنَّ الإنسان ، إذا عمل أو صنع ، فهو مبدأ أعماله الخاصة ، وهو حرٌّ .

وأيضاً ، إذا لم يكن الإنسان ربَّ عمل واحد على الأقلّ ، فتكون المشورة لديه من التوافل . وما الفائدة من المشورة إذا لم يكن ربَّ عملٍ واحد؟ فإنَّ كل مشورة هي لأجل العمل ، والآتي يكون أجملُ ما في الإنسان وأكرمه عرضة لأبشع الاستغراب . وعليه ، إذا كان ثمة مشورة فهي لأجل العمل ، لأن كل مشورة تكون لأجل العمل وبسبب العمل .

في الحوادث

في ما هو باختيارنا. - في ما هو غير لازم. - لنا دائماً حرية الاختيار لا العمل : - إن الحوادث منها ما هو في استطاعتنا ومنها ما هو ليس في استطاعتنا. أمّا ما هو في استطاعتنا فنكون أحراراً أن نعمله وأن لا نعمله. أي كل عمل نعمله طوعاً، لا يقال إننا عملناه طوعاً إذا كان العمل ليس منا. وبعبارة أبسط، إنه يتبع هذه الأعمال مدح أو ذم وإنها أس المشورة والشرعية. وفي الحقيقة إن كل الأمور النفسانية خاضعة لنا ونشاور فيها. والمشورة تكون في الأمور المعروضة علينا على السواء. والأمر المعروض بالسوية هو الذي نستطيعه هو نفسه أو نستطيع عكسه. والذي يحدّد اختيار هذا الأمر بالذات هو عقلنا. وهذا بدء العمل. وعليه إن الأمور التي هي في استطاعتنا هي المعروضة علينا على السواء، مثلاً التحرك وعدم التحرك، مباشرة العمل وعدم مباشرته، محاولة إتيان ما ليس ضرورياً وعدم المحاولة، الكذب وعدم الكذب، العطاء أو عدم العطاء، والفرح حيث يجب الفرح، أو لا، والفرح حيث لا يجب الفرح، وما شاكل ذلك ممّا يكون أساساً لأعمال الفضيلة أو الرذيلة. فإننا في هذه كلها نكون أحراراً. وإنّ الفنون أيضاً من المعروضات علينا على السواء، فإنّه في استطاعتنا أن نمارسها إذا شئنا أو أن لا نمارسها.

واعلم أنّ اختيار الأعمال يكون دائماً في استطاعتنا، غير أنّ إنجازها يمنع مراراً كثيرة، بتحويل من العناية الإلهية.

٩٦٠ - ٩٦١ . الرأس السابع والعشرون . المقالة الحادية والأربعون

في سبب وجودنا أحراراً

المخلوقات متغيرة من طبيعتها . - الحرية تلازم العقل . - لا حرية لدى البهائم : - نقول إذا إن الحرية أننا مع النطق وإن التغيير والتحويل قد حصلنا مع ولادة المواليد ، لأن كل مولود متحول . فإن الذين ابتدأ بدء كيانه انطلاقةً من تحويل ، تحتم عليهم أن يكونوا متحولين . وما التحويل إلا خروج الأشياء من العدم إلى الوجود وإيجاد شيء جديد من مادة موضوعة . فإن الجوامد إذاً والبهائم تتحول بحسب التغييرات الجسمية السابقة الذكر ، أما الناطقون فيتحولون بحسب اختيارهم . والنطق منه النظري ومنه العملي . النظري يعقل الكائنات كما هي عليه ، والعملي يشير ويحدد للأعمال المنطق القويم . ويسمون النظري عقلاً والعملي منطقاً ، والنظري حكمة والعملي بصيرة . وعليه كل من يتبصر - بما أن عليه أن يختار أعماله - إنما يتبصر لكي يختار ما سبق وحكم به في تبصره ، ويعمل بما كان قد اختاره . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الضرورة أن تخضع الحرية للمنطق . فإما أن لا يكون منطق ، وإما إذا كان منطق فهو سيد الأعمال . وهو حر . ومن ثم ليست البهائم حرة لأنها بالأحرى تنقاد للطبيعة ولا تقودها . لذلك تراها لا تقاوم الميل الطبيعي بل حالماتم إلى الشيء تقوم بعمله . أما الإنسان ، فلأنه ناطق ، يقود الطبيعة أكثر مما ينقاد لها . ولذا إذا مال إلى شيء وأراد ، فله المقدرة على أن يقاوم ميله ، أو أن لا ينقاد إليه . ولذا فالبهائم لا تمدح ولا تذم والإنسان يمدح ويذم .

الملائكة أحرار . - وهم متحولون ، لأنهم مخلوقون : - واعلم أن الملائكة - بما أنهم ناطقون - هم أحرار ، وبما أنهم خلقت ، هم متحولون . والشيطان - وقد خلقه البارئ صالحاً - أضحي مخترع الشر هو والقوات القائمة معه - أي الشياطين - . أما باقي المراتب الملائكية فقد ثبتوا في الصلاح .

في ما هو ليس في استطاعتنا

ما ليس في استطاعتنا منوطٌ بالله وحده : - الأمور التي ليست في استطاعتنا ، بعضها له مبادئُه أو أسبابه فينا ، كالمجازاة على أعمالنا في هذا الدهر وفي الآتي ، والباقي كله منوطٌ بالعناية الإلهية ، فإنَّ الجميعَ كيأنهم من الله . وقد دخل الفساد فينا بسبب شرنا ، ذلك مجازاتنا ومنفعتنا ، « إذ ليس الموت من صنع الله ولا هلاك الأحياء يسره » ^(٤٧) . إنما كان الموت بالإنسان - أي بزلّة آدم - وكذلك سائر العقوبات . أمّا ما تبقى كله فيجب أن يُنسب إلى الله ، لأنَّ وجودنا منوط بقدرته الخالقة ، وثباتنا في الوجود بقدرته الحافظة ، وتديبرنا وخلصنا بقدرته المعنوية ، والتمتع الأبدي بخيراته بصلاحه نحو الذين يحفظون ما هو بموجب طبيعتهم ، فإننا لهذا أيضاً قد خلقنا . ولما كان البعض يُنكرون العناية ، فلنقل أخيراً شيئاً في العناية .

في العناية

وعليه إنَّ العناية هي اهتمام الله بالكائنات . والعناية أيضاً هي عطفُ الله الذي به تنال الكائنات كُلُّها ما يلائمُ مسلَّكها . وإذا كانت العناية هي عطف الله ، فمن الضرورة القصوى أنَّ كلَّ ما تجرِّبه العناية يكون بحسب المنطق المستقيم ويكون هو الأحسن والأجدر بالله ، حتى لا يمكن أن يكون أحسن منه . ومن الضرورة أيضاً أن يكون صانع الكائنات هو نفسه المعني بها أيضاً ، لأنه ليس لائقاً ولا منطقيّاً أن يكون واحدٌ خالق الكائنات وآخر المعني بها ، فإنها بذلك يكون كلاهما حتماً في ضعفٍ ، هذا للصنع وذاك للعناية . وعليه إنَّ الله هو الصانع وهو المعني وإنَّ إرادته الصالحة هي قوَّة الصانعة والحافظة والمعنية . فإنَّ « كل ما شاء الربَّ صنعه في السماوات والأرض »^(٤٨) ، ومشيئته لا يقاومها أحد . فقد شاء أن تكون الكائنات فكانت . ويريد استمرار العالم فيستمر . وكلَّ ما يشاؤه يكون .

والبرهان على أنَّ الله يعني وأنه يُحسن الاعتناء ، فلنُعيِّمُ أحدنا النظر في هذا : إنَّ الله وحده بطبيعته صالح وحكيم ، والصالح يعني لأنَّ من لا يعني ليس صالحاً ولأنَّ البشر أيضاً والبهائم يعنون طبعاً بأولادهم والذي لا يعني يُدَمُّ . وبما أنه حكيم فهو يحسن الاهتمام كثيراً بمخلوقاته .

وعليه ينبغي - إذا ما أصغينا إلى هذه الأمور - أن نعجب بأعمال العناية كُلِّها وأن نشيد بها كُلِّها وأن نتقبَّلها حتى ولو بدت لكثيرين جائرة ، لأننا نجعل ولا نفهم عناية الله وهو وحده يعرف أفكارنا وأعمالنا ومستقبلنا . وأعني بذلك كلَّ ما هو ليس في استطاعتنا ، لأنَّ ما هو في استطاعتنا يعود ، لا إلى العناية ، بل إلى حريتنا .

والأمور المنوطة بالعناية يتم بعضها بمسرة الله وبعضها بسماحه . فالتى بعنايته هي ، بلا ريب ، جميع الصالحات . أمَّا التي يسماحه فهي كثيرة الأنواع . فإنَّ الله يسمح مرَّات كثيرة أن تنزل المصائب بالبار ليظهر للآخرين الفضيلة الخفية فيه ، كما حدث لأيوب . ويسمح مرَّات أخرى بإتيان أحد المنكرات حتى ، إذا ما تمَّ العمل الظاهر منكراً ، ينتج عجب ما عظيم كخلاص البشر بالصليب . ويسمح في حالة أخرى بأن يُبتلى البار بمحنة

ردية كيلا يحيد عن ضميره الصالح ولا يسقط في الافتخار الباطل لما أوتي من قوة النعمة ، كما جرى لبولس (٤٩).

لماذا يتخلى الله عن البعض : - قد يصير التخلي عن أحدهم إلى حين لأجل إصلاح غيره ، حتى إذا رآه الآخرون يتأذبون - كما جرى لأليعازر والغني . فإننا طبعاً إذا رأينا البعض يتألمون نرتدع . وقد يصير التخلي عن آخر لأجل مجد غيره ، لا لأنه هو أخطأ أو أبواه ، - كالأعمى منذ مولده - فقد كان ذلك ليمجد ابن الإنسان (٥٠) . وتسمح العناية أيضاً بأن يتألم أحدهم تنشيطاً لغيره ، حتى إذا عظم مجد المتألم ، يكون الألم منشطاً للآخرين في رجاء المجد الآتي وفي الشوق إلى الحياة الأبدية - كما جرى للشهداء . وقد يسمح الله أحياناً بسقوط أحدهم - حتى في فعل قبيح - لينتزع منه رذيلة أخرى أكثر قباحة . مثلاً ، إذا كان شخصٌ يفخر بفضائله وأعماله الصالحة ، قد يتركه الله يسقط في الزنى ، لكي ، بسبب سقطته ، يتوصل إلى الشعور بضعفه ، فيتضع ويقوم فيعترف للرب .

يعود إلينا انتخاب الخير والشر . - وعلى العناية النتيجة الحتمية : - إعلم أنه يعود إلينا إيثار الأعمال . أمّا إنجازها ، فالصالحة منها تعود إلى العون الإلهي ، لأن الله - نظراً لسابق معرفته - ، يُعين إعانةً عادلةً الذين يؤثرون الصلاح بضمير مستقيم . والطالحة تعود إلى التخلي الإلهي ، لأنه تعالى - بسابق معرفته أيضاً - يتخلى عن الأشرار تخلياً عادلاً .

التخلي التدبيري والتخلي الكامل : - والتخلي على نوعين ، فيكون التخلي تدبيرياً وتأديبياً ويكون التخلي كاملاً ويأساً . فإن التدبيري والتأديبي يحصل لأجل إصلاح المتألم ونخلصه وتجيده أو لأجل تنشيط الآخرين والقُدوة الصالحة أو لأجل مجد الله . أمّا التخلي الكامل فيحصل عندما يكون الله قد صنع كل ما يؤول إلى الخلاص وبقى الإنسان ، عن قصد ، بدون تأديب ولا علاج حتى بدون أمل بالشفاء . حينئذٍ يُسلمه الله كيهوداً إلى الهلاك الكامل . حفظنا الله ونجاناً من مثل هذا التخلي .

واعلم أن مظاهر العناية الإلهية كثيرة ، لا يمكن النطقُ تفسيرها ولا العقلُ إدراكها . واعلم أن جميع المصائب الطارئة تقود الذين يتقبلونها بشكرٍ إلى الخلاص وتكون لهم مجلبة لكل منفعة .

واعلم أن الله - سابق تصميمه - « يريد أن الجميع يخلصون ويحفظون بملكوته » (٥١).
فإنه لم يخلقنا للعقاب ، بل للتمتع بصلاحه ، ذلك لأنه صالح . وهو يريد عقاب الخطاة لأنه عادل .

السماح الإلهي على نوعين : - فنقول إذا إن مشيئته الأولى مصممة وهي رضى وهي منه . أما مشيئته الثانية فهي لاحقة وهي تجاوز وهي بسبينا . وهذه على نوعين : تدبيرية وتأديبية ، لأجل الخلاص ، وجزائية ، لأجل عقاب كامل ، كما قلنا . وهذه من الأمور التي ليست في استطاعتنا .

إن الله لا يريد الشر مطلقاً . - لكنه يسمح به : - إن الأمور التي هي في استطاعتنا ، بعضها صالح ويشاؤه الله عن تصميم ورضى ، وبعضها طالح وشر في الحقيقة ولا يشاؤه الله لا سابقاً ولا لاحقاً ، إنما يتركه لحریتنا ، لأن التعقل والفضيلة لا يُغتصبان . ويعتني الله بالخلقة كلها ويحسن إلى الخلقة بأسرها وهو يؤدبها أحياناً كثيرة حتى بواسطة الشياطين كما جرى لأيوب وللخنازير (٥٢) .

في سابق المعرفة والاختيار

+ يسبق الله ويعلم كل شيء ولا يسبق فيحدّد كل شيء : - اعلم أن الله يسبق ويعلم كل شيء وأنه لا يسبق ويحدّد كل شيء . فهو يسبق ويعرف ما هو في استطاعتنا ولكنه لا يسبق ويحدّده ، فهو لا يشاء حدوث الشر ولا يقتسر الفضيلة ، حتى إن سابق التحديد يكون تلبية أمر سبق الله وعرفه . وإنه تعالى يسبق ويحدّد الأمور التي ليست في استطاعتنا . فإن الله ، نظراً لمعرفته السابقة ، يحدّد للحال كل شيء بحسب صلاحه وعدله .

+ زرع الله الفضيلة في طبيعتنا أي هي غريزية وعلى قدر إمكان ممارستها : - واعلم أن الفضيلة قد زُرعت في طبيعتنا من قِبَل الله الذي هو نفسه بدء كل صلاح وعِلته وبدون مساعدته ونجدته لا يمكننا أن نريد الصلاح أو أن نعمله . وأن في استطاعتنا إمّا أن نستمرّ في الفضيلة وأن نتبع الله الذي يدعونا إليها ، وإمّا أن نتحرف عن الفضيلة - وهذا يعني أن نصير في الرذيلة - ونتبع الشيطان الذي يدعونا إليها بدون اغتصاب . وما الرذيلة إلا الابتعاد عن الخير ، كما أن الظلام هو زوال النور . إذاً ، إذا ثبتنا في ما هو بحسب طبيعتنا نكون في الفضيلة ، وإذا حدنا عما هو بحسب طبيعتنا - أي عن الفضيلة - نؤول إلى ما هو ضدّ طبيعتنا ونصير في الرذيلة .

أما التوبة فهي عودة عما هو ضدّ طبيعتنا إلى ما هو بحسب طبيعتنا - عن الشيطان إلى الله - وذلك بالزهد والمتاعب .

وعليه إن الخالق قد أبدع هذا الإنسان ذكراً وأفاض عليه من نعمته الإلهية وضمّه بها إلى شركته . ومن ثمّ قد نصّبه سيّداً ، له أن يمنح الحيوانات أسماءها شأنها شأن عبيده . فإن الإنسان ، لَمَّا كان على صورة الله ، ناطقاً وعاقلاً وحرّاً ، فقد وضع سيّد الكل والملك العام بين يديه السيطرة على الأرضيات .

+ خلقت المرأة لنشر ذرية الإنسان المحكوم عليه بالموت : - وإن الله العارف بسابق علمه أن الإنسان سوف يحصل في المعصية ويسلم إلى الفساد ، قد صنع منه أنثى على مثاله تكون له عوناً ، وبعد المعصية ، تكون له عوناً على قيام الجنس بالولادة خلفاً عن سلف . فإنّ الجبلّة الأولى تسمّى تكويناً لا ولادة ، لأنّ الجبلّة الأولى - وهي من قِبَل الله - تكوين . أمّا تناسل

البعض من البعض ، من جرّاء الحكم بالموت بسبب المعصية ، فهو ولادة .
 + وكان الله قد وضع الإنسان في الفردوس العقلاني والحسي . وكان هذا يعيش على الأرض بحسّه جسدياً ويتعاطى بنفسه مع الملائكة فيستثمر الأفكار الإلهية ويغتذي بها . كان عارياً بالبساطة ولا شغل له في حياته سوى أن يعرف الخالق وحده بمصنوعاته وينعم برؤيته ويتبجح .

+ حالة الإنسان في الفردوس وسقطته : - وعليه لما كان الله قد زين الإنسان طبيعياً بمشيئة حرّة ، فقد وضع له ناموساً الأ يذوق من شجرة المعرفة . وقد قلنا على قدر طاقنا ما يكفي عن هذه الشجرة في الرأس اختصّ بالفردوس . وفيما كان الله يرسم له الوصية ، وعده ، إذا ما حفظ الكرامة لنفسه وانتصر للمنطق وأقرّ بأنه هو المخلوق وحافظ على ما يؤمر به ، أن يشركه في السعادة الخالدة ، فيحيا إلى الأبد وينال الغلبة على الموت . لكنّه إذا أخضع النفس للجسد وأثر الملذّات الجسديّة وتناسى كرامته الخاصّة و« مائل البهائم وتشبه بها » (٥٣) ، خالِعاً نير صانعه ومحتقراً أمر الله فيصبح عرضة للموت والفساد ، فيُلقي للعذاب ويعيش حياة شقيّة . لأنّه لم يكن مفيداً له ولا لثاقباً به أن يحظى بالخلود بدون تجربة ، لئلا يسقط بالكبرياء في حكم إبليس ، فإنّ هذا - بسبب خلوده - قد نال ، بعد سقطته الاختيارية ، الثبات في الشرّ والتصلّب الذي لا يتحوّل . أمّا الملائكة ، فبعكس ذلك ، لأنهم - بعد أن انتخبوا الفضيلة باختيارهم - نالوا بالنعمة رسوخاً في الخير لا يترزعزع .

+ سبب تجربة آدم : - وعليه كان يجب أن يُمتحن الإنسان أولاً ، « لأنّ رجلاً بلا اختبار ولا تهذيب ليس جديراً بالاقتدار » (٥٤) . وهو بالاختبار يكتمل في حفظ الوصية ، وهكذا ينال الخلود جزاء فضيلته . فإنّ الإنسان - وهو وسط بين الله والمادّة - إذا حفظ الوصية وحنج عن ميله الطبيعي إلى الكائنات ، يصبح متحدّاً بالله اتحاداً اعتيادياً ، إذ يكون قد نال رسوخاً في الخير لا يترزعزع . أمّا إذا سقط ، فيميل بالأحرى إلى المادّة ، ويحمّد عقله عن الله علته ، ويؤول إلى الفساد ، ويصير عرضة للألم - بدل عدم التألم - وللموت - بدل الخلود - ويحتاج إلى الزواج والولادة العابرة ، وحبّاً بالحياة يتعلّق بالملذّات على أنّها قوامها ، ويُغض بسهولة من يحاولون أن يصدّوه عنها ، وينتقل بميله من الله إلى المادّة ، وبنفوره من

عدو خلاصه بالحقيقة إلى بني جنسه. وعليه إنَّ الإنسان قد انقلب لحسد إبليس ، لأنَّ
الشیطان الحسود والمآقت الخیر لم یعد یحتمل بکبریائه أن یكون هو فی الأسفل وأن نخطی نحن
بالعلی . ولذلک فإنَّ هذا الکذوب قد أغرى الإنسان المسکین بأمل التآله ، رافعاً إیّاه إلى علو
کبریائه الخاصّ ، لیلقي به فی ما یشبه غورَ سقطته .

الكتاب الثالث:

سِرُّ النَّدْبِيرِ الْإِلَهِيِّ



إيقونة البشارة (القرن ١٥)

في تدبير الله تعالى وفي اهتمامه بنا وبخلاصنا

+ نتائج معصية وصية الله في الفردوس : - وعليه ، فقد رأينا كيف أن إبليس - بمكيدته هذه - قد جعل الإنسان ينخدع ويخالف وصية الله جليله ويتعزى من النعمة ويفقد دأله لدى الله ويستتر بخشونة المعيشة الشاقة - هذا هو مدلول ورق التين^(١) - ويشعشع بالإماتة - أي الميتوة - وكثافة الجسد - وهذا هو ليس الجلود - ويصبح بحكم الله العادل منقياً من الفردوس ، ويلبث محكوماً عليه بالموت ومستهدفاً للفساد.

+ مبادرة الله باستدعاء الانسان إلى التوبة : - بيد أن المتحتن - الذي أعطاه الوجود ومنحه حسن الوجود ، - لم يهمله ، بل أدبه أولاً بتأديبات شتى فاستدعاه إلى العودة بالإنذار والتخويف ، وبطوفان الماء وبإبادة الجنس البشري عموماً ما عدا القليل منهم^(٢) وببليلة الألسن وتشتيها^(٣) وبزيارة الملائكة لإبراهيم^(٤) وبحريق المدن^(٥) وبظهورات رمزية ، بحروب ، بالانتصارات ، بانكسارات ، بآيات وعجائب وقوى مختلفة ، بالشرعية والأنبياء . وكان المقصود من هذه كلها إزالة الخطيئة المتغلغلة بطرق شتى - وكانت قد استعبدت الإنسان ونقصت حياته بكل أنواع الشرور - ثم إعادة الإنسان إلى حسن الوجود . ولما كان الموت قد دخل إلى العالم بالخطيئة دخولاً بهيماً وحشية شرسة مفسدة للحياة البشرية ، فقد وجب على من يقتدي به أن يكون مترهاً عن الخطيئة وغير محكوم عليه بالموت من جراء الخطيئة بل عليه أيضاً أن يعضد طبيعته ويحددها ، وأن يهذبها بعمله ويعلمنا طريق الفضيلة التي تبعدها عن الفساد وتسدّد خطواتنا نحو الحياة الأبدية . وأخيراً عليه أن يظهر لنا في ذاته عظمة لجة محبة للبشر . ومن ثم فإن الرب البارئ نفسه قد اتخذ على عاتقه الدفاع عن جبلته الخاصة ، فصار بعمله معلماً . فإن العدو لما كان قد خدع الإنسان بأمل التأله ، فقد اتخذ هو بظهور جسد واثّض للحال صلاح الله وحكمته وعدله واقتداره : فقد ظهر صلاحه تعالى بأنه لم يحتقر ضعف جبلته الخاصة ، بل انعطف عليها في سقطتها ومدّها يده . وقد ظهر عدله بأن الإنسان لما كان مغلوباً لم يترك الله لغيره أن يقهر الطاغى ولا انتشل

(١) تكوين ٣: ٧ (٢) تكوين ٦: ١٣ (٣) تكوين ١١: ٧ (٤) تكوين ١٨: ١٠ الخ

(٥) تكوين ١٩: ١٠ الخ

الإنسان من الموت بالقوة ، بل إن الصالح والعاقل قد جعل أن ذاك نفسه الذي كان الموت قد تمّ قد استعبده بالخطايا يعود اليوم من جديد فينتصر ، فخلّص البشير بمثله . وقد كان الأمر مستعصياً ، وكان من شأن الحكمة أن تجد حلاً لائقاً جداً للأمور المستعصية .

إعلان التدبير الإلهي بشأننا : - فإن الله الآب قد ارتضى ، والابن الوحيد الجنس ، كلمة الله والإله الكائن في حضن الله الآب ^(٦) ، المساوي للآب والروح القدس في الأزلية وعدم الابتداء والكائن في البدء والكائن عند الله الآب - وهو الله وهو في صورة الله ^(٧) - قد نزل مطأطئاً السماوات ، أي إن الذي لا ينخفض قد خفّض علاه بلا انخفاض وانحدر إلى مستوى عبيده انحذاراً يعجز البيان والإدراك . - وهذا ما تعنيه كلمة نزول . - ولما كان إلهاً كاملاً ، فقد صار إنساناً كاملاً وتمّ الأحدث من كلّ الحوادث ، بل الحدث الفريد تحت الشمس الذي تظهر به قوة الله التي لا حدّها . فما هو أعظم من أن يصير الله إنساناً؟ وصار الكلمة جسداً بدون استحالة ، ذلك من الروح القدس ومريم القديسة الدائمة البتولية والدة الإله . والذي هو وحده محب للبشر قد أضحى وسيطاً بين الله والبشر ، وقد حبّل به في أحشاء البتول الطاهرة ليس من مشيئة رجل ولا من شهوته ولا من علاقته ، ولم يكن ذلك من ولادة مع لذة ، بل من الروح القدس وأول تكوين آدم . وبما أنه ممّا فقد صار مطيعاً لأبيه ، وبما أنه على مثالنا فقد صار شافياً معصيتنا ، وصار لنا مثلاً لا نخطئ على الخلاص بدونه .

(٧) فيليبي ٢: ٦

(٦) راجع يوحنا ١: ١٨

في كيفية الحبل بالكلمة وفي التجسد الإلهي

البشارة: - وملاك الرب قد أرسل إلى العذراء القديسة المنحدرة من قبيلة داود^(٨)، - «لأنه من الواضح أن ربنا خرج من يهوذا، من السبط الذي لم يتقدم منه أحد قط إلى المذبح»^(٩). وستتكلّم عن هذا في ما بعد بأكثر تدقيق - وقال الملاك في تبشيره: «سلام يا ممتلئة نعمة الرب معك»^(١٠). أمّا هي فاضطربت لكلامه، وقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريم فقد وجدت نعمة لدى الرب، وتلدن ابناً وتسمينه يسوع»^(١١). «وهذا يخلص شعبه من خطاياهم»^(١٢). - ومن هنا فإن كلمة يسوع تعني المخلص. - أمّا هي فكانت متحيرة: «كيف يكون لي هذا وأنا لا أعرف رجلاً؟»^(١٣). فقال لها الملاك ثانية: «إن الروح القدس يحلّ عليك وقوة العليّ تظللّك. لذا فالمولود منك قدّوس ويدعى ابن الله»^(١٤). فقالت له: «ها أنا أمة الرب، فليكن لي بحسب قولك»^(١٥).

تمّ التجسد الإلهي على أثر التبشير. - كيفية: - إذاً بعد أن قبلت العذراء القديسة، حلّ الروح القدس عليها، على حسب كلام الرب الذي قاله الملاك. فطهرها ومنحها أيضاً قوة استيعاب لاهوت الكلمة مع ولادته. وللحال، ظلّلتها حكمة الله العليّ وقوته، ابن الله المساوي للآب في الجوهر بمثابة زرع إلهي، فاستخلص لذاته من دمائها النقيّة الجزيلة الطهارة جسداً حياً، نفسه ناطقة وعاقلة، هو بكر عجنّتنا، ليس مزروعاً بل معمولاً بفعل الروح القدس، ليس منجزاً شكله بنمو بطنيّ، بل تمّ دفعة واحدة، لأن كلمة الله نفسه قد أضحى أقنوماً لجسده. فإن الكلمة الإلهي لم يتحدّ بجسم له أقنومه قائم في ذاته، بل إنه - لمّا حلّ في أحشاء العذراء القديسة وهو غير محصور في أقنومه، - قد أقام له جسداً حياً ذا نفس ناطقة وعاقلة، وذلك من أنقى دمائه الدائمة البتولية. فأتخذ باكورة العجينة البشرية وصار الكلمة نفسه أقنوماً للجسد، حتى إنّ هذا الجسد كان معاً جسداً ابن الله وجسداً ذا نفس ناطقة وعاقلة. لذا لسنّا نقول بإنسانٍ بتأله، بل بإله يتجسد. فإن الذي كان بالطبيعة إلهاً كاملاً، قد صار هو نفسه بالطبيعة (البشرية) إنساناً كاملاً، ولم يُغيّر طبيعته ولم يتظاهر

(٨) لوقا ١: ٢٦ (٩) راجع عبرا ١٤: ١٣ (١٠) لوقا ١: ٢٨ (١١) لوقا ١: ٣٠ - ٣١
(١٢) متى ١: ٢١ (١٣) لوقا ١: ٣٤ (١٤) لوقا ١: ٣٥ (١٥) لوقا ١: ٣٨

بالتدبير ، بل إنه - في الحبل به من البتول القديسة بجسد ذي نفس ناطقة وعاقلة حاصل
 على وجوده في ذاته - قد اتحد بأقنومه اتحاداً لا اختلاط فيه ولا تغيير ولا تقسيم ، دون أن
يحوّل طبيعة لاهوته إلى جوهر جسده ولا جوهر جسده إلى طبيعة لاهوته ودون أن يؤلف
طبيعة واحدة مركبة من طبيعته الإلهية وطبيعته البشرية المتخذة .

في الطبيعتين ، ضد ذوي الطبيعة الواحدة

وإن الطبيعتين قد اتحدتا إحداها بالأخرى بدون تحويل ولا تغيير ، فلا الطبيعة الإلهية ترحلت عن بساطتها الخاصة ولا الطبيعة البشرية قد تحولت إلى طبيعة اللاهوت أو زالت من الوجود أو أصبح كلاهما طبيعة واحدة مركبة ، فإن الطبيعة المركبة لا يمكنها أن تكون مساوية في الجوهر لأي من الطبيعتين اللتين تركبت منها ، لأن اتحاد طبيعتين مختلفتين يأتي بطبيعة تختلف عن كل منهما ، مثلها مثل الجسم المركب من العناصر الأربعة ، فهو لا يقال فيه إنه مساوٍ للنار في الجوهر ولا يسمى ناراً ، ولا يقال فيه إنه هواء ولا ماء ولا تراب ، ولا إنه مساوٍ لأي منها في الجوهر . وعليه إذا سلمنا مع الهرطقة أن المسيح - بعد الاتحاد - قد صارت له طبيعة واحدة مركبة ، فتكون طبيعته البسيطة قد تحولت إلى طبيعة مركبة ولا يظل مساوياً للآب في طبيعته البسيطة ، ولا لأمه التي ليست مركبة من لاهوت وناسوت . ومن ثم لا يكون في اللاهوت ولا في الناسوت ، ولا يسمى إلهاً ولا إنساناً ، بل المسيح لا غير ، وتكون كلمة مسيح ، لا اسم الأقنوم بل اسم الطبيعة الواحدة كما يزعمون .

تعلم الكنيسة : - أما نحن فنعلم أن المسيح طبيعته مركبة ، لا على أن شيئاً آخر يصدر من شيئين آخرين كما الإنسان من نفس وجسد أو كما الجسم من العناصر الأربعة ، بل أن الصدور من شيئين آخرين والأمور على ما هي عليه . ونعترف بوجود إله كامل من اللاهوت والناسوت يقال له هو نفسه إنه من طبيعتين وفي طبيعتين . واسم المسيح الذي نلحقه بالأقنوم ليس مقولاً عنه بصفته الفردية ، بل على أنه يعني الطبيعتين . لأنه هو نفسه قد مسح ذاته ، ذلك أنه - بصفته إلهاً - قد مسح جسده بلاهوته وأصبح ممسوحاً بصفته إنساناً ، فهو نفسه إذاً هذا وذاك . ولو كان المسيح ذا طبيعة مركبة واحدة ، لكان مساوياً للآب في الجوهر ، ولكان الآب إذاً مركباً أيضاً ومساوياً للجسد بالجوهر . وهذا مستحيل ومليء بكل كفر !

وكيف تكون الطبيعة الواحدة أيضاً قابلة اختلافاً جوهرية متناقضة ؟ فكيف يمكن الطبيعة الواحدة نفسها أن تكون ، في الوقت نفسه ، مخلوقة وغير مخلوقة ، مائتة وغير مائتة ، محصورة وغير محصورة ؟

وإذا قال القائلون بطبيعة واحدة في المسيح بأنها بسيطة ، فهم إما يعترفون بأنه إله وحسب - وبذلك يشطبون بمخيلتهم فينكرون الثانس - وإما يقولون بأنه إنسان لا غير كما

الكتاب الثالث

يزعم نسطوريوس ، وحينئذٍ أين يتحقق القول بأنه كامل في لاهوته وكامل في ناسوته؟ ومتى يا ترى يقولون إن في المسيح طبيعتين اثنتين إذا قالوا الآن - بعد الاتحاد - بطبيعة مركبة واحدة؟ لأنه واضح جداً أنه كان للمسيح طبيعة واحدة قبل الاتحاد.

ولكن الذي جعل الهراطقة يضلّون هو اعتقادهم بأن الطبيعة هي الأقنوم نفسه. ولما نقول بطبيعة واحدة في البشر ، علينا أن نعرف أننا إنما نقول هذا القول بدون التفات في كلامنا إلى النفس والجسد. لأنه لا يمكن أن نقول في مقابلة النفس بالجسد إنها من طبيعة واحدة. ولكن لما يكون لدينا كثرة من الناس وكلهم تنطبق عليهم كلمة الطبيعة نفسها - لأنهم كلهم مركّبون من نفس وجسد وكلهم ينعمون بطبيعة النفس وقد حصلوا على جوهر الجسد - فنقول بأنهم من نوع مشترك في طبيعة واحدة مؤلفة من أشخاص كثيرين ومختلفين. وواضح إذاً أن لكل شخص طبيعتين وأنه يكتمل في طبيعتين ، نفس وجسد.

كيفية اتحاد الطبيعتين في المسيح : - وإن كلمة نوع مشترك لا يمكن استعمالها في التعبير عن ربنا يسوع المسيح ، لأنه لم يكن قط ولا يكون ولا سوف يكون مسيح آخر من لاهوت وناسوت ، هو نفسه إله كامل وإنسان كامل في لاهوت وناسوت. ولا سبيل للكلام عن طبيعة واحدة في ربنا يسوع المسيح ، بمعنى أنه كما الفرد من نفس وجسد كذلك يكون المسيح من لاهوت وناسوت. وإذا كان هناك فرد ، فالمسيح ليس فرداً وهو لا يُصنّف في نوع من مسحاء. لذا فإننا نقول بأن الاتحاد صائر من طبيعتين كاملتين ، إلهية وإنسانية ، ليس بشكل انعجان أو اختلاط أو امتزاج كما يقول ديوسكوروس وأوطيخا وساويرس ومن سار سبرهم ، ولا بالفة شخصية أو ودية أو على سبيل الرتبة أو وحدة الرأي أو وحدة الكرامة أو وحدة الاسم أو وحدة الرضى كما يقول نسطوريوس وديودورس وثاودورس المفصوصطي وجماعته ، ولكننا نعرّف بتركيب هو - في ما يخص الأقنوم - بلا تحويل ولا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال ، في طبيعتين حاصلتين على كمالها في أقنوم هو أقنوم ابن الله المتجسد ، قائلين بأن هذا هو أقنوم لاهوته وناسوته ومعترفين بأن الطبيعتين تظلّان سالمين فيه بعد الاتحاد ، دون افراد كل منهما بميزتها ، بل متحدتين إحداهما مع الأخرى في الأقنوم الواحد المركّب. فنقول باتحاد جوهرى - أي حقيقى لا خيالى - وجوهرى ، لا بحيث تحصل طبيعة واحدة مركبة من طبيعتين ، بل بحيث تتحد الطبيعتان الواحدة بالأخرى في أقنوم واحد مركّب هو أقنوم ابن الله ، ونحدّد بأنهما تحتفظان بتيابنهما الجوهرى. فالخلق منها لا يزال مخلوقاً ، وغير المخلوق ، غير مخلوق. والمائت يبقى مائتاً والخالد ، خالداً. والمحصور ،

محصوراً. وغير المحصور، غير محصور. والمنظور، منظوراً. وغير المنظور، غير منظور. و«أحدهما يتألاً بالعجائب والثاني يهوي تحت الإهانات» (البابا لاون الكبير، رسالة ٢٨، رأس ١٤، عدد ٢٩ وما يليه).

تبادل الاختصاصات في المسيح الإله والإنسان: - ويختص الكلمة لذاته بشؤون ناسوته - لأن ما لجسده المقدس هو له - ويمتج جسده من خواصه على سبيل التبادل، بسبب اتصال الطرفين أحدهما بالآخر واتحادهما في أقنومه، و«لأنه كان واحداً وهو هو نفسه فاعل الإلهيات والبشريات على هذا الشكل أو ذاك مع اشتراكه بالآخر» (البابا لاون، المرجع نفسه، عدد ٢٧). لذلك نقول: إن رب المجد قد صلب^(١٦)، مع أن طبيعته الإلهية لم تتألم. ونعترف أن ابن البشر كان في السماء قبل آلامه، كما قال الرب نفسه^(١٧)، فإن رب المجد هذا كان هو نفسه ابن البشر أيضاً، بالطبيعة والحقيقة، لأنه صار إنساناً. ونعرف له العجائب والآلام، ولو كان هو نفسه يجترع العجائب بطريقة، ويحمل الآلام بطريقة أخرى. ونفهم ذلك بأن وحدة أقنومه تحفظ تباين الطبيعتين الجوهرية سالماً. وكيف يسلم التباين يا ترى إذا لم تسلم صاحبتا التباين؟ لأن التباين تباين بين متباينين. فنقول إذاً إن السبب الذي لأجله تباين طبيعتا المسيح إحداهما عن الأخرى - وهو سبب جوهره - يرتبط بالآفاصي. فبالنسبة إلى لاهوته يرتبط بالآب والروح، وبالنسبة إلى ناسوته يرتبط بأمه وسائر البشر. ولهذا السبب عينه الذي لأجله ترتبط طبيعته، نقول بأنه في تباين مع الآب والروح وأمّه وسائر البشر. فطبيعته ترتبطان بأقنومه - لأن لهما أقنوم واحد مركب - يكون به في تباين مع الآب والروح القدس وأمّه ومعنا نحن.

(١٧) راجع يوحنا ١٣: ٣

(١٦) ١ كور ٨: ٢

في كيفية تبادل العطاء أو المقايضة

الأسماء العامة والخاصة : - لقد سبق وقلنا مرّات عديدة إن الجوهر غير الأقنوم ، وإن الجوهر يُشير إلى النوع المشترك والعام في الأقانيم المتساويي النوعية ، مثلاً : إله ، إنسان . أمّا الأقنوم فيدلّ على الفرد . كالآب ، والابن ، والروح القدس ، بطرس ، بولس . ومن ثمّ اعلم أن كلمة لاهوت وناسوت مخصصة للجواهر والطبائع . أمّا كلمة إله وإنسان - مع استعمالها للدلالة على الطبيعة ، كما لو قلنا : إن الله جوهر لا يُدرك وإن الله واحد - فستعمل أيضاً للدلالة على الأقانيم كما في باب تخصيص الاسم العام . وقد جاء في الكتاب : « لأجل ذلك مسحك الله الهك »^(١٨) . - إن في هذا دلالة على الآب والابن . - ويقول الكتاب أيضاً : « وكان رجل في أرض عوص »^(١٩) . وبذلك دلالة على أيّوب وحده .

استعمالها في الكلام عن المسيح : - وعليه ، لمّا كنّا نعرف في ربّنا يسوع المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً مركّباً من كليتهما ، فإنّنا عندما ننظر إلى الطبيعتين نقول بلاهوت وناسوت ، وعندما ننظر إلى الأقنوم المركّب من الطبيعتين نسميه المسيح - الذي هو منهما كليهما - ونسميه إلهاً وإنساناً معاً ، وإلهاً متجسّداً . وأحياناً نكتفي بتسمية الكلّ باسم البعض ، فنسميه إلهاً فقط وابن الله وإنساناً فقط وابن الإنسان ، متّخذين اسمه تارةً من جزئه الأسمى فقط ، وتارةً من جزئه الأدنى فقط . وبما أن ذلك وهذا في تساوي ، فهما واحد ، الأول كائن دوماً من الآب بدون علّة ، والثاني صائر حبّاً بالبشر .

لا محلّ للمقايضة في ما يتعلّق بالطبيعتين ، بل في ما يتعلّق بالأقنوم : - إذاً عندما نتكلّم عن اللاهوت لا نعني خواصّ الناسوت نفسه ولا نقول بلاهوت متألّم أو مخلوق . وعندما نتحدّث عن الجسد أو الناسوت لا نعني خواصّ اللاهوت ولا نقول بأنّ الجسد أو الناسوت غير مخلوق . أمّا إذا تكلمنا عن الأقنوم - إذا عنيناه بكلا الطبيعتين معاً أو عنيناه بإحدهما - فإنّنا ننسب إليه خواصّ الطبيعتين كليتهما ، لأنّ المسيح الذي هو كلاهما معاً يُقال له إلهاً وإنساناً ، ومخلوقاً وغير مخلوق ، ومتألّم وغير متألّم . وعندما يدعى ابن الله والله - من باب

(١٩) أيّوب ١: ١

(١٨) مز ٤٤: ٨

تسمية الكل باسم البعض - يتخذ خواص الطبيعة الموجودة معه أي طبيعة الجسد ، فيسمى رب المجد المصلوب - ليس من حيث هو إله بل من حيث هو نفسه إنسان - . وعندما يدعى إنساناً وابن الإنسان يتخذ خواص الطبيعة الإلهية ومفاخرها : طفلاً قبل الدهور ، إنساناً لا بدء له - ليس من حيث هو طفل وإنسان بل من حيث هو إله قبل الدهور ، وقد صار إنساناً في آخر الأزمان . وطريقة المقايضة هي هذه : كل طبيعة تقايض الأخرى خواصها ، بسبب وحدة هوية الأقسام ونفوذ كل طبيعة منها في الأخرى . لذلك يمكننا القول عن المسيح : « هذا هو إلهنا ... تراءى على الأرض وتردد بين البشر »^(٢٠) . وهذا الإنسان غير مخلوق فلا يتألم ولا يُحصر .

في عدد الطباع

عدد الأرقام في الله : - وعلى نحو ما نعرف بطبيعة واحدة وثلاثة أرقام في اللاهوت ، قائلين بحقيقة وجودهم وببساطة كل ما يتعلق بالطبيعة والجوهر ، فإننا نفرّ بنبأين الأرقام في خواصهم الثلاث وحدها ، في عدم العلة والأبوة ، وفي العلة والبنوة ، وفي العلة والانثاق . وثبت أنهم لا يخرج واحد منهم عن الآخرين ولا ينفصل ، بل يظلون متحدين بعضهم مع بعض ونافذين بعضهم في بعض بلا اختلاط ومتحدين بلا امتزاج . فهم ثلاثة ولو متحدين ومتميزون بدون انفصال ، لأن كل واحد منهم ولو كان قائماً بذاته - أي له أقنومه الكامل وله امتيازه الخاص أي حاصل على طريقة وجوده المتباينة - غير أنهم متحدون في الجوهر وفي الخواص الطبيعية ، وفي أنهم لا ينفصلون ، وفي عدم الخروج عن الأقنوم الأبوي ، وفي أنهم واحد ويعرفون بوحدتهم .

عدد الطباع في المسيح : - على هذا النحو ، وبموجب التدبير الإلهي المعجز البيان الذي يفوق كل عقل وإدراك ، نحن نعرف لأحد الثالث ، كلمة الله ، ربنا يسوع المسيح بطبعيتين اثنتين ، إلهية وإنسانية ، مقترنتين الواحدة بالأخرى ومتحدتين في الأقنوم ، وأنه وحده يؤلف من الطبعيتين أقنوماً متكاملًا مركبًا . ونقول بسلامة الطبعيتين حتى بعد الاتحاد في أقنوم واحد مركب - أي في المسيح الواحد - ، وإنهما موجودتان بالحقيقة مع خواصها الطبيعية ، رغم اتحادهما بلا اختلاط وتميزهما بلا انفصال وتعدادهما .

اتحاد الأرقام والطباع لا يُزيل عددها : - وعلى نحو ما يتحد أرقام الثالث الأقدس بلا اختلاط ، ويتميزون بلا انفصال ، ويعدون - ليس من شأن العدد أن يجري فيهم انقسامًا أو انفصالًا أو تغييرًا أو قطعًا ، لأننا نعرف لهاً واحداً ، الآب والابن والروح القدس - ، فعلى النحو نفسه تكون طبيعتا المسيح . فإذا اتحدتا فهما متحدتان بلا اختلاط ، وإذا نُفِذَتْ إحداهما في الأخرى فلا يترتب على ذلك تحويل أو تغيير في كليهما ، لأن كلاهما تحتفظ بخواصها سالمة من التغيير . لذلك فهما تُعدّان أيضاً . والعدد لا يدخل عليها انفصالاً ، فإن المسيح واحد وكامل في لاهوته وناسوته . والعدد لا يكون سبب انفصال أو اتحاد ، بل إشارة إلى كمية العدودات ، أجموعة كانت أم متفرقة . فهي تكون مجموعة إذا قلنا مثلاً إن في هذا الحائط خمسون حجراً ، وتكون متفرقة إذا قلنا : في هذا السهل خمسون حجراً مطروحاً .

وتكون أيضاً مجموعة إذا قلنا: إن في الجمرة طبيعتين: النار والخشب وتكون متفرقة إذا قلنا: إن طبيعة النار غير طبيعة الخشب. ولهذا الجمع والتفريق طرق شتى لا دخل فيها للعدد.

إذاً على نحو ما أنه لا يمكن القول بأن أقانم اللاهوت الثلاثة - ولو كانوا متحدين بعضهم في بعض - هم أقنوم واحد، ذلك لثلاث نجعل اختلاطاً وبلبالاً في تباين الأقانيم، كذلك قل أيضاً عن طبيعتي المسيح المتحدتين في الأقنوم، لأنه لا يمكن القول بأنهما طبيعة واحدة، لثلاث نجعل تباينها يؤول إلى البلبال والاختلاط والعدم.

في أن الطبيعة الإلهية كلها ، في أحد أقانيمها ، اتحدت بالطبيعة البشرية كلها

وليس جزء منها بجزء

الجوهر والطبيعة كلاهما بكاملهما في الأقانيم : - إن المشترك والشامل يعمّ الجزئيات الخاضعة له . ومن ثم فإنّ الجوهر شيء مشترك لكونه نوعاً ، أمّا الأقوم فهو جزئي . وهو جزئي لا لأنّه جزء من الطبيعة ، بل لأنّه جزء بالعدّ وهو فرد فيقال إنّ الأقانيم متباينة بعددها لا بطبيعتها . ويشتمل الجوهر على الأقوم لأنّ الجوهر كامل في كلّ من الأقانيم المتساوين في النوع . لذلك فالأشخاص لا يتباين بعضهم عن بعض في جوهرهم ، بل في أعراضهم التي هي ميزاتهم الخاصّة ، ميزات الشخص لا الطبيعة . وتحديد الشخص جوهر مع أعراضه . حتى أنّ للشخص ما هو عام مع ما يخصّه وآتة يوجد في ذاته . أمّا الجوهر فهو لا يقوم بذاته بل يشاهد في الأشخاص . إذاً إذا تألم أحد الأشخاص يكون الجوهر كلّ متألماً . وإنّ ذلك الذي يكون متألماً يقال له متألماً في أحد أشخاصه . ولكن ليس ضرورياً من ثمّ أن يتألّم أيضاً جميع الأشخاص المساوين في النوعيّة للشخص المتألّم .

في المسيح يتحد اللاهوت كلّ في الناسوت كلّ . والطبيعة البشريّة المتخذة هي على مثال تلك المجبولة أولاً : - وعليه نعرف بأنّ طبيعة اللاهوت موجودة كلّها بكاملها في كلّ من أقانيمه ، كلّها في الآب وكلّها في الابن وكلّها في الروح القدس . لذلك فإنّ الآب إله كامل والابن إله كامل والروح القدس إله كامل . وهكذا نقول أيضاً إنّ في تأنس أحد الثالوث الأقدس كلمة الله ، تتحد كل طبيعة اللاهوت الكاملة في أحد أقانيمها بكلّ الطبيعة البشريّة . وليس جزء بجزء . ويقول الرسول الإلهي : « فيه يخلّ كل ملء اللاهوت جسدياً »^(٢١) أي في جسده . ويقول ديونيسيوس تلميذه اللابس الله والجزيل المعرفة بالإنبياء : « لقد شاركنا مشاركة كليّة في أحد أقانيمه » . وليس من ضرورة إلى القول بأنّ جميع الأقانيم - أي الثلاثة - قد اتحدوا بجميع أشخاص البشريّة بحسب الأقوم ، أمّا الآب والروح القدس فلم يشتركا بأيّ معنى كان في تجسّد كلمة الله سوى بمسرتها ورضاهما . ونقول إنّ جوهر اللاهوت كلّ قد اتحد بطبيعة الناسوت كلّها ، ولم يستثن الله الكلمة

شيئاً مما غرسه في طبيعتنا لما جلبنا في البدء ، بل اتخذ الكلّ : جسداً ونفساً عاقلةً وناطقةً وكلّ ميزاتهما . فان في انتقاص أحدهما حصولاً على حيوان لا إنسان . فإن كله قد اتخذني كليّ ، وكله قد اتحد بي كليّ ، كي يُنعم بالخلاص على الكلّ ، لأن لا شفاء لما لم يتّخذ .
للعقل الرئاسة في الإنسان : - إذاً لقد اتحد كلمة الله بجسد ، بواسطة العقل الذي هو وسط بين صفاء الله وكثافة الجسد . لأنّ للعقل قيادة النفس والجسد . وصفوة النفس العقل وصفوة العقل الله . وعندما يخضع عقل المسيح للأفضل يعلن بذلك رئاسته الخاصة ، فيغلب للأفضل ويتبعه ويعمل بما تريده المشيئة الإلهية .

وقد صار عقله ، في أقنومه ، محلّ اتحاد لاهوته به . ومن الواضح أنّ جسده أيضاً كذلك . ولم تصر مساكنة ، كما يفضل تفكير المراطقة الحنيث بقوهم : إنّ المدّ لا يتسع لمدّين ، معبرين بذلك تعبيراً جسدياً عما هو منزّه عن المادة . ومن ثمّ كيف يُقال بأنّ المسيح إله كامل وإنسان كامل ، وانه مساوٍ للآب ولنا في الجوهر ، اذا اتحد فيه جزء من طبيعته الإلهية بجزء من طبيعته البشرية ؟

الطبيعة البشرية في المسيح خاصة ، لا عامة : - ونقول إنّ طبيعتنا قد أُقيمت من بين الأموات وأصعدت وجلست عن يمين الآب ، لا من حيث إنّ جميع البشر قد جلسوا عن يمين الآب ، بل من حيث إنّ كلّ طبيعتنا قد جلست في أقنوم المسيح . ويقول الرسول الإلهي : « وأقامنا معه وأجلسنا معه في المسيح » (٢٢) .

كيف لم تتألم طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسّدة : - ونقول هذا : إنّ الاتحاد قد صار من جوهرين عامين . فإنّ كل جوهر يكون عامّاً للأشخاص الذين يشملهم . ولا يمكن إيجاد طبيعة أو جوهر جزئيّ وخاصّ ، لئلا نضطرّ إلى القول بأنّ الأشخاص أنفسهم متساوون وغير متساوين معاً في الجوهر ، وإلى القول أيضاً بأنّ الثالوث الأقدس - بالنسبة إلى لاهوته - متساو وغير متساو في الجوهر . لذلك نشاهد الطبيعة نفسها في كل أشخاصها . وعندما نقول مع أثاناسيوس وكيرلس المغيوطيّين إنّ طبيعة الكلمة تجسّدت ، نعي أن اللاهوت يتحد بجسد . لذلك لا نستطيع القول بأنّ طبيعة الكلمة تألمت . فإنّ اللاهوت فيه لا يتألم . ولكن نقول بأنّ المسيح قد تألم في الطبيعة البشرية ، حتى عندما نلفظ طبيعة الكلمة نعي الكلمة نفسه . والكلمة حاصل على ما هو عام في الجوهر وعلى ما هو خاص في الأقنوم .

في أقنوم كلمة الله الواحد المركب

أقنوم الكلمة قبل التجسد وبعده: - نقول بأن أقنوم كلمة الله الإلهي متقدم على الزمن والأزل. وهو بسيط وغير مركب وغير مخلوق ولا جسده ولا يرى ولا يُمس ولا يحصر. له كل ما للآب - بما أنه مساو له في الجوهر - ومتباين عن الأقنوم الأبوي بطريقة الوجود والانتساب. هو كامل الوجود ولا ينفصل البتة عن الأقنوم الأبوي. وإن الكلمة هذا، في آخر الأيام، - بدون أن يبارح الأحضان الأبوية -، قد حلّ حلولاً غير محصور في أحشاء البتول القديسة، بدون زرع وبطريقة لا تُدرَك، كما شاء هو، واصطنع فيها بذاته لأقنومه الأزلي جسداً من البتول القديسة.

أقنوم الكلمة البسيط أضحي بالتجسد مركباً: - كان إذاً في الكلّ وفوق الكلّ. ولما صار في أحشاء أمّ الله القديسة، بل فيها، بفعل تجسده، حينئذ تجسد منها فاتخذ باكورة عجنتنا جسداً حياً بنفس ناطقة وعاقلة، حتى أنّ هذه الباكورة تحظى بأقنوم للجسد هو أقنوم كلمة الله الذي كان أولاً بسيطاً - لكونه أقنوم الكلمة - وقد صار مركباً من طبيعتين كاملتين لاهوت وناسوت. ويحمل إليها السمة الخاصة المميزة، سمة بَنُوَّة الله الكلمة التي يتميز فيها عن الآب والروح، وسمات الجسد الخاصة والمميزة التي يختلف فيها عن أمّه وسائر البشر، ويحمل أيضاً خصائص الطبيعة الإلهية التي يتحد فيها بالآب والروح وميزات الطبيعة البشرية التي يتحد فيها بأمّه وبنا. وأيضاً هو يختلف عن الآب والروح وعن أمّه وعنّا لكونه هو نفسه إله وإنسان معاً. ونحن نعرف هذا الاختصاص الخاص جداً في أقنوم المسيح.

ولادة المسيح من أمّه لأجلنا تفوقنا: - وعليه نعرف بالمسيح وحده أنه ابن الله بعد التأنس أيضاً وأنه هو نفسه ابن الإنسان، مسيحٌ واحد وربٌّ واحد، وحده الابن الوحيد وكلمة الله يسوع ربّنا، مكرّمين ولادته المزدوجة: الأولى، من الآب قبل الدهور وفوق العلة والنطق والزمن والطبيعة. والأخرى، في آخر الأيام، لأجلنا وعلى مثالنا وبما يفوقنا. فهي لأجلنا، لأنها صارت لأجل خلاصنا. وهي على مثالنا، لأنّ إنساناً وُلد من امرأة وبمقتضى زمن الحمل. وهي بما يفوقنا، لأنّ الولادة ليست من زرع، بل من الروح القدس ومن مريم البتول القديسة بما يفوق شريعة الحمل. فلما إذا نبشّر بإله وحسب، مجرد

عن الناسوت الذي فينا ، ولا بإنسان وحسب ، نازعين عنه لاهوته ، ولا بكذا وكذا غير ذلك ، بل بواحد هو هو نفسه إله وإنسان معاً ، إله كامل وإنسان كامل ، كله إله وكله إنسان ، وهو نفسه كله إله حتى مع جسده ، وكله إنسان حتى مع لاهوته السامي . وبقولنا إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً ، نعلن ملء الطبيعتين وعدم انتقاصها . وبقولنا كله إلهاً وكله إنساناً ، ندلّ على وحدة الأقنوم وعدم انقسامه .

طبيعة كلمة الله الواحدة والمتجسدة : - ونعترف بأن طبيعة الله الواحدة قد تجسدت . وبقولنا تجسدت نعي مع المغبوط كيرلس جوهر الجسد . وعليه إن الكلمة قد تجسدت ولم يتخلّ عن لاماديته الخاصة . وقد تجسّد كله وكله غير محصور . فهو جسدياً يصغر ويتقلّص ، وهو إلهياً غير محصور ، فلا يتسع جسده للاهوته غير المحصور .

إذاً هو كله إله كامل - لا الكلّ إله - فإن الله ليس وحده بل هناك إنسان أيضاً . والإنسان كله كامل - لا الكلّ إنسان - لأن الإنسان ليس وحده بل هناك الله . فإن لفظة الكلّ دليل على الطبيعة ، ولفظة كله ، على الأقنوم . كما أنّ لفظة الغير دليل على الطبيعة ولفظة غيره ، على الأقنوم .

نفوذ الطبيعتين فيه من قبل اللاهوت : - واعلم أننا ، إذا كنّا نقول بنفوذ طبيعتي الربّ أحدهما في الأخرى ، فإننا نعتقد بأنّ النفوذ واقع من قبل الطبيعة الإلهية ، لأنّ لهذه أن تعبر في الكلّ كما تشاء ولا يمكن شيئاً أن ينفذ فيها . وإنها هي أيضاً تمنح الجسد مفاخرها الخاصة وتلبث هي بلا انفعال ، غير متأثرة بالأم الجسد . فإذا كانت الشمس - وهي تمنحنا قواها الخاصة - تبقى دون أن تشاركنا تأثيرنا ، فكم بالأحرى صانع الشمس وربّها !

ردّ على القائلين : - في تحديد عدد الطوائف ، هل يعتبر اتصالها أم انفصالها ؟

ان ساويرس في برهانه يتجاوز الهدف : - إذا تساءل أحدهم عن طبيعتي الرب ، هل عددهما يعتبر بالنسبة إلى اتصالها أم بالنسبة إلى انفصالها ، فنجيب بأن طبيعتي الرب ليستا جسمًا واحدًا ولا سطحًا واحدًا ولا خطّ مساحةً واحدًا ولا زمانًا ولا مكانًا ، لكي نخضعها للكميّة المتصلة ، لأنّ هذه هي كل العدودات عددًا متّصلًا.

واعلم أنّ العدّ يكون للأشياء المختلفة ، ولا يمكن عدّ الأشياء التي لا اختلاف فيها . خذ مثلاً بطرس وبولس ، فهما - من حيث يتحدان - لا يُعدّان ، لأنهما يتحدان نظرًا إلى جوهرهما ، ولا يمكن القول بأنهما طبيعتان . ولكن - فلأنهما يختلفان من حيث الشخصية - يقال بأنهما شخصان ، حتى أنه لا عدّ بدون اختلاف ، وعلى نحو ما يقوم الاختلاف يكون العدّ.

التمييز في طبيعتي المسيح : - إذا فإنّ طبيعتي المسيح متحدتان في أقنومه بلا اختلاط ، ومتميّزتان بلا انفصال بمعنى اختلافهما ونوعه . وهما تُعدّان نظرًا إلى تمييزهما ، لأنّ طبيعتي المسيح اثنتان بمعنى اختلافهما ونوعه وهما متحدتان في الأقنوم . ولما كان لهما النفوذ احدهما في الأخرى بلا اختلاط فهما متحدتان ومحتفظة كلّ منهما باختلافها الطبيعي الخاص . ومن ثمّ فنظرًا إلى خلافتها وإليه وحده هما تُعدّان وتقدر بذلك كميّة تمييزهما .

كيف السجود لجسد المسيح : - إذا إنّ المسيح واحد وهو إله كامل وإنسان كامل . ونحن نسجد له مع الآب والروح بسجدة واحدة مع جسده الطاهر ، ولسنا نقول بعدم السجود لجسده لأنّ السجود حاصل في أقنوم الكلمة الواحد الذي صار أقنومه نفسه . ومن ثمّ لسنا بساجدين للخليقة ، فإننا لسنا نسجد له على أنه مجرد جسد ، بل على أنه متحد باللاهوت ، في وجه واحد وفي أقنوم كلمة الله الواحد المتواجد بطبيعتين اثنتين .

أنا أخشى أن أمسّ الجمرّة لتواجد النار فيها ، وأنا أسجد للمسيح بما فيه من ازدواج ، لأنّ لاهوته متحد بجسده . إذا أنا لست بواضع وجهًا رابعًا في الثالوث . حاشى ! بل أنا أعترف بوجه كلمة الله الواحد ويجسده . والثالوث يبقى ثالثًا حتى بعد تجسّد الكلمة .

ردّ على من يسأل إذا كان ثمة طبيعة خالية من شخص

إذا لم يكن ثمة من طبيعة خالية من شخص - أو جوهر خالياً من وجه - لأن الطبيعة أو الجوهر يشاهدان في الأشخاص أو الوجوه ، بيد أنه ليس من ضرورة - في حال اتحاد طبيعتين إحداهما بالأخرى في أقنوم - أن تحصل كلّ منهما على أقنومها الخاص بها ، لأنه يمكنها - في حال تلاقيها في أقنوم واحد - أن لا تكونا خاليتين من أقنوم ولا حاصلتين كلّ منهما على أقنوم خاص ، بل أن يكون لهما أقنوم واحد هو نفسه لكليتهما . فإن الكلمة قد صار أقنوماً لكلا الطبيعتين ، لا من حيث اتفق أن تظلّ إحداهما بلا أقنوم ولا من حيث أن حدث شذوذ وذلك بأن تكون الطبيعتان متباينتي الشخصية في ما بينهما ، ولا من حيث أن يكون الأقنوم تارةً لهذه وأخرى لتلك ، بل ظلّ هو أقنوم هذه وأقنوم تلك بلا تمييز ولا انفصال ، بلا تقسيم ولا تبديد ، جزء منه هنا لهذه وجزء منه هناك لتلك ، بل كلّ هذه وكلّه لتلك ، باقٍ بلا انقسام و باقٍ بكامله . فلم يتقسم جسد كلمة الله تقنيماً خاصاً ، ولم يكن أقنوم آخر غير أقنوم كلمة الله الذي يتقنم فيه ، وبالأحرى بصير فيه أقنوماً . ولم يكن في حدّ ذاته أقنوماً قائماً بذاته . لذلك فإن المسيح لم يخلُ قط من أقنوم ، ولم يُدخل في الثالوث أقنوماً آخر .

في النشيد المثلث التقديس

الإضافة المنسوبة إلى بطرس القصار : - فنقرّر من ثمّ بأنّ الإضافة التي ألحقها الغيبيّ بطرس القصار بالنشيد المثلث التقديس كفرٌ ، لأنها تأتي بنا بقنوم رابع ، فتضع ابن الله وقوّة الآب الأقنوميّة من جهة ، والمصلوب من جهة أخرى على أنه غير القويّ . أو هي تُمجّد الثالوث الأقدس المتألم ، صالبة الآب والروح القدس مع الابن . فبعداً لهذا الكفر وهذا الهديان !

الأسماء الإلهيّة العامّة : - أمّا نحن فننسب لفظة قدّوس الله إلى الآب ، غير فارزين اسم اللاهوت له وحده ، بل مدركين أنّ الابن إله والروح القدس كذلك . ولفظة قدّوس القويّ نجعلها للابن ، غير نازعين القوّة عن الآب والروح القدس . ولفظة قدّوس الذي لا يموت نخصّصها للروح القدس ، غير تاركين الآب والابن بمعزل عن الخلود ، بل ناسبين إلى كلّ من الأقانيم كلّ الأسماء الإلهيّة نسبةً بسيطة وعامة ، مقتدين بالرسول الإلهيّ القائل : « لنا إله واحد الآب الذي منه كلّ شيء ونحن إليه ، وربّ واحد يسوع المسيح الذي به كلّ شيء ونحن به »^(٢٣) . ومتشبهين بغيرغوريوس اللاهوتيّ الذي هو ليس بأقلّ من الرسول في تعبيره حيث يقول : « ولنا ربّ واحد الآب الذي منه كلّ شيء وربّ واحد يسوع المسيح الذي به كلّ شيء وروح قدّوس واحد فيه كلّ شيء » . فلفظة منه وبه وفيه ليس من شأنها أن تفصل الطبايع - لأنّ على حروف الجرّ هذه أن لا تتبدّل أو على الكلمات أن لا يتغيّر ترتيبها - بل هي لتفّيز خصائص الطبيعة الواحدة بدون تشويش . وهذا واضح من أنّ الحروف هذه تعود فترجع إلى واحد لدى قراءة ذلك بتأنّ في الرسول نفسه القائل : « كلّ شيء منه وبه وإليه . فله المجد مدى الدهور . آمين »^(٢٤) .

النشيد المثلث التقديس موجّه إلى الثالوث الأقدس لا إلى الابن وحده : - يشهد الأبحار الإلهيون أنثاسيوس وباسيليوس وغيغوريوس وكلّ خورس الآباء اللاسبيّ الله أنّ النشيد المثلث التقديس لا يُقال في الابن فحسب ، بل في الثالوث الأقدس . فإن السارافيم

القديسين في تقدسهم المثلث يُظهرون لنا الأقانيم الثلاثة للاهوت الفائق الجوهر ، ويعرفوننا بوحدة السيادة ووحدة الملك لرتاسة الثالوث الإلهي . وعليه يقول غريغوريوس اللاهوتي : «وهكذا إذاً ، فإن أقداس الأقداس التي هي محجوبة عن السارافيم أيضاً وتلقى التمجيد بتقديسات مثلثة تجتمع في سيادة واحدة ولاهوت واحد . وهذا ما قد استنتجته أيضاً من كانوا قبلنا من السلف الصالح وذلك بأقوال أكثر جلالاً وأعلى سمواً» .

تقليد الكنيسة عن هذا النشيد ، في عهد بروكلس الحبر : - وعليه ، فقد أجمع المؤرخون الكنسيون على القول بأن الشعب القسطنطيني ، في عهد رئيس الأساقفة بروكلس ، فيما كان يقوم بابتهايل لإبعاد محنة الهيبة ، وإذا بطفل من الشعب قد اختطف بالروح وتلقن - بتعليم ملائكي - النشيد المثلث التقديس على النحو التالي : «قدوس الله . قدوس القوي . قدوس الذي لا يموت . ارحمنا» . ولما عاد الصبي إلى وعيه ، أخبر بما تعلم . فأخذ الجمهور كله يترنم بالنشيد فتوقفت المحنة للحال . وفي المجمع المقدس العظيم المسكوني الرابع ، أعني الخلقيدوني ، قد تم تسليم النشيد المثلث التقديس كما هو للترنيم ، وعلى هذا النحو قد صار تدوينه في أعمال المجمع المقدس المذكور . إنها إذاً لسخرية مضحكة حقاً أن النشيد المثلث التقديس الذي أشار به الملائكة وتحقق بوحي من إرشادهم وثبتت رسمياً في مجمع آباء جزيل عددهم وكان قبلاً قد ترنم به السارافيم ، على أنه يوضح أقانيم اللاهوت الثلاثة ، ينتهي به الأمر إلى أن يوطأ بتفكير سخيف من القصار ، ومن ثم يكون عرضة لإصلاحه من مغالاة السارافيم ! فيا للاعتداد بالذات ، حتى لا أقول : يا للغباء ! - أما نحن فإننا نتابع الهتاف هكذا ، ولو خزي الشياطين ، ونقول : «قدوس الله . قدوس القوي . قدوس الذي لا يموت . ارحمنا» .

١٠٢١ - ١٠٢٨ . الرأس الحادي عشر . المقالة الخامسة والخمسون

في الطبيعة ، نظراً إلى النوع وإلى الفرد . وفي الفرق بين الاتحاد والتجسد . وفي مفهوم « طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسدة »

معاني الطبيعة ثلاثة : - تُفهم الطبيعة إما بنظرة تجريد - وهي لا قوام لها في ذاتها - وإما بنظرة تشمل جميع الأشخاص المتساوين في النوع - ويُقال لها طبيعة منظورة في نوعها - وإما بنظرة كلية مأخوذة مع الأعراض في شخص واحد - ويقال لها طبيعة منظورة في فرد - وهي أيضاً منظورة في نوعها . إذاً إنَّ الله لم يتَّخذ في تجسده طبيعة بمعنى نظرة تجريد ، لأنَّ هذا ليس تجسداً . إنَّ هو إلّا إياهمُ تجسّد وخداع . ولم يتَّخذ أيضاً طبيعة منظورة في نوعها ، لأنَّه لم يتَّخذها موجودة في كل الأشخاص ، بل اتخذها فريدة في نوعها وهي باكورة عجتنا وغير قائمة بذاتها ، ولا كانت أولاً فرداً ثمَّ اتخذها على ما هي عليه ، بل هي اتخذت وجودها في أقنومه ، لأنَّ أقنوم كلمة الله نفسه قد صار أقنوماً للجسد . وبهذا المعنى صار الكلمة جسداً بدون استحالة ، وصار الجسد الكلمة بدون تغيير ، وصار الله إنساناً . فإنَّ الكلمة إله ، والإنسان إله - بسبب اتحادهما في الأقنوم - . ومن ثمَّ يمكن القول بأنَّ طبيعة الكلمة هي هي الطبيعة في الفرد . وإنَّ هذا وحده يوضح الفرد أو الأقنوم إيضاحاً حقيقياً ، لا ما هو عامٌّ في الأشخاص ، بل الطبيعة العامة في أحد أشخاصها منظورة وممَّحصة .

الفرق بين الاتحاد والتجسد : - الاتحاد إذاً شيءٌ والتجسد شيءٌ آخر . والاتحاد يدلُّ على الارتباط وحده . أمّا ما هو هذا الارتباط فغير وارد . أمّا التجسد - وهو نفسه يقال له التأنس - فيوضح الارتباط بجسد أو بإنسان ، مثلاً تدلُّ حرارة الحديد على اتحاده بالنار . إيضاح لكيرلس نفسه عن « طبيعة الكلمة الواحدة المتجسدة » : - وعليه إنَّ المغيوط كيرلس ، في رسالته الثانية إلى صوكتصين ، يقول هكذا ، وهو يفسّر عبارة « طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسدة » *Mia φύσις τοῦ θεοῦ Λόγου σεσαρκωμένη* :

« لو كنّا قلنا : طبيعة الكلمة الواحدة وصمتنا ، غير مُضيفين إليها المتجسدة ، بل أعرضنا بذلك عن التدبير ، ربما كان لمن يحتاجون بسؤالهم كلاماً أيضاً غير مستنكر ، وإذا كان الكلُّ طبيعة واحدة ، فأين الكمال في الناسوت ؟ أو كيف حصل الجوهر الذي هو على مثالنا ؟ ولكن بما أنَّ الكمال في الناسوت وإيضاح الجوهر الذي هو على مثالنا قد حصلنا

بقولنا المتجسدة ، فليكن إذا هؤلاء عن وضع قضيب من قصب مكانها ! - إن كيرلس إذا يستعمل هنا طبيعة الكلمة بدل الطبيعة . فلو كان قد استعمل الأقنوم بدل الطبيعة ، لما كان مستنكراً أن يقول ما قاله بمعزل عن المتجسدة . وإنما لا نتردد في قولنا جازمين . أقنوم كلمة الله الواحد . وكذلك فإن لاوندبوس البيزنطي أيضاً قد فهم بأن ما يقال عن الطبيعة ليس بمضاد لما يقال عن الأقنوم . والمغبوط كيرلس - في احتجاجه على تنفيذ ثاودوريتوس بشأن الحرم الثاني - يقول هكذا : « إن طبيعة الكلمة أي الأقنوم ، وهو الكلمة نفسه » . لذلك فإن المقول بطبيعة الكلمة لا يعني الأقنوم وحده ولا ما هو عام للأقنوم ، بل الطبيعة العامة في أقنوم الكلمة باعتبارها ككل .

نخبة من التعابير المعتاد سماعها والمقبولة : - إذا إنها عبارة تُقال بأن طبيعة الكلمة قد تجسدت أو أنها اتحدت بجسد . ولم نسمع قط حتى الآن أن طبيعة الكلمة تألمت بالجسد . لكننا تعلمنا أن المسيح تألم بالجسد . ونستنتج من هذا أنه لا يبدو أن القول بطبيعة الكلمة يعني الأقنوم . بقي إذا أن نقول بأن التجسد هو الاتحاد بجسده ، وإن الكلمة يصير جسداً هو أن أقنوم الكلمة نفسه يصير جسداً بدون استحالة . - وإنه يقال بأن الله صار إنساناً وصار الإنسان إلهاً . لأنه لما كان الكلمة إلهاً فقد صار إنساناً بدون تغيير . أما أن يقال بأن اللاهوت صار إنساناً أو أنه تجسد أو أنه تأنس فلم نسمعه قط . وقد تعلمنا بأن اللاهوت قد اتحد بالناسوت في أحد أقانيمه . ويقال إن الله يتنكر أو يتجوهر بالغريب أو بما هو على مثالنا . فإن كلمة الله تصح في كل الأقانيم ، أما كلمة لاهوت فلا يمكننا قولها عن أقنوم لأننا لم نسمع بأن كلمة لاهوت تُقال في الآب وحده ولا في الابن وحده ولا في الروح القدس وحده . لأن اللاهوت يدل على الطبيعة والآب يدل على الأقنوم كما يدل الناسوت على الطبيعة ويطرس على الشخص . وإن كلمة الله تعني ما هو عام في الطبيعة وتدل بالتساوي على كل الأقانيم ، وكذلك كلمة إنسان . فإنه هو الله ذاك الذي يحصل على طبيعة إلهية ، وهو إنسان ذلك الحاصل على الناسوت .

واعلم أنه في كل ما تقدم بحثه لم يشترك الآب والروح القدس في التجسد في حال من الأحوال ، ما عدا المعجزات والمسرّة والرضى أيضاً .

١٠٢٨ - ١٠٣٢ . الرأس الثاني عشر . المقالة السادسة والخمسون

في أن البتول القديسة والدة الله ، خلافاً للنساطرة

القديسة مريم في الحقيقة والحق والدة الإله - ضد الفالتيونوس وغيره - لأن جسد المسيح متخذ من مريم - . إننا نذيع في أن البتول القديسة هي حقاً وحقيقة والدة الإله . لأن المولود منها إله حقيقي . ولعمري إنها في الحقيقة والدة الإله تلك التي ولدت الإله الحقيقي المتجسد منها ، ليس على أن لاهوت الكلمة قد أخذ بدء وجوده منها ، بل على أن كلمة الله نفسه - بصفته مولوداً من الآب ولادة أزلية قبل الدهور وبصفته كائناً لا بدء له منذ الأزل مع الآب والروح - قد سكن في أحشائها في آخر الأيام لأجل خلاصنا وتجسد منها بغير استحالة وولد . فلم تلد البتول مجرد إنسان بل إلهاً حقيقياً ، لا بسيطاً بل متجسداً ، لا متخذاً جسمه من السماء وماراً بها كما بقناة بل متخذاً منها جسداً مساوياً لنا في الجوهر ومتقماً فيه . فلو كان الجسد قد أوتي به من السماء ولم يتخذ من طبيعة على مثالنا ، فما هي الفائدة من التأنس ؟ لأن التأنس قد جرى لهذا السبب وهو أن الطبيعة نفسها التي أخطأت وسقطت وفسدت ، هي هي نفسها تغلب المتسلط الخداع وتحرر بذلك من الفساد ، على ما يقول الرسول الإلهي : « بما أن الموت بإنسان ، فبإنسان أيضاً قيامة الأموات » (٢٥) . وعليه لما كان الشرط الأول صادقاً ، فيكون الثاني كذلك .

وإذا كان الرسول يقول أيضاً : « آدم الأول من الأرض أرضي ، وآدم الثاني من السماء سماوي » (٢٦) ، فهو لا يقول بأن جسد آدم الثاني من السماء ، بل واضح أنه ليس إنساناً بسيطاً ، فهوذا يسميه آدم ويسميه رباً ، دالاً على طبيعته كليتها ، لأن كلمة آدم معناها أرضي - وواضح أن طبيعة الإنسان أرضية وهي التي قد جبلت من تراب - . أما كلمة رب فدليل على جوهره الإلهي .

جسد المسيح قد تكون من مريم : - ويقول الرسول أيضاً : « قد أرسل الله ابنه الوحيد مولوداً من امرأة » (٢٧) . فهو لم يقل بامرأة بل من امرأة . فقد أشار إذاً الرسول الإلهي إلى أن الإله ابن الله الوحيد الجنس هو نفسه قد صار إنساناً من البتول وأن المولود من البتول هو

نفسه إله ابن الله وهو قد وُلد ولادة جسدية على قدر ما صار إنساناً، ليس ساكناً في إنسان سبق تكوينه كسكنائه في نبي، بل هو نفسه قد صار إنساناً في الجوهر والحقيقة، أي أنه قَنَمَ في أُنُومِه جسداً حياً بنفس ناطقة وعاقلة فصار هو نفسه أُنُوماً له. فَإِنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى مولود من امرأة. وكيف يا ترى قد صار كلمة الله نفسه تحت الناموس إذا لم يكن قد صار إنساناً مساوياً لنا في الجوهر؟

تسمية مريم والدة الإله توضح السر بكامله: - ومن ثم فإنه لعدل وحق أن نسمي القديسة مريم والدة الإله Θεοτόκος، لأن هذا الاسم يوطد سر التدبير كله، فإذا كانت والدة الإله، فالمولود منها إله بكامله وإنساناً أيضاً بكامله. وإلا كيف قد وُلد من امرأة الإله الذي له الوجود قبل الدهور، إذا لم يكن إنساناً؟ وإنه لواضح أن ابن الإنسان إنسان. وإذا كان المولود من امرأة هو نفسه إله فتضح وحدة المولود من الله الأب بحسب الجوهر الإلهي والأرثي والمولود في آخر الأيام من البتول بحسب الجوهر الذي بدؤه في الزمن أي الناسوت. وهذا مما يدل على أُنُوم واحد وطبيعتين وولادتين في ربنا يسوع المسيح.

تَجَبُّ الآبَاءُ تسميتها «والدة المسيح»: - وإنا لا نسمي أبداً البتول القديسة والدة المسيح Χριστοτόκος. والسبب في ذلك أن نستطوريوس، لكي يحو كلمة والدة الإله ويحط من كرامة مَنْ هي حقاً والدة الإله وكرامة فوق الخليفة كلها، استنبط هذا اللقب، احتقاراً لها. فَإِنَّ دَاوُدَ الْمَلِكِ أَيْضاً مَسِيحٌ وَهَرُونَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ كَذَلِكَ. وَيُطْلَقُ هَذَا اللَّقْبُ عَلَى الْمَلِكِ وَالْكَاهِنِ، بَلْ إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ لَا بَسَّ اللَّهِ Θεοφόρος يمكن تسميته مسيحاً، ما عدا مَنْ هو الله بالطبيعة وقد ولدته العذراء الذي تجاسر نستطوريوس وسمّاه لا بَسَّ اللَّهِ. أَمَا نَحْنُ، فَحَاشَا لَنَا أَنْ نَسْمِيَهُ لَا بَسَّ اللَّهِ، حَتَّى إِنَّا لَا نَفَكِّرُ بِذَلِكَ بَلْ نَسْمِيَهُ هُلاًَّ مُتَجَسِّداً.

في أثناء الحبل به اتخذت الطبيعة البشرية بالكلمة: - وقد صار الكلمة نفسه جسداً، إذ لَمَّا حُبِلَ بِهِ مِنَ الْبَتُولِ، أَقْبَلَ الْإِلَهُ مَعَ اتِّخَاذِ طَبِيعَتِنَا، فَكَانَتْ تَنَالُهُ بِهِ حَالِماً كَانَتْ تَخْرُجُ إِلَى الْوُجُودِ، حَتَّى إِنَّ أُمُوراً ثَلَاثَةً كَانَتْ تَتِمُّ مَعاً بِفِعْلِ الْكَلِمَةِ: الْإِتِّخَاذُ وَالتَّكْوِينُ وَالتَّنَالَةُ. وبذلك يمكننا أن نفهم ثم نقول إن البتول القديسة هي والدة الإله، ليس بسبب طبيعة الكلمة الإلهية فحسب، بل أيضاً بسبب تَالَهُ النَّاسُوتَ وإنه حالماً صار الحبل به تَمَّتْ أَعْجُوبَةُ التَّكْوِينِ، ذَلِكَ أَنَّ الْحَبْلَ بِالْكَلِمَةِ وَوُجُودَ الْجَسَدِ فِي الْكَلِمَةِ نَفْسَهُ قَدْ حَصَلَ فِيمَا

كانت أم الله نفسها - بما يفوق الطبيعة - تقدم للحابل ما ينجيل به : والله صانع الكل ما
 يتأنس به ، مؤلهاً ما اتخذ له ، مع محافظته على اتحاد المتحدّين كما كانا عليه وهما يتحدان .
 وليست أقول ذلك عن اللاهوت فحسب ، بل عن ناسوت المسيح أيضاً - عمّا فيه يفوقنا
 وعمّا فيه على مثالنا - . فإن المسيح لم يكن أولاً على مثالنا ثم صار على ما يفوقنا ، بل كان
 دائماً - ومنذ تكوينه - الاثنين معاً . لأنه منذ بدء الحبل به كان حاصلًا على وجوده في
 الكلمة نفسه . فهو إذاً بشرٌ بموجب طبيعته الخاصة وإلهي بالله بما يفوق الطبيعة . وكان له
 علاوة على ذلك ميزات الجسد الحيّ وكان قد اتخذها الكلمة له - في منطق تدبيره - مخلوقة
 خلقاً طبيعياً بالحقيقة وبمقتضى المجرى الطبيعي .

في خصائص الطبيعتين

في أن في المسيح مشيئتين وفعلين : - فيما نعرف بأن ربنا يسوع المسيح هو نفسه إله كامل وإنسان كامل ، نقول بأن له هو نفسه كل ما للآب ما عدا عدم الولادة ، وأن له كل ما لآدم الأول ما عدا الخطيئة وحدها ، ذلك أن له جسداً ونفساً ناطقة وعاقلة ، فإن له هو نفسه - في مقابل الطبيعتين الاثنتين - الخواص الطبيعية لكل من الطبيعتين الاثنتين : أي مشيئتين طبيعتين اثنتين ، إلهية وإنسانية . وفعلين طبيعتين اثنتين ، إلهي وإنساني . وحريتين طبيعتين اثنتين ، إلهية وإنسانية . وحكمة ومعرفة إلهيتين وإنسانيتين . فهو مساو لله الآب في الجوهر وبشاء وبفعل بخرية الله . وبما أنه مساو للإنسان في الجوهر ، فهو بشاء وبفعل بخرية كالإنسان نفسه . فالعجائب عجائبه والآلام آلامه .

في ازدواجية مشيئة ربنا يسوع المسيح وحرية تصرفه

لكل جوهر إرادته وفعله : - إذاً بما أن للمسيح طبيعتين فإن له أيضاً مشيئتين طبيعتين وفعلين طبيعتين ، وبما أن أقنوم طبيعته واحد ، فنقول بأن المسيح ربنا واحد أيضاً وهو الذي يشاء ويفعل طبيعياً كل ما يشاؤه ويفعله بحسب كلتا الطبيعتين وانطلاقاً منها وفيها . فهو يشاء ويفعل في كل من الصورتين بمشاركة الأخرى ، وعلى ما يكون جوهر الأشياء نفسه تكون مشيئة الأشياء ويكون فعلها أيضاً . وعلى ما يكون تباين جوهر الأشياء يكون تباين الإرادة والفعل . وبعكس ذلك ، على ما هي الإرادة وعلى ما هو الفعل يكون الجوهر نفسه . وعلى ما هو تباين الإرادة والفعل يكون تباين الجوهر نفسه .

لذلك فإننا نعرف في الآب والابن والروح القدس هوية الطبيعة نفسها من هوية الفعل والمشيئة نفسها . وإننا نعرف تباين الطبيعتين في التدبير الإلهي من تباين الفعلين والمشيئتين . وإذا ما فهمنا تباين الطبيعتين فنعترف أيضاً بتباين المشيئتين والفعلين . وكما أن عدد الطبيعتين في المسيح الواحد نفسه - إذا ما فهم بروح التقوى ويُشر به - لا يُقسم المسيح الواحد بل هو يركز أيضاً تباين الطبيعتين تركيزاً سلباً في الاتحاد ، كذلك أيضاً عدد المشيئتين والفعلين المتواجد تواجداً جوهرياً في طبيعته . فقد كان لكلتا الطبيعتين نصيب في خلاصنا - إن بالمشيئة وإن بالفعل - ولم يدخل ذلك انقساماً . حاشا . لكن هذا يدل فقط على حفظها وسلامتها في الاتحاد . وإننا نعي بذلك المشيئتين والفعلين في الطبيعتين لا في الأقاليم . وأقول بأن القوة التي تشاء وتفعل هي نفسها التي بموجبها يشاء ويفعل من يشاء ويفعل . لأننا إذا سلمنا بذلك للأقاليم ، نُضطر إلى القول بتباين في أقاليم الثالوث الأقدس من حيث المشيئة والفعل .

مرثء المشيئة والفعل ، تجريداً ، للطبيعة وبالواقع ، للأقنوم : - واعلم أن الإرادة وكيفية الإرادة ليستا شيئاً واحداً . فإن الإرادة مرثءاً للطبيعة على نحو ما هو النظر الذي ينعم به جميع البشر . أما كيفية الإرادة فليس مرثءاً للطبيعة ، بل لحكمتنا ، على نحو ما هي كيفية النظر ، حسنة أم رديئة . فليس كل الناس متساوين في الإرادة وليس كلهم متساوين في النظر . وهذا ما نسلم به بشأن الأفعال أيضاً . فإن كيفية الإرادة وكيفية النظر وكيفية الفعل

هي طريقة استعمال الإرادة والنظر والفعل المتاحة لمستعملها وحده وهي تميزه عن غيره على مقتضى التباين المنطقي عموماً.

معاني المشيئة ومشقاتها : - يُقال إذاً للمشئنة بالتجريد إرادة أو القوة المُريدة لأنَّ تحديدَها المشئنة الطبيعية . أمَّا كَيْفِيَّةُ المشئنة أو الواقع تحت المشئنة فيسمى المراد أو الإرادة الحاكمة ، وهي قدرة مُريدة للإرادة الغريزية ، مثلاً الطبيعة الإلهية هي قدرة مريدة وكذلك الطبيعة البشرية . والمستعملُ الإرادة هو مُريد وهو الشخص ، مثلاً بطرس .

المشيئة في المسيح مزدوجة . أمَّا كَيْفِيَّتُها فواحدة : - وعليه لما كان المسيح واحداً وكان أقنومه واحداً ، فهو نفسه واحد وهو يريد بإرادته الإلهية وإرادته البشرية . ولما كانت له طبيعتان مُريدتان وعاقلتان - لكونها ناطقتين ، فإن كل مُريد عاقل هو حر - فنقول فيه بأن له إرادتين . وهما إرادتان طبيعتان . لأنه هو نفسه مريد عاقل بحسب طبيعته كليتها . فقد اتخذ القوة المريدة العاقلة الموجودة طبيعياً فينا . وبما أن المسيح واحد وأنه هو نفسه المريد في كل من الطبيعتين ، فإننا نقول فيه بأن مراده هو هو نفسه ، لا على أنه يريد فقط ما يريده طبيعياً بصفته الهاً - فإن ليس من شأن اللاهوت أن يريد الأكل والشرب وما شاكلها ... - بل إنه يريد أيضاً مقومات الطبيعة البشرية - ليس بمجرد معارضة حكم - بل في مشاركة الطبيعتين . وحينئذ يكون قد أراد هذه الأمور إرادةً طبيعياً ، إذا ما شاءت مشيئته الإلهية وأتاحت للجسد أن يفعل ويعمل ما يختص به .

الإرادة طبيعية في الإنسان : - ومن ثم يتضح أنَّ الإرادة متواجدة في الإنسان طبيعياً . وإذا استثنينا الإقية ، فهناك ثلاثة أنواع من الحياة : النامية والشاعرة والعاقلة . وميزة النامية حركة التغذية والنمو والولادة . ويختص بالشاعرة الاندفاع إلى الحركة . وميزة الناطقة والعاقلة الحرية . إذاً فإذا كان بموجب الطبيعة أنَّ الغاذية تتواجد في النامية ، والاندفاع إلى الحركة يتواجد في الشاعرة ، كم بالأحرى إذاً أنه بموجب الطبيعة أيضاً أن تتواجد الحرية في الناطقة والعاقلة . والحرية ليست سوى الإرادة . وعليه لما صار الكلمة جسداً حياً عاقلاً وحرّاً ، صار أيضاً ذا إرادة .

زد على ذلك أن الأمور الطبيعية ليست موضوعاً للتعليم ، فإنه ليس من محاور في تعليم الإنسان أن يحيا أو أن يموت أو أن يعطش أو أن ينام . وكذلك لا تتعلم بأن نريد لأنه طبيعي أن نريد .

وأيضاً إذا كانت العجاوات تُسَيِّرُها الطبيعة، فإنَّ الإنسانَ تَسَيِّرُهُ حريته بدافع من إرادته. فالإنسان إذاً مريد بالطبع.

ما الحرية إلا الإرادة نفسها: - وأيضاً، لما كان الإنسان قد خُلِقَ على صورة اللاهوت السعيد الفائق الجوهر، ولما كانت الطبيعة الإلهية حرة بالطبع ومريدة، فإنَّ الإنسان إذاً - بما أنه على صورته - هو أيضاً حرٌّ ومريد بالطبع. والآباء قد حدّدوا الحرية بأنها الإرادة. وأيضاً إذا كان لكل الناس أن يريدوا، وليس فيهم من له هذا وفيهم من ليس له، وأنَّ ما يُشاهد عموماً في الجميع من شأنه أن يرسم الطبيعة التي هي في الأفراد الخاضعين له، إذاً فإنَّ الإنسان مريد طبعاً.

زد على ذلك أنه لما كان معنى الطبيعة لا يحتمل الزيادة والنقصان، وبالمثل لما كان في استطاعة الجميع أن يريدوا وأن يريدوا فحسب - ليس هؤلاء أكثر وأولئك أقل - فإنَّ الإنسان إذاً مريد بالطبع. وفي النتيجة، إذا كان الإنسان مريداً بالطبع، فإنَّ الرب أيضاً كذلك، هو مريد بالطبع ليس فقط من حيث هو إله بل أيضاً من حيث إنه قد صار إنساناً، لأنه على نحو ما اتخذ طبيعتنا فقد اتخذ كذلك مشيئتنا. وقد قال الآباء في ذلك: إنه قد رسم مشيئتنا في ذاته.

وإذا لم تكن المشيئة طبيعية فهي إما أقنومية وإما خارجة عن الطبيعة. لكن في حال أنها أقنومية يكون الابن مغايراً للآب في إرادته - لأن ما كان أقنومياً فهو لا يختص إلا بأقنوم واحد. - وفي حال أنها خارجة عن الطبيعة فتكون المشيئة سقوطاً خارج الطبيعة، لأن ما هو خارج الطبيعة يكون مفسداً لما هو بحسب الطبيعة.

إنَّ الآب إله الكل يشاء، إماماً من حيث هو إله وإماماً من حيث هو الآب. فإذا كان يشاء من حيث هو الآب فتكون مشيئته غير مشيئة الابن - لأنَّ الابن ليس أباً - وإذا كان يشاء من حيث هو الله والابن هو الله والروح القدس هو الله، إذاً فالمشيئة من الطبيعة وهي طبيعية.

أيضاً - وكما يقول الآباء - : لو كانت مشيئة المسيح واحدة لكان الجوهران واحداً ولكانت مشيئة لاهوت المسيح واحدة مع مشيئة ناسوته. إذاً لكان أيضاً جوهرهما نفسه واحداً.

وأيضاً - وكما يقول الآباء - : لو لم يظهر تباين الطبيعة في المشيئة الواحدة لوجب على

القائلين بمشيئة واحدة أن لا يقولوا بتباين طبيعي، أو، إذا قالوا بتباين طبيعي، أن لا يقولوا بمشيئة واحدة.

أصف إلى ذلك أنه - كما يقول الإنجيل الإلهي - إذا كان الرب «ذهب إلى تخوم صور وصيدا ودخل بيتاً ولم يرد أن يعلم به أحد فلم يقدر أن يستتر» (٢٨)، ذلك أنه لو كانت مشيئته الإلهية لكان قادراً على كل شيء، ولكن - بما أنه شاء أن يستتر ولم يقدر - فيتحمم أنه، من حيث هو إنسان، شاء ولم يقدر، وأنه هو مريد أيضاً من حيث هو إنسان. ويقول الإنجيل أيضاً: - «ولمّا بلغوا به إلى المكان...، قال: أنا عطشان» (٢٩). «فأعطوه خمرًا ممزوجة بمرارة فذاق ولم يرد أن يشرب» (٣٠). إذاً، لو أنه عطش بصفته إلهاً وذاق ولم يرد أن يشرب لكان حتماً عرضة أيضاً للألم بصفته إلهاً. فإن العطش انفعال وكذلك الذوق أيضاً. أمّا إذا لم يكن ذلك بصفته إلهاً، لكنه عطش بصفته إنساناً، فقد كان مريداً أيضاً بصفته إنساناً.

طاعة المسيح دليل على إرادته وخضوعه: - ويقول المغبوط بولس: «وصار مطيعاً، ومطيعاً حتى الموت، موت الصليب» (٣١). فالطاعة هي الانقياد التام أو غير التام. والذي لا نطق له ليس مطيعاً، ولا يدخل في عداد المطيعين. وقد كان الرب مطيعاً للآب، ليس بصفته إلهاً بل بصفته إنساناً. فهو - بصفته إلهاً - ليس مطيعاً ولا غير مطيع. وعلى ما قاله غريغوريوس اللاس الله: «إن هذه الأمور تختص بمن هم تحت يد غيرهم». فالمسيح إذاً مريد بصفته إنساناً.

الإرادة الطبيعية حرة: - ويقولنا إرادة طبيعية لا تعني بأنها مسيرة بل هي حرة، لأنها لما كانت ناطقة فهي حتماً حرة. فليست الطبيعة الإلهية غير المخلوقة فقط غير مسيرة، ولا كذلك الطبيعة المخلوقة. وهذا واضح. فكون الله صالحاً بالطبع وخالقاً بالطبع وإلهاً بالطبع، هذا كله ليس بالاضطرار. ومن ياترى يكون مسير اضطراراً؟

الحرية في الله شيء وفي الملائكة شيء آخر وفي البشر شيء آخر: - واعلم بأن الحرية متساوية اسماً ومختلفة فعلاً. فهي في الله غيرُها في الملائكة وغيرُها في البشر. هي في الله تفوق الجوهر وهي في الملائكة تجاري سرعتهم التنفيذية التي لا يتخللها زمن مطلقاً. وبما أن الحرية

طبيعية فيهم ، فهم يمارسونها بلا عرقلة لا من نفور الجسد ولا من مقاومته . أمّا في البشر فسرعة تنفيذ الحرّة تتطلّب وقتاً للتفكير ، لأنّ الإنسان حرّ والحرّة فيه طبيعية وفيه أيضاً دافعٌ من الشيطان وفيه حركة الجسم . فإذا بسبب هذا الدافع وبطء الجسد يتأخّر التنفيذ عادة .

لماذا وجب أن يتخذ الكلمة الإرادة البشرية الحرّة : - إذا كان آدم قد شاء فأطاع وقد شاء فأكل ، فيكون إذا بدء الداء فينا من المشيئة . وإذا كانت المشيئة هي المتألّمة الأولى فينا وكان الكلمة - في تجسده - لم يتخذها مع الطبيعة ، نكون نحن إذا لم نصر في معزل عن الخطيئة .

وأيضاً إذا كانت قوّة الطبيعة الحرّة عمله ، وهو لم يتخذها ، فيكون ذلك إمّا لأنّه راذلٌ صنعه الخاص ، على أنّه غير حسن ، وإمّا أنّه - حسداً منه على شفائنا منها - حرماناً من الشفاء التام ، مظهراً ذاته أنّه تحت الانفعال ، على أنّه لم يرد أو لم يستطع أن يخلصنا خلاصاً كاملاً .

لا يمكن تأليف مشيئة تكون إلهية وبشرية معاً - لا يمكن الكلام عن شيء واحد يكون مركّباً من مشيئتين ويشابه أقنوماً مركّباً من طبيعتين ، ذلك أولاً لأنّ التركيب يصير من كائنات قائمة في ذاتها ، وليس ممّا هي تشاهد في غيرها ، لا في ذاتها . ثانياً إذا تكلمنا عن تركيب في المشيئتين والفعلين ، فنضطرّ إلى التكلّم عن تركيب في كلّ من الخواصّ الطبيعية : في غير المخلوق والمخلوق ، في غير المنظور والمنظور ، وما شاكل ذلك ... وكيف ياترى نسمّي المشيئة المركّبة من مشيئتين ؟ ... فإنّنا لا يمكننا أن نطلق عليها اسم ما هو مركّب منها ! وإلاّ فإنّنا نحمل أيضاً بذلك على تسمية المركّب من طبيعتين : طبيعة ولا أقنوم ! أمّا إذا قلنا أيضاً بمركّب واحدٍ في المسيح ، فنحن نفصله بذلك عن مشيئة الآب ، لأنّ مشيئة الآب ليست مركّبة . بني علينا إذاً أن نقول بأنّ أقنوم المسيح وحده مركّب ومشاعٌ لطبيعتيه والخواصّها الطبيعية .

في المسيح ، لا عزم ولا اختيار سابقان ، بالمعنى الحصريّ : - لا يمكن الكلام عن عزم واختيار سابقين في المسيح ، إذا أردنا أن نتكلّم بحصر المعنى . فإنّ العزم هو جزم بعد البحث عن المجهول والرغبة فيه أو هو بعد مشورة وحكم في موضوع الحكم . ويأتي بعده الاختيار السابق ، القائم بتفصيل شيء واتخاذة بدل شيء آخر . أمّا الربّ فليس هو مجرد إنسان ، بل هو الله أيضاً . وليس هو بحاجة إلى تروٍّ وبحثٍّ ومشورة وتمييز ، وكان له من طبيعته الخير

اختصاصاً وعن الشرّ بعلد. وهذا ما قاله أشعيا النبي: «لأنه قبل أن يعرف الصبي الشرّ ويختار الشرّ ويختار الخير، أي قبل أن يعرف الصبي الخير والشرّ، يتعد عن الشرّ ويختار الخير» (٣٢) فإن لفظة «قبل أن» تدلّ على أنه لا يبحث ويقرّر على طريقتنا، لكن، بما أنه إله، فهو يمنح إلهياً التقنم للجسد. وهذا يعني أنه يتحد في الجسد بأقنومه. وهو حاصل على الخير بكيانه ذاته وعلى المعرفة كلها. فإن الفضائل كلها طبيعية وهي على التساوي في الجميع - ولو كان الجميع لا يفعلون بالتساوي ما هو من الطبيعة - ، لأننا بالخالف قد سقطنا مما هو بمقتضى الطبيعة إلى ما هو ضد الطبيعة. والرب قد قادنا ممّا هو ضد الطبيعة إلى ما هو بمقتضى الطبيعة. وهذا هو معنى «على صورته كمثاله» (٣٣). ومفهوم التقشّف ومشقاته ليس لأجل اقتناء فضيلة دخيلة من خارج، بل لأجل نزع الشرّ الذي هو الدخيل وهو ضدّ الطبيعة. ممثّل ذلك مثل الصدا في الحديد - وهو ليس فيه طبيعياً - لكن إذا تعبنا في نزع ما حصل عليه من جرّاء الإهمال، فتعيد إليه نصارة الحديد الطبيعية.

واعلم أنّ كلمة (ὑπόμνησις = عزم) كثيرة الاستعمال وكثيرة المعاني وهي تدلّ حيناً على التحريض كما قال الرسول الإلهي: «أمّا البتولية فليس عندي فيها وصية من الرب، لكني أفيدكم فيها مشورة» (٣٤)، وحيناً على مكيدة، كما هو لما يقول داود النبي: «على شعبك اثمروا كيداً» (٣٥)، وحيناً على حكم، كما جاء في دانيال: «لِمَ هذا القضاء الشديد؟» (٣٦)، وحيناً على الإيمان أو الرأي أو العاطفة. وبالاختصار إن هذه الكلمة ثمانية وعشرين معنى في التداول.

في أن في ربنا يسوع المسيح فعلين

فعلُ المسيح مزدوجٌ طبعاً: - نقول بأنَّ في ربنا يسوع المسيح فعلين، لأنَّ له على التساوي - بصفته إلهاً مساوياً للآب في الجوهر -، الفعل الإلهي، وله - بصفته إنساناً مساوياً لنا في الجوهر - فعل الطبيعة البشرية.

تحديد الفعل ومشتقاته: - واعلم أنَّ الفعل بالقوَّة ἐνέργεια شيءٌ والفعل الفعَّال ἐνέργων شيءٌ آخر، والمفعول ἐνέργημα شيءٌ آخر، والفاعل ἐνέργων شيءٌ آخر. فالفعل بالقوَّة هو حركة الطبيعة الفاعلة الجوهرية، والفعل الفعَّال هو الطبيعة التي يصدر منها الفعل، والمفعول هو حسيبة الفعل، والفاعل هو الذي يفعل الفعل أو الأقنوم. ويقال أيضاً للفعل لمفعولاً وللمفعول فعلاً، مثلاً: يقال للمخلوق خَلَقاً فنقول هكذا: كلُّ الخلق ونعني المخلوقات.

واعلم أنَّ الفعل حركة، وهو يُفعل به أكثر مما يفعل، كما يقول غريغوريوس اللاهوتي في كلامه عن الروح القدس: «ومذ يكون الفعل يكون الانفعال - ذلك واضح - وينتهي مع الانفعال».

ويجب أن تعلم أنَّ الحياة ذاتها فعلٌ، بل هي الفعل الأول للحَيِّ، بل هي تدبير الحَيِّ كله، للتغذية كان أم للنمو، ذلك في الميدان الطبيعي. وهي الحركة في الاندفاع أي في الإحساس، وهي الحركة العاقلة والحرة. والفعل كمال القوة. فإذا شاهدنا هذه الأمور كلها في المسيح نقول حينئذٍ بفعل بشري فيه.

أنواع الفعل الأخرى نظراً إلى الاتحاد الحاصل في المسيح: - إنَّ الهجس الأول الذي يقوم فينا يُسمَّى فعلاً. وهو فعلٌ بسيط وبدون ارتباط، ذلك عندما يُطلق العقل في ذاته هواجسه الخاصة بلا وضوح وهو بدونها لا يستحق أن يسمَّى عقلاً. ويسمَّى أيضاً فعلاً تبيان الكلام بلفظه وإيضاح معانيه، وهو ليس بعدد بدون ارتباط وبسيطاً، بل هو ظاهرٌ في ارتباطه مركباً من هجس وكلمة. وأيضاً الارتباط نفسه هو للعامل على أن يكون الحدث هو أيضاً فعل. والشيء نفسه الذي يتمُّ يقال له فعلاً، أكان الإنتمام محتضاً بالنفس وحدها أو كان محتضاً بالنفس في استعمالها الجسد أو كان محتضاً بالجسد العائش في حياة عقلية، لأنَّ

العقل - في نظره إلى ما سيكون - يفعل ذلك بواسطة الجسد. وعليه فإن السيطرة هي للنفس تستعمل الجسد بمثابة آلة لتسييره وتقويمه. أما فعل الجسد - الذي تدفعه النفس وتحركه - فهو غير ذلك، فإن الإتمام - بالنسبة إلى الجسد - لمس وضبط وكأنما هو استملاك، بينما هو - بالنسبة إلى النفس - شبه تصوير وتصميم لما سيصير. والفعل في ربنا يسوع المسيح هو على هذا النحو. فإن فعل العجائب هو لقوة لاهوته. أما العمل بالأيدي والمشية والقول: «شئتُ فاطهر»^(٣٧) هو فعل ناسوته. ومن أفعال ناسوته، كسر الخبزات وإسماخ الأبرص: «شئتُ». أما من أفعال لاهوته، فتكثير الخبزات وشفاء الأبرص، فإنه يتفاعل النفس والجسد المتبادل قد اتَّضح الفعل الإلهي بأنه واحد وأنه هو في مصدره وأنه متساو. فكما نعرف أن الطبيعتين متحدتان، وأن لهما التفوذ إحداهما في الأخرى، وأننا لا نذكر تباينهما، بل نعدّهما ونعرفهما غير منقسمتين، كذلك أيضاً نعرف ارتباط المشيتين والفعلين ونقرّ بتباينهما ونعدّهما ولا ندخل فيها انقساماً. فعلى نحو ما قد تأله جسده ولم يزل طبيعته تغيير، فعلى هذا النحو ذاته، إن المشية والفعل قد تألّها ولم يخرجها عن حدودهما، لأنّ هذا وذاك واحد ولأنه هو نفسه الذي يشاء ويفعل على هذا النحو وعلى ذاك النحو أي إلهياً وبشرياً.

نتيجة الطبيعتين تمييز الأفعال: - يتحمّ إذاً علينا أن نتكلّم عن فعلين في المسيح بسبب ثنائية الطبيعة. فمن كانت طبيعتهم مختلفة يكون فعلهم أيضاً مختلفاً. ومن كان فعلهم مختلفاً تكون طبيعتهم مختلفة. وبالعكس ذلك، من كانت طبيعتهم هي، يكون فعلهم واحداً، ومن كان فعلهم واحداً يكون جوهرهم واحداً، على ما جاء في الآباء المتكلمين بالله. وعليه يجب اختيار واحد من اثنين: إما أن القائلين بفعل واحد في المسيح يقولون بالجوهر الواحد أيضاً، وإما - وإذا بحثنا عن الحقيقة - نعرّف مع الإنجيل والآباء بالجوهرين، متبئينهم في إجماعهم على الاعتراف بالفعلين المناسبين لهما. فمن كان مساوياً لله الأب في الجوهر يكون مساوياً له بالفعل أيضاً، وهو نفسه لما كان مساوياً لنا في الناسوت، فهو مساو لنا بالفعل. ويقول المغبوط غريغوريوس أسقف نيصص: «من كان فعلهم واحداً حتماً تكون قوتهم نفسها متساوية». لأنّ كلّ فعل نتيجة قوة، ولا يمكن وجود طبيعة واحدة أو قوة واحدة أو فعل واحد من طبيعة غير مخلوقة ومخلوقة. وإذا قلنا بفعل واحد في المسيح، فننسب للاهوت المسيح آلام نفسه العاقلة أعني الخوف والحزن والتزع.

الكتاب الثالث

اعتراضات الأخصام والرد عليها : - وإذا قالوا بأن الآباء القديسين - في جدهم في الثالوث الأقدس - قد أعلنوا : « إن الذين جوهرهم واحد يكون فعلهم أيضاً واحداً ، والذين جوهرهم متباين يكون فعلهم أيضاً متبايناً » ، وإنه لا يجوز أن نقل إلى التدبير ما يختص بعلم اللاهوت ، فنجيب : لو كانت أقوال الآباء في اللاهوت وحسب ، ولو كان فعل الابن - بعد التجسد - ليس فعل الآب نفسه ، لكان جوهره أيضاً ليس جوهر الآب نفسه . ولمن إذاً ننسب هذا القول : « إن أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل » (٣٨) ، وأيضاً : « ما يرى الآب يعملهُ ... فهذا يعملهُ الابن أيضاً على مثاله » (٣٩) ، وأيضاً : « إذا لم تؤمنوا بي فآمنوا بأعالي » (٤٠) ، وأيضاً : « الأعمال التي أنا أعملها تشهد لي » (٤١) ، وأيضاً : « لأنه كما أن الآب يُقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن يحيي من يشاء » (٤٢) . فإن هذه كلها ليست تُظهر - بعد تجسده - تساويه للآب في الجوهر فحسب ، بل هي تُظهر فعله أيضاً . وأيضاً لما كانت العناية بالكائنات - بعد التجسد - لا تختص بالآب والروح فحسب ، بل هي تختص أيضاً بالابن ، وبما أن - بعد التجسد - هذا أيضاً فعل ، فإن فعل الابن هو فعل الآب أيضاً .

وإذا كنّا نعرف من عجائب المسيح أنه مساو للآب في الجوهر ، وكانت العجائب فعل الله ، إذاً فإن فعل المسيح - بعد تجسده - هو فعل الآب .

لو كان فعل لاهوته وفعل جسده واحداً لكان هذا الفعل مركباً ، ولكان للآب فعل آخر أو كان الفعل مركباً . ولو كان فعل الآب مركباً لكانت طبيعته أيضاً كذلك !!!

وإذا زعموا بأن الأقنوم يُستنتج من الفعل فنجيب : - لو كان الأقنوم يُستنتج من الفعل لكان - بموجب المنطق السليم - يُستنتج الفعل أيضاً من الأقنوم . وحيثُذ ، كما أن وجوه الثالوث الأقدس أو أقانيمه ثلاثة ، تكون كذلك الأفعال ثلاثة ، أو كما أن الفعل واحد يكون الفعل أو الأقنوم كذلك واحداً . لكن الآباء القديسين قد قالوا بصوت واحد : - إن كان جوهرهم واحداً فيكون فعلهم واحداً .

وأيضاً ، لو أن الأقنوم يُستنتج من الفعل لكانت الأحكام القاضية بالسكوت عن فعل أو فعلين في المسيح لا تحدّد القول بأقنوم أو أقنومين .

(٤١) يوحنا ١٠: ٢٥

(٤٠) يوحنا ١٠: ٣٨

(٣٩) يوحنا ٥: ١٩

(٣٨) يوحنا ٥: ١٧

(٤٢) يوحنا ٥: ٢١

مثلُ مألوف لدى باسيليوس وغيره : - وكما تُصان طبيعتا النار والحديد في السكّين المحمّاة كذلك فعلاهما أيضاً وتناغمهما . لأنّ الحديد يبقى له قطعه والنار حرقها . والقطع نتيجة فعل الحديد ، والحرق نتيجة فعل النار . ويسلم تباينها في القطع الحارّ وفي الحرق القاطع ، حتى أنه - بعد الاتحاد - لا يكون حرقٌ بدون قطع ولا قطعٌ بدون حرق . ومع ذلك فإننا لا نقول بسكّينين حارقتين بسبب ازدواج الفعل الطبيعي ، ولا نعمل على خلط فارقهما الجوهريّ بسبب وحدة السكين الحارقة . وهذا هو الحاصل أيضاً في المسيح . لأنّ فعله الإلهي القدير يعود إلى لاهوته وفعله الذي هو على مثالنا يعود إلى ناسوته . ونتيجة الناسوت بأن أمسك بيد الصبيّة وأنهضها . ونتيجة اللاهوت أن أحيّاها ^(٤٣) ، فإنّ هذا الفعل شيء . وذلك شيء آخر ، وإن كان الفعلان لا يفرقان أحدهما عن الآخر في تصرّف الرجل - الإله . فلو كان أنه بسبب أن أقنوم الرب واحد كان فعله واحداً ، لكان أيضاً أنه بسبب وحدة الأقنوم أنّ الجوهر أيضاً واحد .

وأيضاً إذا قلنا بفعل واحد في المسيح نضطرّ إلى القول بأنه إلهي أو بأنه بشري أو بأنه لا هذا ولا ذاك . فإذا قلناه إلهياً نعرّف بأن المسيح إله فقط مجرد عن الناسوت الذي هو فينا . وإذا قلناه بشرياً نكفر بقولنا إنه مجرد إنسان . وإذا قلناه لا إلهياً ولا بشرياً ، أي لا إلهاً ولا إنساناً فلا يكون مساوياً في الجوهر لآله الأب ولا لنا . - إنّه هوّة المسيح قد تكوّنت من اتحاده في أقنومه بالجسد ، ولم يزل تباين الطبيعتين باقياً . ومن الواضح أنه ، بسلامة تباين الطبيعتين ، سلّم فعلاهما أيضاً ، لأن لا طبيعة بلا فعل .

الفعل الطبيعي دليل على الطبيعة : - لو كان فعل المسيح واحداً لكان إمّا مخلوقاً أو غير مخلوق ، ولا ثالث بينهما ، وكذلك قلّ عن الطبيعة . فإنّ القول بأنه مخلوق يوضح الطبيعة المخلوقة وحدها ، والقول بأنه غير مخلوق يميّز الجوهر غير المخلوق وحده ، لأنّه يتحقّق على الطبيعتين أن تتجاوب مع الطبايع ، فلا يمكن أن يكون وجوداً لطبيعة ناقصة . والفعل الذي هو بحسب الطبيعة لا يكون من خارج . وواضح أنّ الطبيعة لا يمكنها أن تكون ولا أن تُعرّف بدون الفعل الذي هو بحسب الطبيعة . ومن ثمّ كلّ تأكيد طبيعته من فعله . وهذا لا مهرب منه .

ولو كان فعل المسيح واحداً لكان هو نفسه صانع الإلهيات والبشريات . ولكن لا يمكن

(٤٣) راجع لوقا ٨ : ٥٤ - ٥٥

الكتاب الثالث

أحد الكائنات - مع بقاءه في مستوى طبيعته - أن يصنع المتناقضات. فإن النار لا تبرّد وتسخّن، ولا الماء ييبس ويرطب. فكيف إذاً من هو إله طبعاً وصار إنساناً طبيعة يمكنه أن يصنع المعجزات وأن يحمل الآلام بفعل واحد؟

وعليه، إذا كان المسيح قد اتخذ عقلاً بشرياً - أي نفساً عاقلة وناطقة - فإنه يعقل حتماً ويعقل دوماً. وفعل العقل التفكير. فالمسيح إذاً يعمل بصفته إنساناً ويعمل دوماً.

آلام المسيح فعل: - إن القديس العظيم يوحنا الذهبي الفم الجزيل الحكمة - في العظة الثانية من تفسيره أعمال الرسل - يقول هكذا: «لا يخطأ من يسمي آلام المسيح عملاً. لأن المسيح، في احتمالها كلها، قد أنجز ذلك الصنيع العظيم العجيب بتحطيمه الموت وصنعه الأشياء الأخرى كلها».

مرّد أفعال المسيح عموماً إلى الصورتين كليهما: - لما كان التقليد لدى الأرباب في الموضوع أن كل فعل هو الحركة الجوهرية لطبيعة ما، فأين رأى أحد قط طبيعة بلا حركة، أو بدون فاعلية البتة، أو أين وجد فعلاً خالياً من حركة قوته الطبيعية؟ فأن يكون فعل الله الطبيعي وفعل خليقته واحداً لا يسلم به ذو المنطق السليم، على ما قاله كيرلس المغبوط. فإن الطبيعة البشرية لم تمنح الحياة لألغاز، والقدرة الإلهية لا تنبكي، لأن الدمع خاص بالناسوت، والحياة هي من اختصاص الحياة الأقيومية. لكن كلاً من هذه وتلك في الاشتراك معاً بسبب وحدة هوية الأقيوم. فإن المسيح واحدٌ وواحدٌ هو وجهه أو أقنومه. لكنه مع ذلك حاصلٌ على طبيعتين، لاهوته وناسوته. فمن اللاهوت إذاً يصدرُ المجد صدوراً طبيعياً، ويشملها كليتها بسبب وحدة هوية الأقيوم، ومن الجسد تصدر الضعة التي تشملها كليتها أيضاً. ولأن هذا وذاك نفسيهما واحدٌ أيضاً - أي الإله والإنسان - فيخص هذا الواحد - ما لللاهوت وما للناسوت. فمن جهة يعمل اللاهوت المعجزات، ولكن ليس من دون الجسد، ومن جهة أخرى يعمل الجسد الأمور الوضيعة، ولكن ليس بمعزل عن اللاهوت. فإن اللاهوت الذي استمر لا يتألم كان متحداً بالجسد المتألم، والآلام أنجزت الأعمال الخلاصية. وكان العقل المقدس الناظر إلى ما يحدث والمدرّك لها يعمل متحداً بلاهوت الكلمة.

فإن اللاهوت كان يطفو بمفاخره الخاصة على الجسد ويبقى هو نفسه مَرْتَهاً عن الآلام الجسد. فليس كما كان يفعل اللاهوت بالجسد كان كذلك جسده يتألم بلاهوته، لأن

الجسد هو بمثابة آلة لللاهوت . وعليه ، إذا كان المسيح منذ بدء الجبل به غير منفصل البتة من كلتا صورتين ، بل كانت أعماله - في المدة كلها - صادرة من شخص واحد بموجب كلتا صورتين ، فإننا مع ذلك لا نخلط في حال من الأحوال ما قد صار بلا انفصال ، بل نشعر - من صفة الأعمال - ما هي ومن أية صورة هي .

كان الناسوت يفعل بمبادرة من اللاهوت : - وعليه فإن المسيح كان يفعل بحسب كل طبيعته وكانت تفعل كل طبيعة بالاشتراك مع الأخرى . وكانت المبادرة للكلمة في عمل ما يختص بالكلمة وكان الأمر والسلطة لللاهوت في كل ما هو سيطرة وتملك . أما الجسد فكان يعمل بأمر الكلمة المتحد هو به - وقد أصبح هو شيئاً خاصاً به ، فلم ينطلق من ذاته إلى الآلام الطبيعية ولا كان له من ذاته النفور والاستنجاد من المخزئات أو مماداهم من خارج ، بل سار في مساق الطبيعة حين شاء الكلمة وأطلق له - بحسب تدبيره - أن يتألم ويعمل ما يختص به ، لكي تفوز الحقيقة بالثقة بواسطة أعمال طبيعته .

كان المسيح ينجز البشريات بطريقة إلهية ، والإلهيات بطريقة بشرية : - وكما تجوهر - في الجبل به - تجوهرأً فوق الجوهر ، كذلك كان يعمل أعمال البشر بما يفوق الإنسان . فقد مشى على الماء السائل بأقدام ترابية - والماء باقى على حالته غير الترابية - لكنه انتصب واقفاً بقوة لاهوته الفائقة الطبيعة على ما قد نحمد من ماء ، دون أن يهوي تحت ثقل قدميه الماديتين . فلم يكن يعمل الأعمال البشرية على الطريقة البشرية ، لأنه لم يكن إنساناً فحسب ، بل إلهاً أيضاً . ولذا فقد كانت آلامه محيية وخلصية . ولم يكن يعمل الإلهيات على طريقة الله ، لأنه لم يكن إلهاً فحسب ، بل إنساناً أيضاً . ولذا فباللمس والكلام وغيرهما كان يصنع المعجزات .

جواب ذوي المشيئة الواحدة : - وإذا قالوا بأننا لسنا نقول بفعل واحد في المسيح لإزالة الفعل البشري ، بل ذلك لأنه مسلمٌ به أن الفعل البشري انفعالٌ يتناقض مع الفعل الإلهي ، فهذا المعنى نقول بفعل واحد في المسيح . ونحن نجيبهم على حسب منطقهم هذا : - إن القائلين بطبيعة واحدة هم أيضاً لا يقولون بها لإزالة الطبيعة البشرية ، بل ذلك لأن الطبيعة البشرية في تناقض مع الطبيعة الإلهية المقول فيها بأنها منفصلة . أما نحن فحاشا لنا أن ندعو الحركة البشرية انفعالاً تبعادها عن الفعل الإلهي ، بل نقول ، على الإطلاق ، بأنه ليس من وجود يُعرف ويحدد بالمقابلة أو بالمعارضة مع غيره لأن بذلك تصبح الأعمال الكائنة نسبياً العلة . فإذا كان ، بسبب أن الحركة الإلهية فعل ، تكون الحركة البشرية انفعالاً ، فللسبب

نفسه تكون أيضاً الطبيعة الإلهية حتماً سالحة، وتكون الطبيعة البشرية سالحة. وبموجب قاعدة العكس بالعكس، لسبب أن الحركة البشرية تُسمى انفعالاً، تسمى الحركة الإلهية فعلاً. ولذلك تكون الطبيعة البشرية سالحة والطبيعة الإلهية سالحة. وهكذا تكون كل المخلوقات سالحة، ويكذب القائل: «ورأى الله جميع ما صنعه، فإذا هو حسن جداً» (٤٤).

الأسماء المختلفة الدالة على الفعل البشري: - ونحن نقول بأن الآباء القديسين قد سمّوا الحركة البشرية تسميات كثيرة المظاهر بالنظر إلى ما لديهم من اعتبارات. فقد سمّوها قوةً وفعلاً وتبانياً وحركةً واختصاصاً وصفةً وانفعالاً. وهي قوة، لا على أنها نقيض القوة الإلهية، بل على أنها طاقة مستمرة لا تتغير. وهي فعل لأنها تميز وتُظهر في ذاتها اللاتغيير الحاصل في جميع مماثلها. وهي تبانٍ، لأنها تميز وهي حركة لأنها تشهير. وهي اختصاص، لأنها لذاتها وحدها وليس لغيرها. وهي صفة، لأنها تدل على ذاتها. وهي انفعال لأنها متحركة. فإن كل ما هو من الله وبعد الله ينفع لأنّه محرّك، ذلك لأنّ حركته ليست في ذاته ولا قوته منه. وهي ليست حتماً من تميز، كما قيل، بل هي بسبب العلة المنظّمة الكل التي صنعتها فيه. ولذا فإنّ الآباء القديسين - بعد أن تكلموا عن الفعل الإلهي - سمّوا هذه الحركة فعلاً، لأن القائل: وتُفعل كل صورة منها بالاشتراك مع الأخرى، لم يقل سوى ما قاله غيره: «فصام أربعين يوماً، وأخيراً جاع» (٤٥). لأنّ المسيح - حين شاء - أعطى للطبيعة أن تفعل ما يختص بها. أو قال بعضهم: «إنّ في المسيح فعلاً مختلفاً» أو «فعلاً مزدوجاً» أو «فعلاً وفعلاً». وكل هذا يدل باختلاف الاسم إلى فعلين اثنين، وكثيراً ما يعرف العدد باختلاف التسمية وبالقول «إلهياً وبشرياً» فإنّ الخلاف خلافٌ مختلفين. أمّا غير الموجودات فكيف تختلف؟

الردّ على من إذا قالوا بطبيعتين وفعلين في الإنسان،
يجب القول بثلاث طبائع وكذلك بثلاثة أفعال في المسيح

كيف الإنسان هو من طبيعتين: - أجل، إن الإنسان، في كل شيء، مركّب من طبيعتين هما النفس والجسد وهما فيه لا يتغيران ويُدعيان بحق طبيعتين. وتحتفظ كلّ منهما - بعد الاتحاد أيضاً - بخاصّتها الطبيعية. فإنّ الجسد ليس خالداً بل فاسد، ولا النفس ماثلة بل خالدة. فليس الجسد غير منظور ولا النفس منظورة بالأعين الجسديّة. لكنّ هذه ناطقة وعاقلة ولا جسميّة، وذلك كثيفٌ ومنظورٌ وحيوانيٌّ. والتميّز في جوهرهم ليسوا من طبيعة واحدة. إذاً فإنّ النفس والجسد ليسا من جوهر واحد.

أضف إلى ذلك أنه إذا كان كل إنسان حيواناً ناطقاً ومائتاً، وإذا كان كل تحديد يُبيّن الطبائع الدفينة وإذا كان - على حسب مفهوم الطبيعة - ليس الناطق شيئاً واحداً مع الماثت، إذاً فإنّ الإنسان ليس من طبيعة واحدة، بحكم شريعة التحديد المألوف.

كل البشر من طبيعة واحدة أي من نوع واحد. وكلّ المخلوقات كذلك. أمّا المسيح فليس البتّة من طبيعة واحدة: - وإذا قيل أحياناً إنّ للإنسان طبيعةً واحدةً، فإنّ كلمة طبيعة تؤخذ هنا بمعنى كلمة نوع، عندما نقول بأنّ الإنسان لا يختلف عن أي إنسان آخر بفارق من طبيعته، فإنّ لجميع الناس البنية نفسها، وهم مركّبون من نفس وجسد، وكلّ منهم متكامل بطبيعتين ويلتقون كلّهم في تحديد واحد. ولسنا نغالي بهذا الكلام إذ «إنّ لكلّ المخلوقات - من حيث هي مخلوقة - طبيعةً واحدة»، كما قال الكاهن القديس أنثاسيوس في خطابه ضدّ المجدّفين على الروح القدس. وقد تابع كلامه قائلاً: «وإنّ الروح القدس فوق الخليقة، وله غير طبيعة المبروءات، وله أيضاً أن يسبّر ما هو خاصّ باللاهوت». فإنّ كلّ ما يُرى شاملاً الكثيرين بدون زيادة في هذا ولا نقصان في ذاك يدعى جوهرًا. إذاً، ولما كان كل إنسان مركّباً من نفس وجسد، فبناؤه على ذلك يُقال بأنّ طبيعة البشر واحدة. أمّا في أقوم الربّ، فلا نستطيع القول بطبيعة واحدة، أولاً، لأنّ - بعد الاتحاد أيضاً - كلّاً من الطبيعتين تحتفظ باختصاصاتها الطبيعيّة. ثانياً، لأنّه لا يمكن أن يوجد نوع من مسحاء، فإنه لم يكن مسيحٌ آخر من لاهوت وناسوت هو نفسه إلهٌ وإنسان.

أضف إلى ذلك أنه ليس شيئاً واحداً الفرد في نوع الإنسان والفرد في جوهر النفس والجسد. فإن الفرد في نوع الإنسان هو ما لا يتغير في جميع البشر. أما الفرد في جوهر من نفس وجسد فيزول وجودهما نفسه بدفعهما تماماً إلى اللاوجود، ذلك بأن الفرد يستحيل إلى جوهر غيره أو هما بصيران من شيئين شيئاً آخر فينصهران كلاهما أو في حال بقائهما على حديهما الخاصين يكونان طبيعتين اثنتين. فإن الجسم - على مستوى الجوهر - ليس هو واللاجسم شيئاً واحداً. إذاً ليس من ضرورة لمن يقولون بطبيعة واحدة في الإنسان - وذلك ليس لأن صفة النفس والجسد الجوهرية هي ذاتها، بل لوجود ما لا يتغير في الأفراد الواقعين تحت النوعية - أن يقولوا بطبيعة واحدة في المسيح، حيث ليس ثمة نوع يشمل أقانيم كثيرة.

وإن كل تركيب، على ما يقال أيضاً، يتركب من مركباته المباشرة، فلنستأخذ مثالاً البيت يتركب من تراب وماء، بل من آجر وخشب، وذلك لثلاث نواحي إلى القول بأن الإنسان مصنوع أقله من خمس طبائع هي العناصر الأربعة والنفس. وكذلك أيضاً في ربنا يسوع المسيح. فإننا لا ننظر إلى أجزاء أجزائه، بل إلى مركبيه المباشرين اللاهوت والناسوت.

إذا كنّا نحن من طبيعتين، فإن المسيح هو من ثلاث طبائع : - وإذا قلنا أيضاً بطبيعتين في الإنسان، فنضطر إلى القول بثلاث طبائع في المسيح. ونحن عندما نقول إن الإنسان من طبيعتين، نعتقد أن المسيح من ثلاث طبائع. وكذلك قل عن الأفعال، لأنه من الضرورة أن يكون لكل طبيعة فعلها. و«الإنسان يُقال له وهو من طبيعتين - يشهد بذلك ويثبته غريغوريوس اللاهوتي قائلاً: والطبيعتان هما الإله والإنسان -، النفس والجسد». ويقول في كلامه في المعمودية: «لما كنّا مزدوجين، نفساً وجسداً، من طبيعة غير منظورة وطبيعة منظورة، فإن التنقية هي أيضاً مزدوجة، بالماء والروح».

١٠٦٨ - ١٠٧٢ • الرأس السابع عشر • المقالة الحادية والستون

في تأله طبيعة جسد الرب ومشيته

في تأله جسد المسيح : - واعلم أنه يقال بأن جسد الرب قد تأله وصار مساوياً لله وصار إلهاً ، ليس أنه تعرض لتبديل في الطبيعة أو تحويل أو تغيير أو تبليبل ، بل ذلك - كما يقول غريغوريوس اللاهوتي - « إن أحدهما قد آله والآخر قد تأله ، وكلاهما متساويان في اللاهوت والماسح صار إنساناً والممسوح إلهاً » . ذلك ، ليس بتبديل طبيعة ، بل باتحاد تدبيري ، أعني الاتحاد في الأقنوم الذي به اتحد الجسد بلا انفصال بالله والكلمة والذي هو نفوذ كل من الطبيعتين في الأخرى ، على نحو ما نتكلم أيضاً عن نفوذ النار في الحديد . وكما نعرف أن الثأنس قد حصل بمعزل عن التبديل والتحويل ، نعتقد أيضاً أن تأله الجسد قد حصل كذلك ، لأن الكلمة - ولو صار جسداً - فهو لم يبتعد قط عن أرجاء لاهوته الخاص ولا عن مفاخره المرتبطة بلاهوته عن جدارة . والجسد كذلك - لما تأله - لم يتحول عن طبيعته الخاصة أو عن اختصاصاته الطبيعية . فإن طبيعتي المسيح قد بقيتا - بعد الاتحاد أيضاً - غير منصهرتين ، وخواصها غير مخلومة ، لأن جسد الرب قد اكتسب الأفعال الإلهية بسبب اتحاده الأظهر بالكلمة - أي في الأقنوم - دون أن يتخلى البتة عن خواص طبيعته من جراء تأقنمه . فهو يفعل الإلهيات ، لا بموجب النشاط الخاص به ، بل بسبب الكلمة المتحد هو به . كما أن الحديد المحمى بالنار يحرق ، لأنه حاصل من جراء طبيعته على قوة الحرق ، بل لأنه قد اكتسب ذلك من اتحاده بالنار .

في أن المشيئة البشرية قد تألهت أيضاً : - إذا فإن الجسد نفسه الذي كان مائتاً في ذاته ، قد أضحي حياً من جراء اتحاده أقنومياً بالكلمة . وبالمثل نقول أيضاً : إن تأله المشيئة لم يكن عن تبديل في حركتها الطبيعية ، بل كان ذلك لأنها اتحدت بمشيئة الكلمة الإلهية الكاملة القدرة ، فأصبحت مشيئة الإله المتأنس . ومن ثم لما أراد المسيح مرة أن يتنكر ، لم يستطع ذلك من ذاته ، فقد سر كلمة الله حينئذ أن يظهر ضعف المشيئة البشرية الكامنة فيه ^(٤٦) وأنجز مرة أخرى تطهير الأبرص بسبب اتحاده بالمشيئة الإلهية ^(٤٧) .

(٤٦) راجع متى ٨ : ٣

(٤٧) راجع مرقس ٧ : ٢٤

واعلم أنَّ تأليه الطبيعة والمشيئة لدليل وبرهان ساطعان على أنَّ الطبيعتين إثنان والمشيئتين
 إثنان. فكما أنَّ الإجماع لا يُحوّل طبيعة الشيء المحمّي إلى طبيعة النار ، بل هو يدل على
 المحمّي والمحمّي ، ولا يدل على واحد لا غير ، بل على شيئين اثنين ، كذلك التأليه أيضاً ، فهو
 لا يؤلّف طبيعة مركّبة واحدة ، بل اثنتين وذلك باتحادهما في الأقنوم. لذلك بقول
 غريغوريوس اللاهوتي : «إنَّ واحداً منها يؤلّه والآخر يتألّه». وبقوله «منهما» يظهر بأنهما
 اثنان : الواحد والآخر.

عودة إلى الكلام عن المشيئين والاستطاعتين والعقلين والمعرفتين والحكمتين

إن الطبيعة البشرية - وقد اتخذها المسيح - قد أضحت هي المنتصرة على الشيطان : -
 لما كنا نقول بأن المسيح إله كامل وإنسان كامل، فيفتحتم علينا أن نُسلم تسليمًا تامًا بأن
 له من القوى الطبيعية كل ما هو للأب ولأُمه. فإن المسيح قد صار إنسانًا لكي ينتصر ما كان
 مقهوراً. والذي هو قادر على كل شيء لم يكن عاجزاً - نظراً إلى مطلق حريته وقدرته - أن
 ينتصر بذاته للإنسان من الطاغية. ولكن ذلك يكون عرضة لاحتجاج الطاغية على أنه
 - وقد كان المنتصر على الإنسان - قد أصبحت الغلبة لله. إذاً فلكي يُظهر الله المغلوب
 منتصراً، فقد شاء برأفته ومحبه للبشر أن يصير إنساناً ليُصلح المثل بالمثل.

إن للمسيح نفساً وعقلاً، خلافاً لقول الأبوليناريين : - وليس ثمة من يعترض على أن
 الإنسان حيوان ناطق وعاقل. - إذاً كيف يكون المسيح إنساناً، إذا كان قد اتخذ جسداً بلا
 نفس أو نفساً غير عاقلة؟ ... - إن من كان هكذا فليس هو إنساناً ! - وماذا نريج من
 تأنس المسيح إذا كان أول المتألمين لم يخلص ولم يتجدد ويتقرب بارتباطه باللاهوت؟ فإنه
 ليس من شفاء لمن لم يتخذ المسيح ! وعليه، فقد اتخذ المسيح الإنسان كله مع أجمل ما فيه،
 ولو ساقطاً تحت الضعف - لكي يهبه الخلاص كله. وإنه لم يكن قط عقل بلا حكمة وخالٍ
 من المعرفة. فإذا كان العقل بلا نشاط ولا حركة فهو غير موجود البتة.

العقل في الإنسان المخلوق على صورة الله وسط بين كلمة الله والجسد : - إذاً لما أراد
 الله الكلمة أن يجدد فينا صورة الله، صار إنساناً. - وما هي يا ترى صورة الله سوى
 العقل؟ ... إذاً أيكون الكلمة قد أعرض عن الأفضل واتخذ الأدنى؟ ... فإن العقل في وسط
 بين الله والجسد. ونسبته إلى الجسد أنه ساكن فيه. أما نسبته إلى الله فهو على صورته. إذاً فإن
 العقل يختلط بالعقل ويقف في الوسط بين صفاء الله وكثافة الجسد. فلو كان الرب قد اتخذ
 نفساً غير عاقلة، لكان اتخذ نفساً حيوان بلا نطق !

جواب من الكتاب المقدس على اعتراض الأبوليناريين : - إذا كان الإنجيلي قد قال بأن
 «الكلمة صار جسداً»، فليكن معلوماً أنه يُقال في الكتاب المقدس عن الإنسان تارة
 نفساً - كما ورد في سفر التكوين، وكرره كتاب الأعمال : «وأرسل يوسف فاستدعى

يعقوب أباه وجميع عشيرته خمسة وسبعين نفساً^(٤٨) - وتارة جسداً - كما جاء في أشعيا^(٤٩) ولوقا: «ويعاين كل جسد خلاص الله»^(٥٠). فلم يصر الربُّ إِذْ جَسداً بلا نفس وبلا عقل، بل صار إنساناً. وهو نفسه يقول: «تطلبون قتلي وأنا إنسانٌ قد كلمتكم بالحق»^(٥١) إِذْ فَإِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ اتَّخَذَ جَسداً حَيًّا بِنَفْسٍ نَاطِقَةٍ وَعَاقِلَةٍ، هِيَ تَقْوِدُ الْجَسَدَ وَيَقْوِدُهَا لَاهُوتُ الْكَلِمَةِ.

إرادة المسيح البشرية خاضعة لإرادته الإلهية: - كانت إِذْ لِلْمَسِيحِ الْإِرَادَةُ الطَّبِيعِيَّةُ، إِنَّ بَصْفَتَهُ إلهًا وَإِنْ بَصْفَتَهُ إِنْسَانًا. وَكَانَتِ الْبَشَرِيَّاتُ فِيهِ تَسِيرُ بِقِيَادَةِ إِرَادَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ، غَيْرَ مَدْفُوعَةٍ بِزُعَةِ خَاصَّةٍ، بَلْ مَرِيدَةٌ مَا كَانَتْ تَشَاوُهُ إِرَادَتُهُ الْإِلَهِيَّةُ. فَلَمَّا أَطْلَقَتْ لَهَا الْمَشِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ السَّبِيلَ، تَأَلَّمَتْ هِيَ تَأَلُّمًا طَبِيعِيًّا فِي حُدُودِ مَا يُخْتَصُّ بِهَا. وَلَمَّا اسْتَعْفَى الرَّبُّ مِنَ الْمَوْتِ كَانَ ذَلِكَ اسْتِعْفَاءً طَبِيعِيًّا، بِإِرَادَةٍ وَسَمَاحٍ مِنْ مَشِيَّتِهِ الْإِلَهِيَّةِ. فَاسْتَعْفَى إِذْ مِنْ الْمَوْتِ وَنَارِ وَجْزٍ. وَلَمَّا أَرَادَتْ مَشِيَّتُهُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ تَقْبَلَ الْمَوْتَ مَشِيَّتُهُ الْبَشَرِيَّةُ، كَانَتْ الْآلَامُ بَرُضِيٍّ مِنْهَا. فَإِنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَسَلِّمْ ذَاتَهُ لِلْمَوْتِ طَوْعًا، عَلَى أَنَّهُ إلهٌ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ إِنْسَانٌ أَيْضًا. وَقَدْ مَنَحْنَا أَنْ نَتَشَجَّعَ نَحْنُ أَيْضًا نَجَاهُ الْمَوْتَ وَهُوَ الْقَائِلُ قَبْلَ آلامِهِ الْخُلَاصِيَّةِ هَكَذَا: «يَا أَبَتِي، إِنْ كَانَ يُسْتَطَاعُ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ»^(٥٢). فَمِنْ الْوَاضِحِ إِذْ أَنَّهُ كَانَ سَيَشْرَبُ الْكَأْسَ بِبَصْفَتِهِ إِنْسَانًا وَلَيْسَ بِبَصْفَتِهِ إلهًا. فَهُوَ إِذْ، بِبَصْفَتِهِ إِنْسَانًا، قَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَبَعَدَ عَنْهُ الْكَأْسُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ عَنْ فِرْعَ طَبِيعِيٍّ. وَ«لَكِنْ لَا تَكُنْ مَشِيئَتِي» - أَيِ مَشِيئَتِي الْبَشَرِيَّةِ الْمَغَايِرَةِ لِمَشِيئَتِكَ فِي الْجَوْهَرِ -، «بَلْ مَشِيئَتُكَ» - أَيِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَسَاوِيَةِ طَبِيعِيًّا فِي الْجَوْهَرِ لِمَشِيئَتِي^(٥٣) - . فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا لِكَلِمَاتٍ صَادِرَةٍ عَنْ شَجَاعَةِ فَضْلِي، فَإِنَّ نَفْسَ الْمَسِيحِ قَدْ امْتَحَنَتْ أَوَّلًا فِي ضَعْفِهَا الطَّبِيعِيِّ، فِي شَعُورِهَا بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَسَدِ، مَعَ تَعَلُّقِهَا الطَّبِيعِيِّ بِهِ، وَقَدْ كَانَ الرَّبُّ قَدْ صَارَ إِنْسَانًا بِالْحَقِيقَةِ عَنْ رِضَىٍّ مِنْهُ، ثُمَّ تَقَوَّى نَجَاهُ الْمَوْتَ مَعْتَصِمًا بِالْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ. لِذَلِكَ فَقَدْ كَانَ هُوَ إلهًا كَامِلًا مَعَ تَأَنُّسِهِ، وَإِنْسَانًا كَامِلًا مَعَ لَاهُوتِهِ. وَهُوَ نَفْسُهُ - كَانِيسَانٌ - قَدْ أَخْضَعَ فِيهِ وَبِهِ الْإِرَادَةَ الْبَشَرِيَّةَ لِلَّهِ الْآبِ، بِأَذْلًا ذَاتَهُ مَثَالًا أَسْمَى، وَصَارَ خَاضِعًا لِلآبِ.

لا قيمة لعقل الإنسان إذا خلا من الإرادة: - وَإِنَّ الرَّبَّ قَدْ شَاءَ مَشِيَّةَ حَرَّةٍ بِإِرَادَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ الْحَرَّةَ قَدْ زُرِعَتْ عَمُومًا فِي كُلِّ طَبِيعَةٍ نَاطِقَةٍ. وَمَا الْفَائِدَةُ

(٥١) يوحنا ٨: ٤٠

(٥٠) لوقا ٣: ٦

(٤٩) أشعيا ٤٠: ٥

(٤٨) أَعَالِ ٧: ١٤

(٥٣) لوقا ٢٢: ٤٢

(٥٢) مَتَّى ٢٦: ٣٩

يا ترى من النطق إذا لم تكن الطبيعة الناطقة حرّة؟... فمن حيث إنّ الخالق قد بذّر في الحيوانات العجم نزعاً طبيعياً تقودها حتماً إلى قيام طبيعتها الخاصة، وهي، لخلوها من النطق، لا تستطيع القيادة، لكنّ النزع الطبيعيّ تقودها. لذلك، فع وجود النزع، يحصل الاندفاع فوراً نحو الإنجاز. وهو يتمّ بدون نطقٍ ما أو مشورة أو تبصّر أو حكم. ومن ثمّ فهي لا تُمتدح ولا تُطوّب لفضيلة سعت إليها، ولا تُعاقب لشرّ اقترفته. أمّا الطبيعة الناطقة فهي أيضاً لها نزعها الطبيعية تحركها ولكنّ المنطق يقودها وينظّمها على ما يحفظ ما هو بموجب الطبيعة، لأنّ ميزة النطق هي هذه: المشيئة الحرّة التي نسمّيها في المنطق الحركة الطبيعية. لذلك فهي تُمتدح وتُطوّب في سعيها إلى الفضيلة وتُذمّ في سعيها إلى الشرّ.

التمييز في المسيح بين الإرادتين الإلهية والبشرية: - فمن ثمّ لقد كانت نفس المسيح تشاء مسيرة تسييراً حرّاً، أي كانت تشاء لأنّ مشيئتها الإلهية قد كانت تشاؤها أن تشاء، لأنّ جسد المسيح لم يكن يتحرّك بإشارة من الكلمة. وموسى وسائر القديسين كانوا يتحركون بالإشارة الإلهية. لكنّ المسيح وحده - لكونه الهاً وإنساناً - كان يُصدر مشيئته بموجب طبيعته الإلهية والإنسانية. لذلك، فإنّ مشيئتي الرب لا تختلفان الواحدة عن الأخرى في رأيها، بل في قوتها الطبيعيّتين. فقد كانت مشيئته الإلهية بلا بدء وقادرة على كل شيء مع قوّة مناسبة لقدرتها ودون انفعال. أما مشيئته البشرية فقد ابتدأت في الزمن وهي نفسها قد قاست الآلام الطبيعية البريئة. ولم تكن بطبيعتها قادرة على كل شيء. ولكن - وقد أصبحت بالطبيعة وبالْحَقِيقَة إرادة كلمة الله - فقد صارت قادرة على كل شيء.

في الفعل الإلهي - البشري

شرحُ تعبير القديس ديونيسيوس في هذا الباب : - إنَّ السعيد ديونيسيوس - في كلامه عن المسيح الذي استوطن بيننا - لم ينكر عليه أفعاله الطبيعية ، لكنه قال فيه بفعل ما جديد إلهي وبشري ، حصيلة طبيعته الإلهية والإنسانية . وبهذا المعنى ، يمكننا القول معه بطبيعة واحدة جديدة حاصلة من طبيعته الإلهية وطبيعته البشرية ، لأنَّ منْ لهم فعلٌ واحدٌ ، على حسب رأي الآباء ، لهم أيضاً طبيعة واحدة . لكنَّ السعيد ديونيسيوس قد أراد بذلك أن يُظهر الطريقة الجديدة المعجزة البيان التي بموجبها صار ظهور أفعال المسيح الطبيعية نظراً إلى الطريقة المعجزة البيان - طريقة نفوذ طبيعته المسيح كل منها في الأخرى بالمبادلة - بما هو غريبٌ ومناقض للعرف البشري ونجمله طبيعة الكائنات وهو الطريقة المعجزة البيان في الاتحاد بتبادل العطاء الذاتي . فإننا لسنا نقول بفعلين منفصلين ولا بطبعيتين تعملان منفصلتين ، بل إنَّ كلاً منهما تشترك بالاتحاد مع الأخرى لتعمل ما هو من اختصاصها . فلم يكن المسيح يعمل البشريات بشرياً ، لأنه لم يكن إنساناً بسيطاً ، ولم يكن يعمل الإلهيات بصفته إلهاً فحسب ، لأنه لم يكن مجرد إله ، بل كان إلهاً وإنساناً معاً . وكما نعرف اتحاد الطبيعتين والفارق الطبيعي بينهما ، كذلك نعرف طبيعة المشيئين وفعلها .

فاعلم إذاً بأننا لما نتحدث عن ربنا يسوع المسيح ، يجري الكلام تارة عن طبيعتين وتارة عن شخص واحد . وهذا وذاك مردهما إلى فكرة واحدة ، لأنَّ الطبيعتين مسيحٌ واحدٌ والمسيح الواحد طبيعتان : إذاً فسيان أن يقال بأنَّ المسيح يعمل في كل من طبيعته أو أن يقال كل طبيعة في المسيح تعمل بالاشتراك مع الأخرى . فمن جهة إذاً تشترك الطبيعة الإلهية في فعل الجسد ، ذلك بارتضاء المشيئة الإلهية أن تسمح له بأن يتألم ويعمل ما يختصُّ به وبأن يكون فعل الجسد دائماً خلاصياً ، فإنَّ ذلك ليس من الفعل البشري ، بل الإلهي . والجسم من جهته يشترك في فعل لاهوت الكلمة ، كأتما الجسم آلة تنجزُ الأفعال الإلهية ، ولأنَّ الفاعل هو واحد يعمل معاً الإلهيات والبشريات .

عقل المسيح البشري بالنسبة إلى اشتراكه بالكلمة : - واعلم أنَّ عقل المسيح الأقدس - فيما هو يفعل أفعاله الطبيعية - يفظن ويعرف أنه هو عقل الله ، وأنَّ الخليفة كلها تسجد

له ، فهو يذكر تصرفاته على الأرض وآلامه وهو يشترك في أعمال لاهوت الكلمة الذي يُدبرُ ويسوس الكل . وتفكيره ومعرفته وتدبيره ليست كما يفعل عقل إنسان بسيط ، بل بصفته متحدًا أقنومياً بالله ، قد أصبح عقله عقل الله .

فعل المسيح الإلهي - البشري : - إذاً هذا ما يُظهره الفعل الإلهي - البشري وهو أن الله - وقد تأنس أي حلّ في إنسان - فعله البشري كان إلهياً أي متألهاً وذلك ليس بمعزل عن فعله الإلهي ، وفعله الإلهي ليس بمعزل عن فعله البشري ، بل يُشاهد كل منهما مع الآخر . وتسمى هذه الطريقة تعريضاً في الكلام ، ذلك عندما يجعل أحدهما لفظتين بلفظة واحدة . فكما نقول عن السيف المحمى بالنار أن حرقه قاطع وقطعه مُحرق ، مع أننا نتميز بين فعل القطع وفعل الحرق ناسبين هذا لطبيعة وذلك لأخرى - الحرق للنار والقطع للحديد - ، كذلك عندما نقول فعلاً واحداً في المسيح إلهياً - إنسانياً ، نفطن لفعل طبيعته ، فعله الإلهي لللاهوت ، وفعله الإنساني لناسوته .

في الآلام الطبيعية والبرية

لقد اتخذ المسيح آلامنا البرية. - ما هي الآلام البشرية الطبيعية التي لا ملامة فيها :
- ونعترف أن المسيح قد اتخذ كل آلام الإنسان الطبيعية والبرية ، لأنه قد اتخذ الإنسان كله ، وكل ما يختص بالإنسان ، ما عدا الخطيئة . فإن هذه ليست طبيعية والخالق لم يزرعها فينا ، لكنّها من زرع الشيطان . وهي مثبتة فينا باختيارنا طوعاً ، لا اقتحاماً بالقوة . أمّا الآلام الطبيعية والبرية فهي تلك التي ليست منوطة بنا وهي كلها قد دخلت في الحياة البشرية من جرّاء الحكم بالمخالفة وهي الجوع والعطش والتعب والوجع والبكاء والانحلال والاستغاثة من الموت والفرع والتزاع حتى تصبّب العرق وقطرات الدم والاستعانة بالملائكة بسبب ضعف الطبيعة وما شاكل ذلك ممّا هو موجود طبعاً في كل البشر .

وقد اتخذ إذاً المسيح كل هذا لكي يقدّسه كله ؛ إنه جُربَ وانتصر لكي يحقق لنا الانتصار ويُعطي طبيعتنا قوة بأن تغلب العدو ، حتى إنّ الطبيعة المغلوبة قديماً ، تغلب المنتصر قديماً بواسطة الرشقات نفسها التي كان قد غلبها بها .

كانت تجربة المسيح بدون نزعة داخلية : - إذاً فإن الشرير قد جُربَ المسيح تجربةً خارجيّة بدون إيحاءات ، ذلك كما فعل بآدم ، لأنّ آدم قد جُربَ ليس بإيحاءات ، بل بالحيلة . لكنّ الرب قد صدّ الهجوم وبدّده كالدخان ، حتى إنّ الانفعالات ، وقد صدّها هو وهزمها ، تصبح هي تحت سيطرتنا ، وبذلك يُنقذ آدم الجديد آدم القديم .

إنّ آلامنا هي في المسيح طبيعية وفوق الطبيعة : - لا شك في أنّ الآلام التي هي فينا بحسب الطبيعة ، كانت أيضاً في المسيح فوق الطبيعة . فقد كانت بحسب الطبيعة لمّا أطلق جسده أن يتألم في ما هو من اختصاصه ، وكانت فوق الطبيعة ، لأنّ الآلام الطبيعيّة في المسيح لم تسبق قط مشيئته ، فلم يوجد قط إكراه في تصرّفاته ، بل كانت كلها طوعيّة . فقد أراد فجاج وأراد فعطش وأراد فخاف وأراد فمات .

في الجهل والعبودية

إنّ نفس المسيح - نتيجة لاتحادها بلاهوت الكلمة - قد تحرّرت من كل جهل : - واعلم أنّ الكلمة قد اتخذ طبيعتنا الجاهلة والمستعبدة . لأنّ طبيعة الإنسان عبدة لله صانعها وليس لها معرفة المستقبلات . إذاً فعلى حسب قول غريغوريوس اللاهوتي ، إذا فصلت المنظور عن العقول ، نعتّ الجسد حينئذ بالعبودية والجهل . أمّا نفس المسيح فبسبب وحدة هويّتها مع الأَقنوم واتحادها به اتحاداً يستحيل فصله ، فقد اكتسبت معرفة المستقبلات كما اكتسبت المقدرة على صنع سائر الآيات الإلهية . فكما أنّ جسد البشر ليس محيياً بحسب طبيعته الخاصة ، وجسد الربّ المتحد أقنومياً بالله الكلمة - من جهة ، وبحسب طبيعته ليس معصوماً عن الموت ، ومن جهة ، قد صار محيياً بسبب اتحاده أقنومياً بالكلمة - لا يمكن القول بأنّه لم يكن ولا يزال دائماً محيياً ، كذلك النفس البشرية ، فمن جهة هي في جوهرها لا تملك معرفة المستقبلات ، أمّا نفس المسيح فبسبب اتحادها بالله الكلمة نفسه ، قد اكتسبت ، كما قلنا ، معرفة المستقبلات أيضاً مع صنع سائر الآيات الإلهية .

لا يمكن القول بأنّ المسيح عبدٌ . - رغم أنّ الطبيعة التي اتخذها عبدةً بحدّ ذاتها .

والقول بأنّ المسيح عبدٌ هرطقة نسطورية : - واعلم بأننا لا نستطيع تسمية المسيح عبداً ، لأنّ كلمتي عبودية وتسلّط ليستا تعريفاً لطبيعة ، بل لنية . وشأنها شأن الأبوة والبنوة . فإنّ هذا لا يدلّ على جوهر بل على حالة . إذاً ، فعلى نحو ما قلناه عن الجهل ، إذا أمكنك الفصل فيه بين المخلوق وغير المخلوق باجتهادات سامية وتصوّرات عقل دقيقة ، يكون جسد المسيح عبداً لو لم يكن متحداً بالله الكلمة . أمّا الذي اتحد دفعةً واحدة في الأَقنوم ، فكيف يكون عبداً ؟ - لأنّ المسيح لمّا كان واحداً ، فلا يمكنه أن يكون عبداً ذاته ورّبّاً . وهذه ألفاظ لا تصحّ عمّن كيانهم مستقلّ ، بل عمّن ينتسبون إلى غيرهم . إذاً فالمسيح عبدٌ من يكون ؟ - هل يكون عبد الآب ؟ - بالحقيقة كلا ! وإلّا ما كان كلّ ما هو للآب هو للابن ، إذا كان عبداً للآب ، ولا يمكن أن يكون عبداً لنفسه . ثمّ كيف يقول الرسول عنّا : «لست بعد عبداً بل ابن» (٥٤) ، نحن الذين صرنا به بنين ، إذا كان هو عبداً ؟ - إذاً فإنّ اسم

الكتاب الثالث

عبد يُطلق على المسيح ، ليس لأنه هو نفسه كذلك ، بل لأنه اتخذ لأجلنا صورة عبدٍ يسمّى عبداً معنا . وزعم أنه غير قابلٍ للآلام ، فقد استسلم للآلام وصار خادماً خلاصنا . والذين يُسمّون الرب عبداً يشطرون المسيح الواحد إلى اثنين ، على نحو ما فعل نسطوريوس . أمّا نحن فنعلن بأنه المتسلط ، رب الخليقة كلّها ، المسيح الواحد ، الإله والإنسان معاً والعالم بكل شيء . « المكنون فيه جميع كنوز الحكمة والعلم »^(٥٥) .

في التقدّم (في المسيح)

أجل ، إنه لوارد القول بأنّ المسيح « كان يتقدّم بالحكمة والسنّ والنعمة »^(٥٦) . ذلك أنه فيما كان ربنا يزداد سنّاً ، كان - وهو يزداد سنّاً - يكشف كشفاً تدريجياً الحكمة المكنونة فيه والتقدّم أيضاً الذي هو للناس في الحكمة والنعمة مع تتميمه مسرّة أبيه أي المعرفة الإلهية وخلاص البشر ، محققاً في ذلك تقدّمه الخاص ومختصاً لذاته في كل شيء بما هو لنا . أما الذين يقولون بأنّ تقدّمه في الحكمة والنعمة قائم بتقبّله زيادة إضافية منها ، فهم لا يقولون بأنّ الاتحاد كان منذ بدء وجود الجسد ، ولا يعتقدون بالاتحاد في أقنوم ، بل أظنهم يشعّذون مع نستور يوس الباطل ، بقولهم باتحاد شكليّ وبمجرد مساكنة ، « وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يثبتون »^(٥٧) . فإذا كان الجسد قد اتحد حقاً بالله الكلمة منذ بدء وجوده ، بل إنه قد ابتدأ فيه ونال فيه وحدته هوّيته الأقنومية ، فكيف هو لم يستملك استملاً كاملاً تاماً كلّ حكمة ونعمة ؟ والأمر ليس أنّ هذا الجسد قد اشترك بالنعمة أو حظي على نعمة مما هو للكلمة ، بل بالأحرى - بسبب الاتحاد في أقنوم - قد صارت البشريات والإلهيات مسيحاً واحداً . وعليه ، فإنّ ذلك نفسه الذي كان إلهاً وإنساناً معاً ، كان جسده ينبع النعمة والحكمة وبفيض الخبرات للعالم .

خوف المسيح

الخوف نوعان : الخوف الطبيعي ، كما هو في المسيح : - لكلمة خوف مفهومان . أولها الخوف الطبيعي وهو يكون عندما لا تشاء النفس الانفصال عن الجسد ، لأن الخالق قد وضع بينها وبينه منذ البدء تعلقاً ودالة طبيعيين . لذلك فهي تخشى الموت خشية طبيعية وتأباه بجزع . وإليك تحديد الخوف : إنه قوة في الطبيعة ترمي إلى المحافظة على سلامة الكائن . ولما كان الخالق قد أوجد الكل من العدم إلى الوجود ، فإن في الكل ميلٌ طبيعي إلى الوجود وليس إلى عدم الوجود . ونزعة الجميع إلى البقاء هي بموجب الطبيعة الخاصة لكل منهم . فإن الله الكلمة إذاً ، لما صار إنساناً ، كان له هذا الميل وكان يظهر الرغبة في بقاء طبيعته بالأكل والشرب والاستسلام للنوم ، وكانت له طبيعياً خبرة هذه الأمور . ومن جهة أخرى ، كان له النفور من المهلكات ، كما حدث من مقاومته الموت في وقت آلامه الطوعية . وإذا كانت الأمور قد أخذت مجراها بموجب الناموس الطبيعي ، لكنها لم تجر جرياً حتمياً على مثالنا . فإن المسيح قد تقبل بإرادته الأمور الطبيعية تقبلاً طوعياً . حتى إن الخوف نفسه والجزع والتراع هي أيضاً كانت لديه انفعالات بريئة لا يتخللها خطأ .

الخوف غير الطبيعي الذي لم يرتض به المسيح : - وهناك أيضاً خوفٌ ناتجٌ من تصوّرات خيانية وخداع وتوقع ساعة الموت ، على نحو ما نشعر ليلاً بخوف من مدهامة أحد . وهذا ضد الطبيعة ونقول في تحديده : الخوف ضد الطبيعة هو الفزع الخارج عن سيطرة العقل . وإن الرب لم يشعر بهذا الفزع . لذلك فهو لم يفزع قط سوى في حين آلامه ، ولو كان قد تجنّبها مرّات كثيرة ، كما كان يقتضيه تدبير خلاصنا . لأنه لم يكن يحهل الوقت المحدّد لذلك .

أما أن يكون المسيح قد خاف حقاً ، فاسمع ما يقوله القديس اثناسيوس ضد أبوليناريوس : « لذلك يقول الرب : الآن نفسي قد اضطربت » (٥٨) . فإن كلمة الآن تعني عندما كان يريد (الموت) ، كما لو كان يدلّ على وجوده . فإنه لم يتكلّم عن غير الموجود كأنه حاضر ، على نحو ما يحدث أن يُظنّ بالمقولات أنها وقائع ، لأن كل شيء كان يتمّ طبعاً

وحقيقة». ويقول في مقطع آخر: «لم يرتضِ اللاهوت قط بالآلام دون أن يكون التألم للجسد، ولم يظهر الاضطراب والحزن دون أن تحزن النفس وتضطرب، ولم يقلق ويصل، دون أن يقلق التفكير ويصلي. ولكن على الأقل إن هذه الأمور لم تحدث لضعف في الطبيعة، إنما كانت لإثبات وجود». فيتضح أن الأمور لم تحدث لضعف في الطبيعة لكونها لم تكن قسرية.

في صلاة الرب

ما هي الصلاة. وما معنى أَنْ المسيح قد صَلَّى : - الصلاة ارتفاع العقل إلى الله أو هي التماس احتياجاتنا منه تعالى. فكيف إذا قد صَلَّى الرب بشأن لعازر وفي وقت آلامه؟ لأنَّ عقله الأقدس لم يكن بحاجة إلى الارتفاع إلى الله، فإنه كان متحداً دفعة واحدة في أقنومه بالله الكلمة، ولم يكن بحاجة إلى الالتماس من الله، لأنه واحدٌ معه تعالى. لكنَّ المسيح - باختصاصه بشخصنا وبصيرورته مثلاً لنا - يجعله ذاته رسماً لنا - قد عَلَّمَنَا أن نلتمس من الله وأن نتوقَّ إليه، طارِقاً لنا بعقله الأقدس للارتقاء إلى الله. وكما أنه احتمل الآلام فقوَّانا للانتصار عليها كذلك قد صَلَّى أيضاً، طارِقاً لنا، كما قلنا، للارتقاء إلى الله، متمماً بذلك كل عدل لأجلنا، كما قال هو نفسه ليوحنا. واستعطف أباه نحونا، مكرماً إياه على أنه مبدؤه وعَلْتُهُ، فأظهر لنا بذلك أنه ليس مقاوماً لله. فهو عندما قال بخصوص لعازر: «يا أبتِ، أشكرك لأنك سمعت لي. وقد علمتُ أنك تسمع لي في كل حين. لكن قلت هذا لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني»^(٥٩)، أليس واضحاً للجميع كالزلال أنه بقوله هذا يُكرِّم أباه بصفته عَليته، ويعلن أنه ليس مقاوماً لله؟

ولمَّا قال: «يا أبتِ، إن كان يُستطاع فلتعبر عني هذه الكأس. لكن ليس كمشيقي بل كمشيئك»^(٦٠) أليس واضحاً هنا أنه يعلمنا بأن نستغيث في المحن بالله وحده، وأن نُفَضِّل المشيئة الإلهية على مشيئتنا، معلناً بذلك أنه بالحقيقة اختصَّ لذاته ما هو لطبيعتنا، ذلك أنَّ له مشيئتين بالحقيقة وهما طبيعتان، واحدة لكلٍّ من طبيعته، وهما فيه لا تتنافران؟ - وقد قال: يا أبتِ، لأنه مساوٍ للآب في الجوهر. وقال: إن كان يُستطاع، ذلك ليس لأنه يجهل ما يستطيعه الله، بل ليروضنا على إخضاع مشيئتنا لمشيئة الله. فإنَّ غير المستطاع هو وحده ما لا يُريده الله ولا يسمح به. وقال أخيراً: لكن ليس كمشيقي بل كمشيئك. فبما أنَّ المسيح إلهٌ، مشيئته هي مشيئة الآب نفسها. أما بما أنه إنسان فتظهر مشيئة ناسوته ظهوراً طبيعياً وهي ترفض الموت رفضاً طبيعياً.

(٦٠) متى ٢٦: ٣٩

(٥٩) يوحنا ١١: ٤١ وما يليها

أما قول المسيح : « إلهي إلهي لماذا تركتني ؟ » ، فعناه أن المسيح قد اختصَّ شخصنا ، فإن الآب لا يكون إلهه إلا إذا فصل العقل بتصورات دقيقة بين ما يرى وما يُعقل جاعلاً المسيح معنا في صفنا دون أن يفصله البتة عن لاهوته الخاص ، لكننا كنا نحن المهملين والمنسيين ، حتى إنه وقد اختصَّ شخصنا صلي الصلاة المذكورة .

الاختصاص

الاختصاص على نوعين : - إعلم أن الاختصاص على نوعين : الأول طبيعي وجوهري والثاني تمثيلي وشكلي . فالطبيعي والجوهري هو الذي بموجبه اتخذ الله بتعطفه طبيعتنا وكل خواصنا الطبيعية ، صائراً إنساناً بالطبيعة والحقيقة وممارساً خواصنا الطبيعية . أما الاختصاص التمثيلي والشكلي فهو عندما يظهر أحدهم شكلاً بوجه غير وجهه (قل إن ذلك رأفة منه أو محبة) ويصطنع أقوالاً بدلاً من ذاك ولصالحه وهي لا تُنسب إليه هو . فبمثل هذا الاختصاص اختص الرب لذاته لعنتنا وخذلانا رغم أن هذا لم يكن طبيعياً وأنه هو لم يكن قط ولا صار كذلك . لكنه اتخذ شكلنا واصطف إلى جانبنا . (وهذا هو معنى «إنه صار لعنة لأجلنا»)^(٦١) .

(٦١) غلاطية ٣ : ١٣

في آلام جسد الرب وعدم آلام لاهوته

إذا فإن كلمة الله نفسه قد احتمل كل الآلام في جسده ، بينما طبيعته الإلهية - التي لا تتألم - ظلت وحدها عديمة التألم . لأن المسيح الواحد المركب من لاهوت وناسوت ، وهو في لاهوت وناسوت ، قد تألم . والذي فيه قابل التألم - لما كان طبعاً يتألم - فقد تألم . أما الذي فيه لا يتألم فلم يشاركه الآلام . فإن النفس التي هي قابلة الآلام عندما تُجرح الجسد ، ولو كانت هي لا تُجرح ، فهي تشارك الجسد أوجاعه وآلامه .

واعلم بأننا نقول إن الله يتألم في الجسد ولا نقول أبداً إن اللاهوت يتألم في الجسد أو إن الإله يتألم في الجسد . لأنه إذا كانت الشمس تضيئ شجرة وقطعت الفأس الشجرة تبقى الشمس دون ما انثلام ولا تألم ، فكم بالأحرى يبقى لاهوت الكلمة المتحد بالجسد في الأقنوم دون ما تألم إذا تألم الجسد ؟ وعلى نحو ما إذا صب أحدكم ماء على حديد محمي ، فإن الذي هو من طبعه أن يتأثر بالماء - أعني النار - ينطفئ ويبقى الحديد سالماً ، لأنه ليس من طبع الحديد أن يتأثر بالماء ، فكم بالأحرى عندما يتألم الجسد ، فإن اللاهوت وحده الذي لا يفعل لا يبلغ إليه الألم ، رغم بقائه مع الجسد بلا انفصال ؟ وليس من ضرورة أن تكون الأمثال مطابقة للواقع حتى النهاية ، لأنه من الضرورة أن نجد في الأمثال ما هو مطابق للواقع وما هو مخالف له ، وإلا فليس المثل مثلاً ، لأن المساوي في كل شيء يكون هو نفسه ، وليس مثلاً ، لا سيما في الإلهيات . فلا يمكن إيجاد مثل يكون مساوياً في كل شيء ، إن في علم اللاهوت وإن في التدبير .

١٠٩٧ - ١٠٩٦ . الرأس السابع والعشرون . المقالة الحادية والسبعون

**في بقاء لاهوت الكلمة غير متفصل عن النفس والجسد حتى في موت الرب
وفي بقاء الأقنوم واحداً**

لَمَّا كَانَ رَبَّنَا يسوع المسيح مَتْرَهًا عَنِ الْخَطِيئَةِ ، - لَأَنَّ « رَافِعَ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ » ^(٦٢) لَمْ يَفْعَلِ الْخَطِيئَةَ وَ « لَمْ يَوْجَدْ فِيهِ مَكْرٌ » ^(٦٣) - فَهُوَ لَمْ يَكُنْ خَاضِعًا لِلْمَوْتِ ، إِذْ إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ دَخَلَ الْعَالَمَ بِالْخَطِيئَةِ . إِذَا ، فَإِنَّ الَّذِي ارْتَضَى بِالْمَوْتِ لِأَجْلِنَا يَمُوتُ وَيُقَرَّبُ ذَاتَهُ لِلآبِ ذَبِيحَةً مِنْ أَجْلِنَا ، فَإِنَّا قَدْ أَخْطَأْنَا نَحْوَهُ وَأَصْبَحَ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَقْدَمَ ذَاتَهُ فِدِيَةً عَلَيْنَا ، وَبِذَلِكَ يَحْلُنَا مِنَ الْحُكْمِ عَلَيْنَا . وَلَكِنْ حَاشَا أَنْ يَكُونَ دَمُ الرَّبِّ قَدْ تَقَرَّبَ لِلطَّاعِيَةِ ! فَإِنَّ هَذَا لَمَّا أَسْرَعَ لِابْتِلَاعِ طَعْمِ الْجَسَدِ جُرْحَ بَصْتَارَةِ اللاهوتِ إِذْ ذَاقَ الْجَسَدَ الْمَتْرَهَ عَنِ الْخَطِيئَةِ وَالْحَيِّ . وَحِينَئِذٍ قَدْ تَعَطَّلَ وَرَدَّ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ ابْتَلَعَهُمْ قَدِيمًا . وَكَمَا أَنَّ الظَّلَامَ يَتَبَدَّدُ بِإِشْرَاقَةِ النُّورِ كَذَلِكَ يَضْمَحَلُّ الْفَسَادُ بِهَجُومِ الْحَيَاةِ . لَأَنَّ الْحَيَاةَ تَعْمُ الْجَمِيعَ وَالْفَسَادُ يَعُودُ إِلَى الْمَفْسِدِ .

أَقْنُومُ الْمَسِيحِ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ بِحَدِّ ذَاتِهِ وَرَغْمَ تَجَزُّئِهِ : - إِذَا فَإِنَّ الْمَسِيحَ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ مَاتَ بِصِفَتِهِ إِنْسَانًا وَكَانَتْ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ قَدْ انْفَصَلَتْ عَنْ جَسَدِهِ الْأَطْهَرِ ، لَكُنَّ اللَّاهُوتُ ظَلٌّ بِلَا انْفِصَالٍ عَنْ كَلِمَتِهِ ، لَا عَنْ النَّفْسِ وَلَا عَنْ الْجَسَدِ . وَأَقْنُومُهُ الْوَاحِدُ لَمْ يَنْقَسِمْ بِذَلِكَ إِلَى أَقْنُومَيْنِ . لَأَنَّ الْجَسَدَ وَالنَّفْسَ - مِنْذُ ابْتِدَائِهِمَا - قَدْ نَالَا الْوُجُودَ فِي أَقْنُومِ الْكَلِمَةِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسَهَا ، وَفِي انْفِصَالِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ بِالْمَوْتِ ، ظَلَّ كُلُّ مَنِهَا حَاصِلًا عَلَى أَقْنُومِ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدِ ، حَتَّى إِنْ أَقْنُومُ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدِ ظَلَّ أَقْنُومُ الْكَلِمَةِ وَالنَّفْسِ وَالْجَسَدِ . فَإِنَّ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ لَمْ يَحْطِئَا قَطُّ بِأَقْنُومٍ خَاصٍّ لِكُلِّ مَنِهَا خَارِجًا عَنْ أَقْنُومِ الْكَلِمَةِ ، وَإِنْ أَقْنُومُ الْكَلِمَةِ ظَلَّ دَائِمًا وَاحِدًا وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ اثْنَيْنِ ، حَتَّى إِنْ أَقْنُومُ الْمَسِيحِ هُوَ دَائِمًا وَاحِدٌ . وَإِذَا كَانَتْ النَّفْسُ قَدْ انْفَصَلَتْ عَنِ الْجَسَدِ انْفِصَالًا مَكَانِيًّا ، فَقَدْ ظَلَّتْ مُتَّحِدَةً بِهِ اتِّحَادًا أَقْنُومِيًّا بِوَسْاطَةِ الْكَلِمَةِ .

في البلي والفساد

لكلمة بلي معنيان : إنها تعني هذه الانفعالات البشرية كلها : الجوع والعطش والتعب وثقب المسامير والموت أو انفصال النفس عن الجسد وما شاكلها . وبهذا المعنى نقول بأن جسد الرب قابل للبلي ، لأن المسيح ارتضى أن يتقبلها كلها . ويعني البلي أيضاً انحلال الجسد بكامله إلى العناصر المركب هو منها وزواله وهذا هو بالأحرى ما يدعوه الكثيرون فساداً . أما جسد الرب فلم تُصِبه هذه المحنة ، على ما يقوله النبي داود : «لأنك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فساداً» (٦٤).

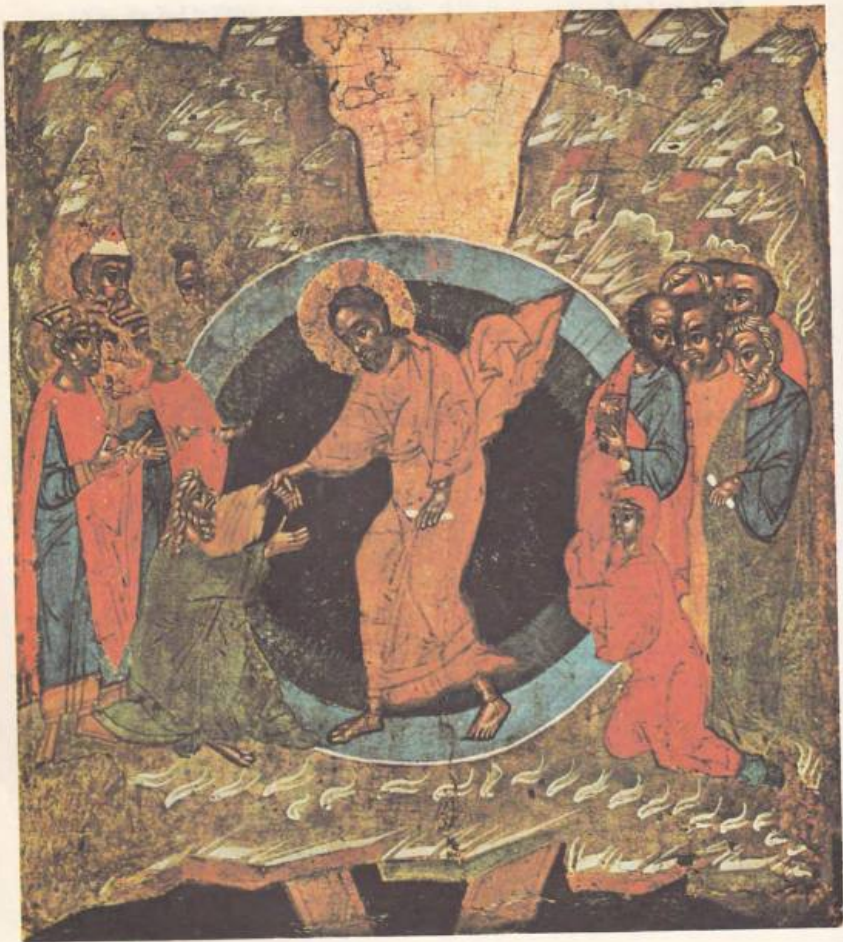
هرطقة يوليانوس وغايرس : - إنه إذاً لكفر القول - على نحو يوليانوس وغايرس الغبيين - بأن جسد الرب منزّه عن البلي بالمعنى الأول لهذه الكلمة وذلك قبل قيامته . لأنه لو كان منزّهاً عن البلي ، فهو ليس مساوياً لنا ، بل إنما ظنّ به كذلك ، وإنه بالحقيقة لم يحدث له كما يقول الإنجيلي إنه حدث من جوع وعطش ومسامير وطعنة جنبه والموت . وإذا كان هذا بالظن ، فإن سرّ تدبير خلاصنا وهمّ وخداع ، وإنه صار إنساناً بالظن ، لا بالحقيقة . وقد نلنا الخلاص بالظن لا بالحقيقة . ولكن حاشا أن يكون ذلك . والذين يتشدّقون بهذه الأقوال فليُحرَموا من الخلاص ! ... أمّا نحن فقد حظينا بالخلاص الحقيقي وسنحظى به . أمّا إذا أخذ البلي بمعناه الثاني ، فنحن نعرف بأن جسد الرب منزّه عن البلي أو أنه غير قابل للبلي ، كما تسلمنا ذلك من الآباء اللاسبيّ الله . ومن ثمّ نقول إن بعد قيامة المخلص من بين الأموات ، قد أصبح جسد الرب منزّهاً عن البلي حتى بمعناه الأول . وقد أعطى الرب لجسدنا - بواسطة جسده الخاص - القيامة ثم عدم البلي ، لأنه صار لنا بدء القيامة وعدم البلي وعدم التألم . ويقول الرسول الإلهي : «إنه لا بدّ لهذا الفاسد من أن يلبس عدم الفساد» (٦٥).

في انحدار المخلص إلى الجحيم

إن نفس المخلص المتألمة قد انحدرت إلى الجحيم ، حتى إنه ، كما أشرقت شمس العدل على الذين على الأرض ، يغمُر النور بالمثل المتسكعين تحت الأرض في الظلمة وظلال الموت . وكما بشر المخلص الذين على الأرض بالسلام وبالنجاة للأسرى وبالنظر للعميان ، وصار للمؤمنين علّة خلاصٍ أبديٍّ ، ولغير المؤمنين توبيخاً لعصيانهم ، كذلك فعل للذين في الجحيم ، « لكي تجثو باسم يسوع كل ركبةٍ مما في السماوات وعلى الأرض وتحت الأرض »^(٦٦) . وبعد أن حلَّ هكذا المعتقلين منذ الدهر ، عاد ثانية من بين الأموات طارقاً لنا سبيل القيامة .

الكتاب الرابع :

مِنْ ثَمَارِ التَّدْبِيرِ الْإِلَهِيِّ
وَمُلْحَقَاتِهِ



الانحدار إلى الجحيم
(إيقونة روسية من القرن ١٦)

في ما تجدد بعد القيامة

ملحقات القيامة : لا يتألم المسيح بعد القيامة . كيف اتخذ طعاماً بعد القيامة

كل البشريات متضمنة فيه : - وبعد قيامة المسيح من بين الأموات ، زالت عنه كل الانفعالات . أعني بذلك البلى الذي هو جوعٌ وعطشٌ ، نومٌ وتعبٌ ، وما شاكل ذلك . وإذا كان قد ذاق طعاماً بعد قيامته ، ذلك ليس بموجب حاجة الطبيعة . فإنه لم يكن عرضةً للجوع ، بل كان ذلك في سبيل تدبير خلاصنا ليثبت لنا حقيقة قيامته ، ذلك أن الجسد الذي تألم هو نفسه قد قام ، وأنه لم يُهمل جزءاً من أجزاء طبيعته ، لا جسده ولا نفسه ، بل قد حافظ على جسده ونفسه الناطقة والعاقلة ، المريدة والفاعلة . وقد جلس - على هذه الصورة - عن يمين الآب ، وهو يريد خلاصنا بإرادته الإلهية - البشرية ، ويعمل ، من جهة ، بفعله الإلهي على العناية بالجميع وحفظهم وسياستهم ، ويعمل ، من جهة أخرى ، بفعله البشري على ذكر جميع العائشين على أرضه ، ناظرًا وعارفاً أن الخليقة العقلية كلها تسجد له ، لأن نفسه القدوسة تعرف أنها متحدة بالله الكلمة في أقنومه وأنه يُسجد لها معه بصفته نفس الله ، وأنها ليست مجردة نفس فحسب . والصعود من الأرض إلى السماء والانحدار منها ثانية إنما ذلك يختص بمجد محدود . وقد قيل عنه : « هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما عاينتموه منطلقاً إلى السماء »^(١) .

في جلوس المسيح عن ميامن الآب

ونقول بأن المسيح قد جلس بجسده عن ميامن الله الآب ، ولا نقول بيمين مكانية . فكيف تكون يمين مكانية لمن لا يُحصَر؟ واليمين واليسار تختصان بالأجسام المحدودة . لكننا نعني بيمين الآب مجدَ لا هوته وكرامته اللذين يقيم فيهما ابن الله قبل الدهور ، بصفته إلهاً ، مساوياً للآب في الجوهر ، ثم بصفته قد تجسّد ، هو يجلس بالجسد ليُشركَ معه جسده ، فتسجدُ له الخليقة كلها بسجدة واحدة مع جسده .

ردّ على القائلين : - لو كان للمسيح طبيعتان لكنتم تسجدون للخليقة بسجودكم لطبيعته المخلوقة ، أو تقولون بالسجود لطبيعة واحدة وعدم السجود للآخرى

السجود لجسد المسيح إنما هو لاتحاده في المسيح وليس ذلك بحّد ذاته : - إننا نسجد لابن الله مع أبيه وروحه القدّوس ، اللاجسمي قبل تأنّسه والمتجسّد الآن والصائر إنساناً مع كونه إلهاً. وعليه ، فإنّ جسد الربّ ، على مستوى طبيعته ، إذا أمكنك باجتهادات دقيقة أن تفصل فيه المنظور من المعقول ، فهو لا يُسجد له ، على أنّه مخلوق. أمّا وقد اتحد بالله الكلمة ، فهو يُسجد له بسبب الكلمة وفي الكلمة. وعلى هذا المنوال يُركّع للملك عارياً كان أم لابساً. والثوب الأرجواني - بصفته مجرد ثوب ارجواني - يمكنك أن تدوسه وترميّه خارجاً. أمّا وقد صار الرداء الملكي ، فيحقّ له الإكرام والتمجيد ، وإذا احتقره محتقراً ، يُحكم عليه أغلب الأحيان بالموت. وعلى هذا النحو قلّ عن أيّ عودٍ طبيعيّ ، فهو ليس ببعيد المنال واللمس. ولكنه متى أُلقي في النار وأصبح جمرًا ، يصير بعيد المنال - ليس بحّد ذاته بل لاتحاده بالنار. ولم يكن العود من طبعه صعب المنال ، لكنّ ذلك هو الجمر أو العود المشتعل. كذلك الجسد. فهو بحسب طبيعته لا يستحقّ السجود له ، لكنه يُسجد له في الله الكلمة المتجسّد ، لا لذاته بل لاتحاده أقنومياً بالله الكلمة. فلنسا نقول بالسجود لمجرد جسد ، بل لجسد الله ، أو الله المتجسّد.

لماذا صار ابن الله إنساناً وليس الآب ولا الروح؟ وماذا أصْلَحَ الابنُ بتأنسه؟

إنَّ الآبَ آبٌ وليس الابن. والابنُ ابنٌ وليس الآب. والروح روحٌ قدسٌ وليس الآب ولا الابن. فإنَّ الاختصاص ثابت لا يخضع للحركة. وإلّا فكيف يبقى الاختصاص إذا كان متحركاً ومتقللاً إلى الغير؟... لأجل ذلك فقد صار ابن الله ابن الإنسان لكي يبقى اختصاصه غير متحرك، لأن الابن كان ابن الله وصار ابن الإنسان بتجسده من العذراء القديسة ولم يزل اختصاصه بالبنوة الإلهية قائماً.

صفات الطبيعة الإلهية وميزاتها. - لماذا تجسّد الابن: - وقد تأنس ابن الله لكي يُعيد الإنسان إلى ما كان عليه قبلاً. فقد كان خلقه على صورته، عاقلاً وحرّاً، وكمثاله، أي كامل الفضائل على مقدور طبيعة الإنسان. وهذه الصفات هي بمثابة سمات للطبيعة الإلهية وهي التنزّه عن همّ والاضطراب والتشويش مع الصلاح والحكمة والعدل والتحرّر من كل شرّ. وعليه كان الله قد أقام الإنسان في شركته - فإنه لمّا خلقه بمعزل عن الفساد قد اجتنبه بشركته إلى عدم الفساد - ولكننا بتجاوزنا الوصية سوّدنا سمات الصورة الإلهية ومحوناها. ولما آلت بنا الحال إلى الشرّ، تجرّدنا من الشركة الإلهية، لأنه «أية شركة للنور مع الظلمة» (٢)؟... ولما صرنا خارج الحياة سقطنا في فساد الموت. ولما كان المسيح قد أشرّكنا بما هو أفضل ولم نحفظ به، اتخذ هو الأدنى - أعني طبيعتنا - حتى يُعيد بذاته وفي ذاته تجديد ما كان على صورته وكمثاله وأرشدنا إلى السيرة الفاضلة، جاعلاً إياها في ذاته سهلة المنال لنا. وأعتقدنا من الفساد بشركة الحياة إذ صار هو بدء قيامتنا، وجدّد فينا الإناء المهمل والمتصدّع لينقذنا من طغيان إبليس بدعوته إيانا إلى المعرفة الإلهية ويقوّينا ويهذّبنا بالثبات والانتضاع لنغلب الطاغية.

حصيلّة التجسّد - قوة الصليب: - وعليه فإنَّ عبادة الأصنام قد زالت، والخليقة تقدّست بالدم الإلهي، وهياكل الأصنام ومعابدها قد انهدمت، وانغrustت المعرفة الإلهية بالثالوث المتساوي الجوهر، وقامت العبادة للاهوت غير المخلوق، لله الواحد الحقيقي. وإنَّ الشياطين يرتجفون من الناس الذين كانوا قديماً تحت حوزتهم. والعجيب في الأمر أن هذا

الإصلاح كله قد تمَّ بصليب المسيح وآلامه وموته. والبيشارة بالمعرفة الإلهية قد انتشرت في الأرض كلها، لا بحرب ولا بسلاح ولا بجيوش مدربة لمقاتلة العدو، بل بشرذمة من أناس عراة، محتقرين، أميين، مشردين ومضطهدين ومحكوم عليهم بالموت وهم يُشرون بمن صلب بالجدس وحكم عليه بالموت. وقد انتصروا على الحكماء والمقتدرين، لأنَّ قدرة الصليب - وهي الأقوى - كانت تتبعهم. والموت الذي كان قديماً الموضوع الأكبر للخوف والحذر والكراهية، قد أضحي اليوم أفضل من الحياة. وهذه هي الإصلاحات الناتجة من مجي المسيح وهذه هي الأدلة على قوته، فإنه لم يفعل الآن - كما بموسى - أن فلق بحراً فأنقذ شعباً واحداً من مصر ومن عبودية فرعون، بل بالأحرى إنه قد انتشل البشرية من فساد الموت ومن الغتصب العائى ومن الخطيئة. وهو في ذلك لم يغتصب اغتصاباً إلى الفضيلة، فلم يوارِ الخطاة في الثرى، ولا أحرَقهم بالنار ولا رجمهم بالحجارة. لكنه - بوداعته ورحابة صدره - قد جذب الناس إلى الفضيلة فصاروا يتسابقون إلى الأنعاب في سبيلها ويستلذونها. وقد كان الخطاة قديماً يعاقبون ويستمرّون في خطيئتهم وكانت لهم الخطيئة بمثابة إله. أما اليوم ففي سبيل التقوى والفضيلة يتكبدون الأعذبة والعقوبات والموت.

فشكراً لك أيها المسيح كلمة الله وحكمته وقوته والإله القدير! ماذا نقرب لك نحن البائسين عن هذه الإحسانات كلها؟ فإن الكل لك وأنت لا تطلب منّا سوى خلاصك، مع علمك أنك - في صلاحك المعجز البيان - وفيما أنت تهب هذا الخلاص، تشكر لمن يتقبلونه. فلك الشكر يا من أعطانا الوجود وأعطانا حسن الوجود وأعادنا إليه بعد سقطتنا في تنازله المعجز البيان.

ردّ على مَنْ يسألون إذا كان أقنوم المسيح مخلوقاً أو غير مخلوق

لقد كان أقنوم كلمة الله - قبل تجسّده - بسيطاً وغير مركّب ولا جسمياً وغير مخلوق .
ولمّا تجسّد ، أصبح أقنوم الجسد فصار مركّباً من لاهوت - كان له دائماً - ومن لحم
اختصّه هو لذاته . فهو يحمل اختصاصات الطبيعتين ويعرف بطبيعته الإنشئين ، حتى إن
أقنومه الواحد نفسه هو غير مخلوق في لاهوته ومخلوق في ناسوته . وهو يرى ولا يُرى . وعلى
الافتراض أننا أقمحنا إلى القول بأن الأقانيم اثنان ، فإمّا نقسم المسيح الواحد وإمّا ننكر
الاختلاف بين الطبيعتين فنُدخل إليها التحويل والتشويش .

متى دُعِيَ هذا الأقنوم مسيحاً

إنه ليس كما يزعم البعض زوراً أن العقل قد اتحد بالله الكلمة قبل التجسد من العذراء ، ودُعِيَ منذئذٍ المسيح . فإنَّ هذه خرافةٌ من تخرّصات أوريجينيس المدّعي بأسبقيّة وجود النفوس . أمّا نحن فنقول بأنَّ الابن كلمة الله قد صار مسيحاً منذ أن حلَّ في أحشاء القديسة الدائمة البتولية وصار جسداً دون استحالةٍ ومسحّ اللحم باللاهوت . فإنَّ هذه هي مسحة الناسوت ، كما يقول غريغوريوس اللاهوتي . وقد كتب كيرلس الإسكندري الفائق القداسة إلى ثاودوسيوس الملك يقول هذا : «أما أنا فأقول إنه ينبغي ألاَّ نسمّي المسيح يسوع كلمة الله بدون التأنس ولا بالأحرى الهيكل المولود من امرأة بمعزلٍ عن اتحاده بالكلمة» . «فإنَّ المفهوم بالمسيح الكلمة الصادر من الله واجتمع بالناسوت اجتماعاً يفوق الوصف في الاتحاد لسرّ التدبير» . وقد كتب هكذا للملكات : «يقول بعضهم إنَّ اسم المسيح لا يليقُ إلاَّ بالكلمة المولود من الله الآب وحده المفهوم والموجود في ذاته . أمّا نحن فلم نتعلّم أن نفكر ولا أن نقول هكذا . بل نقول إنَّ الكلمة لما صار جسداً سُمّي يسوع المسيح . وحينئذٍ مسحه الله الآب بدهن البهجة أي بالروح ^(٣) . لذلك سُمّي المسيح . أمّا أن تكون للمسحة علاقة بالناسوت ، فلا يرتاب أحد في ذلك ممن اعتادوا التفكير القويم» . وأثناسيوس أيضاً الشهير قاطبةً يقول في محلٍّ ما من حديثه عن الظهور الإلهي هكذا : «إنَّ الله السابق الوجود ، قبل مجيئه في جسدٍ ، لم يكن إنساناً ، لكنّه كان عند الله بصفته إلهاً لا يرى ولا ينفعل . ولما صار إنساناً اسمه المسيح عاش بالجسد وحينئذٍ التحق باسمه الألم والموت» .

وإذا كان الكتاب الإلهي يقول : «لذلك مسحك الله إلهك بدهن البهجة» ^(٤) ، فاعلم أنَّ الكتاب الإلهي كثيراً ما يستعمل الماضي بدل المستقبل كقوله : «وبعد ذلك تراءى على الأرض وتردّد بين البشر» ^(٥) . والحال أنَّ الله لم يكن قط قد تراءى وتردّد بين البشر ، عندما قيل هذا القول . وكقوله : «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا» ^(٦) . والحال أنَّ هذه لم تكن قد حدثت قط .

(٦) مز ١٣٦: ١

(٥) باروك ٣: ٣٨

(٤) مز ٤٤: ٨

(٣) عبر ١: ٩

ردّ على السائلين : - هل والدة الله القديسة ولدت طبيعتين ، وهل الطبيعتان عُلِّقتا على الصليب ؟

حلّ اعتراض ساويروس : الولادة من اختصاص الأقنوم لا الطبيعة : - إن الشيء غير الصائر والصائر ، المكتوب باليونانية بنون واحدة (v) : τὸ ἀγέννητον و γενητόν ومعناه غير مخلوق ومخلوق هو من اختصاص الطبيعة . أما الشيء غير المولود والمولود المكتوب باليونانية بنون مشددة (vv) ، τὸ ἀγεννητόν و γεννητόν فهو من اختصاص الأقنوم لا الطبيعة . وعليه فإن الطبيعة الإلهية غير صائرة أي غير مخلوقة وكل ما سوى الطبيعة الإلهية هو صائر أي مخلوق . ويُلاحظ من ثمّ في الطبيعة الإلهية غير المخلوقة عدم الولادة في الآب والولادة في الابن - لأنه وُلد من الآب ولادة أزليّة - والإنشاق في الروح القدس . وإن الأوائل من كلّ نوع من الحيوانات غير مولودة ، لكنها ليست غير مخلوقة لأنّ الخالق قد كوّنهما ولم تولد من أمثالها ، لأنّ التكوين هو الخلق . أما الولادة لدى الله فهي من الآب وحده ، وهي طريقة ولادة الابن المساوي له في الجوهر . وأما ولادة الأجساد - وتصير من جماع الذكر والأنثى - فهي طريقة تساوي الأشخاص في الجوهر . ومن هنا نعلم أنّ الولادة لا تختصّ بالطبيعة بل بالأقنوم . ولو كان ذلك من اختصاص الطبيعة لما كنّا نشاهد في الطبيعة ما هو مولود وما هو غير مولود . وعليه فإنّ والدة الله القديسة قد ولدت أقنوماً معروفاً في طبيعته الإثنتين اللاهوت - وهو المولود بمعزل عن الزمن - ثمّ في آخر الأيام وفي الزمن ، وقد تجسّد منها - قد وُلد بالجسد .

في المسيح طبيعتان . وهو قد تألّم في تلك التي هي قابلة التألم : - وإذا تابع سائلونا قائلين : إذا إنّ المولود من والدة الله القديسة هو طبيعتان ، فنجبهم : نعم هو طبيعتان وهو إله وإنسان معاً . وهو كذلك في صلبه وقيامته وصعوده ، لأنّ هذه لا تختصّ بطبيعته بل بأقنومه . إذا فإنّ المسيح الذي هو في طبيعتين قد تألّم في طبيعته القابلة التألم ، وقد صلب لأنه علّق على الصليب بالجسد لا باللاهوت . وعندما يكرّرون السؤال قائلين : هل الطبيعتان قد صلبتا؟ فنجبهم : - كلاً ! فإنّ الطبيعتين لم تُصلبا مطلقاً ، بل إنّ المسيح هو الذي ولد - أي الكلمة الإلهي قد تجسّد فولد في جسد ، ثمّ صُلب في جسد ، ثمّ تألّم في جسد ثمّ مات في جسد وبقي لاهوته مترهاً عن الألم .

كيف ابن الله الوحيد يدعى بكرًا

إن البكر هو المولود الأول. وهو يكون ابناً وحيداً أو أيضاً المولود قبل إخوته الآخرين. وعليه فإذا قلنا بأنه ابن الله البكر، ولم نقل بأنه الابن الوحيد، يمكن أن نتخيله بكر الخلاق، على أنه خليفة. ولما كنا نقول فيه بكرًا وابتاً وحيداً، فعلينا الاحتفاظ بهما كليهما في كلامنا عنه. والسبب في أننا نقول فيه: «إنه بكر الخليفة كلها»^(٧)، لأنه هو من الله والخليفة أيضاً من الله، لكنه هو من جوهر الله الآب مولودٌ وحده بمعزلٍ عن الزمن، ابناً بالحقيقة وحيداً وبكرًا. وهو لا يُقال فيه المخلوق أولاً، لأن الخليفة ليست من جوهر الآب، بل انتقلت بمشيئته من العدم إلى الوجود. وهو «بكر ما بين إخوة كثيرين»^(٨)، لأنه ابن وحيد لأمه أيضاً. وقد اشترك بالدم واللحم على مثلنا وصار إنساناً، وصرنا نحن أيضاً به أبناء الله، أبناء بالوضع بالمعمودية. فإن ابن الله بالطبيعة نفسه قد صار البكر فينا نحن الصائرين بالوضع أبناء الله بالنعمة والمدعوين إخوته. لذلك فقد قال: «أصعد إلى أبي وأبيكم»^(٩)، ولم يقل إلى أبنائنا، بل إلى أبي، أعني بالطبيعة وأبيكم بالنعمة. وقد أضاف: إلهي وإلهكم، ولم يقل إلهنا حتى إذا ما حلت مضمون المفاهيم، منظورها ومعقوها، تفتن أن كلمة وإلهكم تعني الرب الخالق.

(٧) يوحنا ٢٠: ١٧

(٨) رومة ٨: ٢٩

(٩) كولوسي ١: ١٥

في الإيمان المعمودية

مفعول المعمودية - المعمودية واحدة - ضرورة استدعاء الثالوث الأقدس في المعمودية .
لماذا التغطيسات الثلاث - ما معنى المعمودية في المسيح - الافخارستيا والمعمودية ينبعان
من جنب المختص - الازدواجية في المعمودية على مثال تركيب الإنسان .

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية . فإن المعمودية دليل على موت
الرب . ونحن نُدْفَن مع الرب في المعمودية ، كما يقول الرسول الإلهي^(١١) . فكما أن موت
الرب قد تم مرة واحدة ، يجب أن نصير المعمودية كذلك مرة واحدة ، معتمدين على حسب
كلام الرب ، باسم الآب والابن والروح القدس^(١٢) ، فننتعلم الاعتراف بالآب والابن
والروح القدس . وعليه ، إن كل الذين اعتمدوا بالآب والابن والروح القدس فصاروا
عارفين بطبيعة اللاهوت الواحدة في ثلاثة أقانيم ، إذا ما اصطُبعوا ثانية ، فهم يجددون صلب
المسيح ، كما يقول الرسول الإلهي : « إن الذين قد أنبروا مرة الخ ... ثم سقطوا ، فلا يمكنهم
أن يتجددوا ثانية للتوبة صالبين لأنفسهم المسيح ثانية ومشهرين إياه »^(١٣) . أما الذين لم
يعتمدوا في الثالوث الأقدس ، فينبغي لهؤلاء أن يعتمدوا ثانية ، لأنه ولو قال الرسول الإلهي
أيضاً : « بأننا قد اصطبعنا في المسيح وفي موته »^(١٤) ، فهو لا يقول بأنه يجب أن يكون
استدعاء المعمودية على هذا المتوال ، بل إن المعمودية إنما هي رمز لموت المسيح ، لأن
المعمودية - بواسطة التغطيسات الثلاث - تعني الأيام الثلاثة لدفن المسيح . إذاً فإن
المعمودية بالمسيح تعني معمودية المؤمنين به ، ولا يمكننا الإيمان بالمسيح دون أن نتعلم
الاعتراف بالآب والابن والروح القدس ، لأن المسيح هو « ابن الله الحي »^(١٥) ، وقد مسحه
الآب بالروح القدس^(١٦) ، كما يقول داود الإلهي : « لذلك مسحك الله إلهك بدهن البهجة
أفضل من شركائك »^(١٧) . وقد علم الرب تلاميذه الأخصاء هذا الاستدعاء قائلاً : « معتمدين
إياهم باسم الآب والابن والروح القدس »^(١٨) . ولما كان الله قد صنعنا في عدم الفساد ،

(١٣) رومة ٦ : ٣

(١٢) عبر ٦ : ٤ - ٦

(١١) متى ٢٨ : ١٩

(١٠) كولوسي ٢ : ١٢

(١٧) أشعيا ٦١ : ١٧

(١٦) مز ٤٤ : ٨

(١٥) أع ١٠ : ٣٨

(١٤) متى ١٦ : ١٦

(١٨) متى ٢٨ : ١٩

وكنا نحن قد تجاوزنا وصيته الخلاصية وحُكم علينا بفساد الموت ، فلكي لا يستمر الشر قائماً ، انعطف هو نحو عبده - وهو الرحيم - وصار على مثالنا . فأقذنا من الفساد بآلامه الخاصة وأفاض علينا من جنبه الأقدس والطاهر ينبوع الغفران ، ماء لإعادة الولادة ورحض الخطيئة والفساد ، ودماً ، مشروباً صالحاً للحياة الأبدية . وأعطانا وصايا لتجدد بالماء والروح ، بواسطة الصلاة والاستدعاء ، بحلول الروح القدس على الماء . ولما كان الإنسان مزدوجاً ، من نفس وجسد ، فقد أعطانا تنقية مزدوجة ، بالماء والروح . فبالروح يجدد فينا ما كان على صورة الله وعلى مثاله ، أما بالماء فيُنقي فينا الجسد من الخطيئة بنعمة الروح القدس ، ويحرره من الفساد . إن الماء يحقق فينا صورة الموت والروح يمنحنا عربون الحياة .

قوة الماء التطهيرية : - إنه منذ البدء « كان روح الله يرفّ على وجه المياه »^(١٩) . ومنذئذ أخذ الكتاب يشهد للماء بالتطهير . ففي أيام نوح غرق الله خطيئة العالم بالماء^(٢٠) ، « وكل نجس على مقتضى الشريعة ، يطهر بالماء »^(٢١) ، حتى الثياب نفسها إذا ما غسلت بالماء . وقد « أظهر إيلياً نعمة الروح ممزوجة بالماء لَمَّا أحرق الضحية بالماء »^(٢٢) . وكل شيء تقريباً يطهر بالماء بموجب الشريعة ، لأن المنظورات رموز للمعقولات . وتجديد الولادة يصير في النفس ، والإيمان من شأنه أن يجعل صاحبه - بفعل الروح - ابناً لله بالوضع ، على الرغم من أننا خلاق ، فيفقدنا إلى السعادة القديمة .

نعمة العباد على قدر استعداد مقبليها ونقاوته : - إذاً بالمعمودية يمنح غفران الخطايا للجميع بالتساوي . أمّا النعمة فتكون على قدر إيمان المعتمد وقابليته للتنقية . إذاً فإننا ننال الآن بالمعمودية باكورة الروح القدس ، فتصير لنا إعادة الولادة بدء حياة أخرى وختماً لها وضماناً وإنارة .

وعلينا أن نثبت بكل قوتنا في حفظ ذواتنا أنقياء من الأعمال الدنسة ، ولا نعود إليها ثانية « كما الكلب إلى قيئه »^(٢٣) ، فنجعل ذواتنا من جديد عبيداً للخطيئة ، لأن الإيمان بدون أعمال ميت ، وكذلك الأعمال بدون إيمان ، لأن الإيمان الصادق يُختار بالأعمال .

لماذا نعتمد في الثالث : - ونحن نعتمد في الثالث الأقدس لأن المعتمدين في حاجة إلى الثالث الأقدس لقيامهم وثباتهم . وإنه لا يمكن عزل الأقانيم الثلاثة بعضهم عن بعض ، لأن الثالث الأقدس غير منفصل .

(٢١) راجع أحبار ١٥ : ١٠

(٢٠) تكوين ٦ : ١٧

(١٩) تكوين ١ : ٢

(٢٢) راجع ٣ ملوك ١٨ : ٣٤ (٢٣) ٢ بطرس ٢ : ٢٢

أنواع المعمودية : - تختلف المعمودية يوحنا عن المعمودية المسيح . - المعمودية التوبة . -
معمودية الشهداء ، وهي الأسمى . - ومعمودية المصلوب إلى الأبد : - إن المعمودية الأولى
لاستئصال الخطيئة كانت بالطوفان ^(٢٤) ، والثانية كانت بالبحر والغمام ^(٢٥) . فإن الغمام رمز
للروح والبحر رمز للماء . والثالثة كانت التشريع ، فإن كل نجس كان يُحْمَ بالماء وتُغسل
ثيابه وهكذا يدخل إلى المحلة . والرابعة معمودية يوحنا التي كانت مدخلاً يُؤدّي بالمعتمدين إلى
التوبة كي يؤمنوا بالمسيح . وقد قال : « أنا أعمدكم بالماء للتوبة . وأما الذي يأتي بعدي فهو
أقوى مني وأنا لا أستحق أن أحلّ حذاءه . وهو يعمدكم بالروح القدس والنار » ^(٢٦) . إذاً
فإن يوحنا يسبق فيطهر بالماء استعداداً للروح . والخامسة معمودية الرب . وقد اعتمد بها هو
نفسه . وهو قد اعتمد لا على أنه هو نفسه في حاجة إلى تطهير ، بل لكي - وقد جعل من
تطهيري خاصته - يسحق بالماء رؤوس التنانين ، لكي يفرّق الخطيئة ويدفن في الماء آدم
القديم كله ، لكي يقدس المعمودية ، لكي يُتمّ الشريعة ، لكي يعلن سرّ الثالوث ، لكي
يكون رمزاً ومثالاً للمعمودية . ونحن أيضاً نعتمد بمعمودية الرب الكاملة التي هي بالماء
والروح . وقد قيل إن المسيح يعمد بالنار ، ذلك أنه قد أفاض نعمة الروح على رسله القديسين
بصورة السنة نارية ، كما يقول الرب نفسه : « إن يوحنا إنما عمّد بالماء ، أما أنتم فستعمدون
بالروح القدس والنار بعد أيام غير كثيرة » ^(٢٧) أو ذلك بسبب معمودية النار الآتية للعقاب .
والسادسة هي المعمودية بالتوبة والدموع ، وهي مؤلمة حقاً . والسابعة هي المعمودية بالدم
والشهادة ، وهي جلييلة ومغبوطة جداً لأنها لا تكون عرضة لأوساخ ثانية . الثامنة وهي
المعمودية الأخيرة التي ليست للخلاص . إنما هي لإبادة الشرّ . فلا مجال بعدها للشرّ
والخطيئة . وهي عقاب لا ينتهي .

الروح القدس بشكل حمامة ونار : - لقد حلّ الروح القدس على الرب بصورة
جسميّة ، شبه حمامة ، دالاً بذلك على باكورة معموديتنا ، ومكرماً الجسد ، لأنّ هذا أيضاً
- أي الجسد - إله بالتأله . وقد كان قبلاً قد تمثّل بحمامة ليبشر بنهاية الطوفان . وقد نزل على
التلاميذ القديسين بصورة نار ، لأنه إله و « لأن الله نار آكلة » ^(٢٨) .

(٢٧) أعال ١ : ٥

(٢٦) متى ٣ : ١١

(٢٥) ١ كور ١٠ : ٢

(٢٤) تكوين ٧ : ١٧

(٢٨) تثنية ٤ : ٢٤

مسحة الزيت : - ويُستعمل الزيت في المعمودية إشارة إلى مسحتنا ، ولأنه يجعلنا مسحاء ويُسِّرنا برحمة الله علينا بالروح القدس ، لأنَّ الحمامة هي أيضاً قد حملت غصن زيتون إلى الذين خلصوا من الطوفان.

يوحنا واعتماده : - لقد اعتمد يوحنا بوضعه يده على هامة السيّد الإلهيّة ، ثمّ بدمه الخاصّ.

يجب ألاّ يصير تأجيلٌ في المعمودية عندما يكون إيمان المُقبلين إليه يشهدُهم بأعمالهم ، لأنّ من يتقدّم إلى المعمودية بغشٍّ يُحكّم عليه بدلاً من أن يستفيد.

في الإيمان

فضيلة الإيمان. - الذي لا يعتقد بتقليد الكنيسة أو يعيش عيشة رديئة هو غير مؤمن والإيمان على نوعين: - الإيمان من السماع^(٢٩). فنحن بإصغائنا إلى الكتب الإلهية، تؤمن بتعليم الروح القدس. وهذا يتم متى آمنا فعلاً بجميع الشرائع التي وضعها المسيح وكانت التقوى رائدنا، ثم عملنا بوصايا من أعاد تجديدنا. والذي لا يؤمن بمقتضى تقليد الكنيسة الجامعة أو يشترك مع إبليس في أعماله الشريرة، هو غير مؤمن.

والإيمان عطية الروح: - و«الإيمان هو قيام المرجوات فينا وبرهان الغير المنظورات»^(٣٠). وهو رجاء بلا ريب ولا جدل في ما أعلنه الله لنا وفي استجابة طلباتنا، أولها من وحي ضميرنا والثاني من مواهب الروح.

الختان الروحي: - واعلم أننا بالمعمودية نختن كل حاجزٍ قام منذ تكويننا أعني به الخطيئة ونصبح إسرائيليين روحيين وشعب الله.

(٣٠) عبر ١: ١١

(٢٩) رومة ١٠: ١٧

في الصليب ثم في الإيمان أيضاً

لا يمكن فهم خلق الكائنات بالتفكير البشري. - الإيمان ضرورة عامة. - ما هو الإيمان : - «إن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة. وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله» (٣١)، «فإن الروحي يحكم في كل شيء» (٣٢). «أما الإنسان الحيواني فلا يدرك ما لروح الله» (٣٣). فإنها لجهالة عند الذين لا يقبلون ذلك بإيمان ويشككون في صلاح الله واقتداره العام، بل يدققون في بحث الإلهيات بأفكار بشرية وطبيعية، لأن كل ما يتعلق بالله هو فوق الطبيعة والنطق والتفكير. فإذا تساءل أحدهم كيف وبماذا ولماذا أخرج الله كل شيء من العدم إلى الوجود، وأراد أن يعبر عن ذلك بأفكار طبيعية، فهو لا يستوعبه وتكون معرفته نفسها طبيعية وشيطانية. أما إذا هو انقاد على هدي الإيمان وفكر بأن الإله صالح وقدير وصادق وحكيم وعادل، فهو يرى كل شيء سهلاً وممهّداً، والسبيل إليه رحيماً. فإنه لا يمكن الخلاص بدون الإيمان. وبالإيمان يقوم كل شيء، بشرياً كان أم روحياً. لأن الفلاح بدون إيمان لا يشق أرضاً إلى أتلام ولا التاجر بدون إيمان يزج بنفسه على خشبة صغيرة في لجة البحر الهائج، ولا الزوجات تقوم، ولا أي شيء آخر مما في الحياة. فبالإيمان نفهم خروج كل شيء من العدم إلى الوجود بقوة الله، وبالإيمان نقدر كل الإلهيات والبشريات قدرها. فإن الإيمان اقتناع لا يتخلله أبحاث فارغة!

ليس من شيء أعجب من صليب المسيح. فوائده : - إذاً فإن كل أعمال المسيح ومعجزاته عظيمة جداً وإلهية وعجبية. بيد أن أعجبها كلها صليبه الكريم. فلولاه لما بطل الموت أبداً ولا انحلت خطيئة أينا الأول ولا سلب الجحيم ولا منحت القيامة ولا أعطيت لنا قوة لاحترار الأشياء الحاضرة والموت نفسه ولا تمهد السبيل للعودة إلى السعادة القديمة ولا فتحت أبواب الفردوس وجلست طبيعتنا إلى ميايم الله، ولا صرنا أبناء الله وورثته، لولا كان بصليب ربنا يسوع المسيح، لأن كل شيء قد اصططح بالصليب. ولذا فإن الرسول يقول : «إن كل من اصططح منّا في يسوع المسيح اصططح في موته» (٣٤)، و «نحن جملة من اعتمدنا في المسيح قد لبسنا المسيح» (٣٥)، و «المسيح قوة الله وحكمة الله» (٣٦). فهوذا موت

(٣١) ١ كور ١ : ١٨ (٣٢) ١ كور ١٥ : ٢ (٣٣) ١ كور ١٤ : ١ (٣٤) رومية ٦ : ٣

(٣٥) غلاطية ٢٧ : ٣ (٣٦) ١ كور ١٤ : ٢٤

المسيح - أي صليبه - قد ألبسنا حكمة الله وقوته الأتومية. والكلمة، كلمة الصليب، هو قوة الله، ذلك لأنه اقتدار الله، ولأنه انتصر على الموت وبه قد ظهر لنا، ولأنه - على نحو ما أن أطراف الصليب الأربعة ترتبط وتشدُّ في نقطتها الوسطى -، كذلك، بقوة الله، يجتمع العلو والعمق والطول والعرض أي الخليقة كلها، ما يُرى وما لا يُرى.

إشارة الصليب تميز بين المؤمنين وغير المؤمنين: - والصليب قد أعطي لنا سمة على جبهتنا، على نحو ما دُفعتِ الختانة لإسرائيل. والمؤمنون يتميِّزون بواسطتها من غير المؤمنين فنعرفهم. وهو ترس وسلاح وفوز ضد إبليس، وهو ختم كي لا يمسه مبيد الكل، كما يقول الكتاب. وهو نهوض الساقطين وسند الواقفين وعكاز الضعفاء وعصا الرعاة وإرشاد المرتدِّين وكال الفاترين. وهو خلاص للنفس والجسد، وتقية من كل الشرور ومجلبة لكل الخيرات، وإزالة الخطيئة ونبث القيامة وعود الحياة الأبدية.

السجود لعود الصليب ولسائر ما قدَّسه المسيح بلمسه إيَّاه: - إذا فوجب السجود للعود الكريم حقاً والمستحق الإكرام الذي قُرب عليه المسيح ذاته مذبحاً لأجلنا، وقد تقدَّس بلمسه الجسد والدم الأقدسين. ويجب السجود أيضاً للمسامير والحربة وثيابه، ولساكنه التي هي المذود والمغارة والجلجلة وقبره الخلاصي المحيي ولصهيون أم الكنائس ولأمثالها، على ما يقول داود أبو المسيح إلهنا: «لندخل إلى مساكن الرب ولنسجد لموطئ قدميه» (٣٧). والبرهان على أنه يعني بذلك الصليب، يؤخذ مما يأتي: «قم أيها الرب إلى راحتك» (٣٨)، لأن القيامة تنبع الصليب. فإذا كان الحبيب يحب من محبوه بيته وسريره ولباسه، فكم بالأحرى كثيراً يجب أن نُحب - من إلهنا ومخلصنا - ما بواسطته صرنا مخلصين!

يجب السجود لرسم الصليب، على أنه إشارة المسيح، ولا ينبغي السجود لمادة الصليب: - ونحن نسجد أيضاً لرسم الصليب الكريم المحيي ولو كان من مادة أخرى، لأننا لا نكرم المادة، حاشا! بل الرسم، على أنه رمز المسيح. وقد قال هو بوصيته لتلاميذه: «وحينئذٍ تظهر علامة ابن البشر في السماء» (٣٩) - دالاً بذلك على الصليب - . لذلك قال أيضاً ملاك القيامة للنسوة: «إنكن تطيلن يسوع الناصري المصلوب» (٤٠)، لأن كثيراً هم الذين يتكئون بالمسيح ويسوع، ولكن المصلوب واحد. وهو لم يقل: المظعون بحرية، بل المصلوب. وعليه يجب السجود لعلامة المسيح، لأنه حينئذ تكون العلامة يكون هو نفسه

أيضاً. أمّا المادة المعمول منها رسم الصليب ، ذهباً كانت أو حجارة كريمة ، فاذا حدث أن زال الرسم ، لا ينبغي لها السجود . وعليه فإننا نسجد لكل ما يُنسب لله ، مركزين عبادتنا عليه .

ان عود الحياة رمز للصليب : - إن عود الحياة - ذاك الذي قد غرسه الله في الفردوس - كان قد سبق ورُمز إلى الصليب الكريم . فلما دخل الموت إلينا بالعود ، وجب أن تُعطى لنا بالعود الحياة والقيامة . ويعقوب الأول لما سجد لرأس عصا يوسف قد صوّر الصليب ، ولما بارك ولدَيْه بيديه المتعارضتين ، رسم علامة الصليب رسماً جليلاً جداً . وإن عصا موسى - بضرب البحر بها في شكل صليب - أنقذت إسرائيل وغرقت فرعون . وإن يديه المبسوطين على شكل صليب قهرتا عماليق . - والماء المرّ قد صار حلواً بالعود وانفلقت الصخرة وجرت منها المياه . - وإن عصاً أيضاً قد احتفظت لهارون برئاسة الكهنة . والحياة لما رُفعت على عود وقد بدت مائتة ، خلّص العود أولئك المؤمنين الناظرين إلى عدوهم مائتاً . ذلك على مثال المسيح الذي لم يعرف خطيئة وقد سُمّر بحسد الخطيئة . لذلك صرخ موسى العظيم قائلاً : « انظروا إلى حياتكم على عودٍ معلقة تجاه أعينكم »^(٤١) . وقال أشعيا : « بسطت يديّ النهار كلّهُ نحو شعبٍ عاصٍ يسلكون طريقاً غير صالحٍ وراء أفكارهم »^(٤٢) . أما نحن الساجدين له عسانا نحظى بالنصيب مع المسيح المصلوب !

(٤٢) أشعيا ٢٠: ٦٥

(٤١) تثنية ٢٨: ٦٦

في الاتجاه نحو الشرق في السجود

لماذا نتجه الكنيسة نحو الشرق في سجودها . - تقليد غير مكتوب : - ليس هو من الأمور البسيطة ولا هو على سبيل الصدفة أننا نتجه في سجودنا نحو الشرق . بل لما كنا مركبين من طبيعة منظورة وغير منظورة ، عقلية وحسية ، فإننا نقدم للصانع سجوداً مزدوجاً أيضاً ، على نحو ما نرتّم بالعقل ونرتّم بشفاهانا الجسدية ، ونعتمد بالماء وبالروح ، ونتحد بالرب اتحاداً مزدوجاً ، باشتراكنا في الأسرار وفي نعمة الروح .

وعليه ، بما أن الله نورٌ عقلي وأن المسيح يُسمى في الكتب المقدسة شمس العدل والمشرق ، وجب تخصيص الشرق للسجود له فإنه ينبغي أن كلّ حسن يقرب الله ، على أنه مصدر كل صلاح . ويقول أيضاً داود الإلهي : « يا ممالك الأرض رنّموا لله ، أشيدوا للسيد الراكب على سماء السماوات في المشرق »^(٤٣) . ويقول الكتاب أيضاً : « وغرس الرب الإله جنةً في عدن في المشرق وجعل هناك الإنسان الذي جبله »^(٤٤) . ولما أخطأ هذا « أخرجه الرب »^(٤٥) وأسكنه مقابل فردوس النعم ، أي في المغرب . إذاً نحن نلتبس وطننا القديم فنتجه إليه ونسجد للرب . وكان المحضر الموسوي أيضاً له خباؤه ومغفقه في المشرق . وإن قبيلة يهوذا - بما أنها كانت الأكثر كرامة في القبائل - كان استيطانها يركز ناحية المشرق . وقد كان مكان باب الرب ، في هيكل سليمان الشهير في المشرق . لكن الرب - وهو على الصليب - كان نظره متجهاً إلى المغرب . ومن ثم فإننا نتجه نحوه ونسجد له . والرب في عودته إلى السماء قد ارتفع نحو المشرق . وعلى هذا المشهد سجّد له الرسل . و « سيأتي هكذا كما عاينوه منطلقاً إلى السماء »^(٤٦) ، على نحو ما قال لهم الرب نفسه : « مثلاً أن البرق يخرج من المشرق ويظهر إلى المغرب ، كذلك يكون مجيء ابن البشر »^(٤٧) . إذاً بانتظار مجيء الرب هذا ، نحن نسجد نحو المشرق . إن هذا التقليد نفسه لم يكتبه لنا الرسل . ولكن الكثير مما قد وصل إلينا غير مكتوب .

(٤٥) تكوين ٣: ٢٤

(٤٤) تكوين ٢: ٨

(٤٣) مز ٦٧: ٣٣ وما يليها

(٤٧) متى ٢٤: ٢٧

(٤٦) أعمال ١: ١١

في أسرار الرب المقدسة الطاهرة

تدبير خلاص البشر : - لما كان الله صالحاً وكامل الصلاح وفوق الصلاح وكان كله من الصلاح ، وكان - لسبب فيض غنى صلاحه - لم يحتمل أن يكون الصلاح له وحده - أي لطبيعته - دون أن يُشارك به أحداً ، فقد جعل هبة من صلاحه للقوات السماوية العقلية أولاً ، ثم للعالم المنظور والمحسوس ، ثم للإنسان المركب من معقول ومحسوس . إذاً فإن جميع من أوجدتهم قد أشركهم بصلاحه من حيث وجودهم - لأنه هو نفسه الوجود لجميعهم و « لأن كل شيء هو به » - لا لأنه هو نفسه قد أخرج الكل من العدم إلى الوجود فحسب ، بل أيضاً لأن فعله تعالى يحفظ كل ما كونه ويُقيه في الوجود ، وخاصة الكائنات الحية . فإنها بحسب وجودها وبحسب بقاء حياتها في الوجود تشترك بصلاحه . وبالأحرى كثيراً الكائنات الناطقة - إن بحسب ما سبق قوله وإن بحسب ذاك الناطق (الإنسان) - . فما أقربه إليه تعالى رغم أن الله هو الأسمى سماً لا قياس له !!! وعليه فإن الإنسان - لكونه ناطقاً وحرراً - قد نال سلطاناً للاستمرار - لو أراد - متحداً بالله ، شريطة أن يبقى في الصلاح أي في الخضوع للخالق . لكنه لما انحدر إلى مخالفة وصية جابه وسقط تحت عقاب الموت والفساد ، ما كان من جابل جنس البشر وصانعه إلا أن يتشبه بنا ، مدفوعاً لذلك بأحشاء رحمته وصائراً إنساناً في كل شيء ما عدا الخطيئة ، ويتحد بطبيعتنا . ولما كان قد أعطانا صورته الخاصة وروحه الخاص ولم نحافظ عليها ، فقد شاركنا هو نفسه في طبيعتنا الحقيرة والضعيفة ، لكي يتقينا ويتزع عنا الفساد ويجعلنا من جديد شركاءه في لاهوته .

مفعول التجسد في متروكات المسيح للبشر : - وكان ينبغي ألا ينحصر الإنعام بالحياة الفضلى في الباكورة فحسب ، بل أن يتجاوزها إلى كل إنسان يريده ، ذلك بأن يولد الإنسان ولادة ثانية ، وأن يغتذي بغذاء ملائم لهذه الولادة فيصلى إلى مقدار الكمال . فالمسيح إذاً بميلاده - أي بتجسده ومعموديته وآلامه وقيامته - ، قد أعتق طبيعة خطيئة أبنائنا الأول من الموت والفساد ، وصار باكورة قيامتنا ، وجعل من ذاته طريقاً لنا ورمزاً ومثالاً ، حتى إننا نحن أيضاً ، إذا ما اتبعنا آثاره ، نصير بالوضع ما هو عليه بالطبيعة ، أبناء وورثة الله وشركاء في الميراث . فهو إذاً قد أعطانا - كما قلت - أن نولد ثانية حتى إننا ، كما ولدنا من آدم فمائلناه

وورثنا عنه اللعنة والفساد ، كذلك أيضاً بولادتنا منه نمائله فنرث عنه عدم الفساد والبركة والمجد .

الولادة في المسيح والطعام المزدوج : تأسيس الإفخارستيا . - أكل المسيح الفصح القديم : - ولما كان آدم هذا روحياً ، وجب أن تكون الولادة روحية أيضاً ، والطعام أيضاً كذلك . ولكن لما كنّا مزدوجين ومركّبين ، وجب أن تكون الولادة أيضاً مزدوجة والطعام كذلك مركباً . فإن الولادة إذا تُعطى لنا بالماء والروح - وأعني بذلك المعمودية المقدسة - أما الطعام فهو خبزُ الحياة نفسه ، ربنا يسوع المسيح ، النازل من السماء . ولما كان مزماً باختياره أن يستسلم للموت لأجلنا ، في الليلة التي قُرب فيها ذاته ، وضع عهداً جديداً لتلاميذه الرسل القديسين - وبواسطتهم لجميع المؤمنين به - . ففي عليّة صهيون المقدسة المجيدة ، فيما كان يأكل الفصح القديم مع تلاميذه ويكمل العهد القديم ، غسل أقدام تلاميذه ، رامزاً بذلك إلى المعمودية المقدسة ، ثم كسر خبزاً مقدّمه لهم قائلاً : « خذوا فكلوا ، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم لمغفرة الخطايا »^(٤٨) . وكذلك أخذ أيضاً الكأس من خمر وماء وقدمه لهم قائلاً : « اشربوا من هذا كلّكم ، هذا هو دمي ، دمّ العهد الجديد ، المهرق عنكم ، لمغفرة الخطايا . اصنعوا هذا للذكرى . فكلّ مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس ، تُبشّرون بموت ابن الإنسان وتعرفون بقيامته ، إلى أن يأتي »^(٤٩) .

إعلان حقيقة الإفخارستيا . - مفعول كلمات الرب في الإفخارستيا . - مفعول قوّة الروح القدس الذي يجعل من خبز جسد الرب : - ولما كان « كلام الله حياً وناظراً »^(٥٠) و « كلّ ما شاء الرب صنعه »^(٥١) . ولما كان قد قال : « ليكن النور فكان . ليكن الجلد فكان »^(٥٢) وأنه « بكلمة الرب صُنعت السماوات وبروح فيه جنودها »^(٥٣) . وإذا كان كلمة الله نفسه قد شاء فصار إنساناً وشخصاً لذاته جسداً بلا زرع من الدماء النقيّة والبريئة من العيب ، دماء القديسة العذراء الدائمة البتولية ، أفلا يستطيع هو نفسه أن يجعل من الخبز جسده ومن الخمر والماء دمه؟! ثم في البدء قال الرب : « لئنبت الأرض نباتاً عشباً... » ، وحتى الآن هي ، لدى هطل المطر ، تُخرج نباتها الخاص مدفوعة ومسيّرة لذلك بالأمر الإلهي ! وقد قال الله : « هذا هو جسدي وهذا هو دمي واصنعوا هذا للذكرى وأنّ هذا يكون بأمره القدير إلى أن يأتي » . أجل ، فقد صرّح هكذا : إلى أن يأتي . ثم ينزل المطر

(٤٨) متى ٢٦: ٢٧ ، مرقس ١٤: ٢١ ، لوقا ٢٢: ١٧ ، ١ كور ١١: ٢٤ - ٢٦

(٤٨) متى ٢٦: ٢٦

(٥١) مز ١٣٤: ٦ ، تكوين ١: ٣ و (٥٢) مز ٣٢: ٦

(٥٠) عبرا ١٢: ٤

على هذا الحقل الجديد ، بواسطة الاستدعاء أي بقوة الروح القدس المظلمة . وعلى هذا النحو ، إن كل ما صنعه الله إنما صنعه بفعل الروح القدس ، وهو الآن يعمل كذلك بفعل الروح القدس ما هو فوق الطبيعة وما لا يمكن أن يقبله إلا الإيمان وحده . وتقول العذراء القديسة : « وكيف يكون لي هذا ، وأنا لا أعرف رجلاً ؟ » ، ويحييها جبرائيل رئيس الملائكة : « الروح القدس يحلّ عليك وقوة العليّ تظلك » . وتتساءل أنت الآن : - كيف يصير الخبز جسد المسيح ويصير الخمر والماء دم المسيح ؟ - وأنا أقول لك : يحلّ الروح القدس ويصنع ما يفوق النطق والعقل .

لماذا يستعمل الخبز والخمر في الإفخارستيا : - ونحن نستعمل الخبز والخمر ، ذلك لأن الله - وقد كان يعرف ضعفنا البشريّ بأنّ الأكرثية فينا تنفر مستصعبة ما هو ليس على مألوف عاداتها - قد استعمل إذاً معنا تنازله المعتاد ليُجري فينا ما يفوق الطبيعة بما هو من عادة الطبيعة . وقد فعل على هذا النحو في المعمودية حيث العادة لدى البشر أن يستحموا بالماء ويدّهنوا بالزيت . وقد أضاف إلى الزيت والماء نعمة الروح القدس وجعل من هذا نفسه حميم إعادة الولادة . وكذلك ، لمّا كانت عادة الناس أن يأكلوا الخبز ويشربوا الماء والخمر ، فقد أضاف إلى ذلك لاهوته وجعل منها جسده ودمه ، لكي نبلغ - بما هو من عوائدنا وعلى موجب طبيعتنا - إلى ما هو فوق الطبيعة .

في الإفخارستيا لا يصير تنزيل المسيح من السماء بل تحويل العناصر : - والقربان إنما هو جسد بالحقيقة متحد باللاهوت ، وهو الجسد المأخوذ من العذراء القديسة ، ليس على أنه الجسد الذي كان قد ارتفع إلى السماء ينحدر منها ، بل إنّ الخبز نفسه والخمر نفسه يتحولان إلى جسد الله ودمه . وإذا تساءلت عن الطريقة كيف حدث ذلك ، فيكفيك أن تسمع بأنّ ذلك يتم بالروح القدس . وكما أنّ الرب قد شخص لذاته وبذاته جسداً بواسطة الروح القدس من والدة الله القديسة ، ولسنا نعرف أكثر من ذلك سوى أنّ كلام الله صادق ونافذ وقدير ولا يمكن تفسير كلفيته ، غير أنه ليس مستهجنأ أيضاً هذا القول بأنه ، كما يتحول تحويلاً طبيعياً الخبز بالأكل والخمر والماء بالشرب إلى جسد ودم الآكل والشارب ، ولا يتحولان إلى جسم آخر غير جسمه الأول ، كذلك قل عن خبز التقديم والخمر والماء باستدعاء الروح القدس وحلوله . فإنها يتحولان تحويلاً يفوق الطبيعة إلى جسد المسيح ودمه . ولا يكونان اثنين ، بل هما واحد وهو هو نفسه .

وعليه يكون لمن يتناولونه بإيمان وعن استحراق لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية ولصيانة

النفس والجسد. أما للذين يتناولونه عن غير استحقاق وبدون إيمان، فيكون لعقابهم وتعذيبهم، شأنه شأن موت الرب. فهو للمؤمنين حياة وعدم الفساد ويؤديان إلى انتقاع بالسعادة الأبدية. وهو للاحدي الرب وقاتليه يكون لعقاب وعذاب أبديين.

جسد الرب حقيقة وليس رمزا: - ليس الخبز والخمر رمزين لجسد المسيح ودمه - حاشا - بل هو جسد الرب نفسه متألهاً، جسد الرب الذي يقول هو نفسه: «هذا ليس رمز جسدي، بل جسدي، ولا رمز دمي، بل دمي». وكان قبلاً قد قال لليهود: «إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشرّبوا دمه، فلا حياة في أنفسكم... لأن جسدي مأكل حقيقي ودمي مشرب حقيقي»^(٥٤). وأيضاً: «من يأكلني يحيى».

رتبة منع الإفخارستيا بالأيدي: - لذلك لتتقدم بكل تهيب وبضمير نقي وبإيمان لا يتزعزع، - ويكون لنا تماماً كما يؤمن إذا لم نتردد - ولنكرم إياه بكل نقاوة نفسية وجسدية، لأنه مزدوج. لتتقدمن إليه بشوق ملتهب، ممثلين براحتينا شكل صليب وتقبل جسد المصلوب. ولدى تناولنا الجمرة الإلهية، نضعها على عيوننا وشفاهنا وجهاتنا، لكي - إذا ما نأر الشوق التي فينا استمدت الحرارة من الجمرة - تحرق خطايانا وتغير قلوبنا ولنلهب ونتأله بمساهمة النار الإلهية. فقد أبصر أشعيا جمرة^(٥٥). والجمرة ليست مجرد عود، بل هي عود متحد بالنار. كذلك أيضاً خبز الشركة. فهو ليس مجرد خبز، بل هو خبز متحد باللاهوت. والجسد المتحد باللاهوت ليس طبيعة واحدة، بل هو طبيعة الجسد وطبيعة اللاهوت المتحد هو به، حتى إن كليهما ليسا طبيعة واحدة، بل هما اثنتان.

رموز الإفخارستيا: - لدى عودة إبراهيم من كسر أعدائه، استقبله ملكيصادق، كاهن الله العلي بخبز وخمر. وكانت تلك المائدة قد سبقت وصورت المائدة السرية هذه، كما أن ذاك الكاهن كان رمزاً وصورة للمسيح الكاهن الأعظم الحقيقي، لأن النبي يقول: «أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق»^(٥٦). وخيزرات التقدمة تلك كانت صورة لهذا الخبز. هذه هي إذاً الذبيحة الطاهرة أي غير الدموية التي تكلم عنها الرب بلسان النبي: «إنها تقرب له من مشارق الشمس إلى مغاربها»^(٥٧).

ثمار الإفخارستيا: - إن جسد المسيح ودمه يؤولان إلى قيام نفسنا وجسدنا. وحاشا أن يكون ذلك إلى أن يتبددًا ويفسدًا ويصيرا إلى الخارج! بل هو إلى تكويننا وحفظنا ووقايتنا

(٥٤) يوحنا ٦: ٥٣، ٥٥، ٥٧ (٥٥) أشعيا ٦: ٦ (٥٦) مز ١٠٩: ٤ (٥٧) ملاخي ١: ١١

من كل الأضرار وتطهيرنا من كل الأذناس. فإذا وجدا فينا ذهباً مغشوشاً ينقيانه بالنار المطهرة، لئلا يحكم علينا في المستقبل مع العالم. لأنها ينقياننا من كل الأمراض ومن كل عارض يدهمنا، كما يقول الرسول الإلهي: «لو كنا ندين أنفسنا لما كنا ندان. وفي دينوتنا هذه إنما يؤدبنا الرب لئلا يحكم علينا مع العالم» (٥٨). وهذا هو قوله: «لأن من يأكل ويشرب جسد الرب ودمه وهو على خلاف الاستحقاق، إنما يأكل ويشرب دينونة نفسه» (٥٩). أما إذا تطهرنا به فتتحد بجسد الرب وبروحه ونصير جسد المسيح.

خبز المستقبل أو الخبز الجوهرى. - جسد الرب بمعناه الروحى: - وهذا الخبز إنما هو مقدمة للخبز المستقبل وهو الجوهرى ἐνιούσιος. والجوهرى يعنى إمام الآتى أي الدهر الآتى أو المأخوذ لحفظ جوهرنا. فإن كان هو على هذا النحو أو ذاك، فهو يسمى عن جدارة جسد الرب، لأن جسد الرب روح محي، إذ إنه قد حبل به من الروح المحي. والمولود من الروح روح. وإنما أقول هذا، لأنني طبيعة الجسد، بل لأنني أريد أن أوضح ما فيه من قوة حيية وإفية.

ما معنى تسمية باسيلوس الإفخارستيا تمثيل جسد الرب ودمه: - وإذا كان بعضهم يسمي أيضاً الخبز والخمر تمثيلاً أو بديلاً ἀντίτυπον لجسد الرب ودمه - كما يفعل ذلك باسيلوس اللابس الله -، فلا يكون ذلك بعد التقديس، بل هم يسمون التقديم نفسها هكذا، قبل تقديسها.

أسماء الإفخارستيا الأخرى: - وتسمى الإفخارستيا تناولاً، لأننا نتناول بها لاهوت يسوع. وتسمى شركة - وهي بالحقيقة كذلك - لأننا بها نشرك ذاتنا بالمسيح فتقبل جسده ولاهوته. وبها يشترك ويتحد بعضنا مع بعض. ولما كنا نتناول خبزاً واحداً، فإننا نصبح كلنا جسد المسيح الواحد ودمه الواحد وبعضنا أعضاء بعض، لأننا جسم المسيح الواحد.

لا شركة مع المراطقة: - وعليه فلنحذر بكل قوتنا من أن نقبل تناول المراطقة أو تمنجهم إياه، لأن الرب يقول: «لا تعطوا القدس للكلاب ولا تُلْقُوا جواهركم قدام الخنازير» (٦٠)، لئلا نصير شركاء في ضلالهم وفي الحكم عليهم. ولما كان اتحادنا حتماً اتحاداً بالمسيح، واتحاد بعضنا ببعض، فنحن نتحد حتماً بجميع المتناولين معنا على حسب

اختيارنا. فبدءاً من اختيارنا بصير هذا الاتحاد وليس بدون عزمنا. والرسول الإلهي يقول :
«إنا نحن الكثيرين جسدٌ واحدٌ، لأننا نشترك جميعاً في الخبز الواحد»^(٦١).

ملاحظة :- وإذا دُعيتُ القرايين أمثال المستقبلات ، فليس يعني هذا أنها ليست جسد المسيح ودمه ، بل ذلك أننا الآن نشترك فيها بلاهوت المسيح. أما حينئذٍ فبالمشاهدة العقلية وحدها.

في نسبة الربّ ووالدة الله القدّيسة

لما كنّا في ما تقدّم قد شرحنا شرحاً محدّداً عن القدّيسة الفاتكة التّسبيح مريم والدة الله الدائمة البتولية وأثبتنا عنها ما هو جزيل الأهميّة ، فإنّنا نحن الآن نكمّل النواقص عن كونها حقاً وحقيقة والدة الله وعن أنّها تُسمى هكذا . فهي - نظراً إلى القصد الإلهي الأزلي السابقة معرفته - قد تحدّدت معالمها وتمثّلت بصوّر مختلفة في أقوال وسابق إعلان الأنبياء بالهام من الروح القدس ، فنبتت من أصل داود في الوقت المحدّد لها سابقاً ، ذلك تنفيذاً للعهد المقطوع في التصريح التّالي : « أقسم الربّ لداود حقاً ولا يُخلف : لأجلسنّ من ثمرة بطنك على عرشك »^(٦٢) ، وفي هذا أيضاً : « مرّة حلفتُ بقداستي ولا أكذب على داود . ليدومنّ نسله إلى الأبد . وعرشه كالشمس أمامي . مثل القمر يكون راسخاً إلى الأبد وشاهداً في الغيوم أميناً »^(٦٣) . وقال أشعيا : « ويخرج قضيب من جذر يسى ويُنمي فرع من أصوله »^(٦٤) .

اختلاف ظاهر بين الإنجيليين في سرد نسبة يوسف : - أن يكون إذاً يوسف منحدرًا من سبط داود فهذا ما أظهره واضحاً الإنجيليان متى ولوقا . بيد أن متى يجعل انحدر يوسف من داود بسلیمان ، ولوقا ، بناتان . غير أنّ كليهما يَصمّت عن ميلاد العذراء القدّيسة .

واعلمُ بأنّها ليست عادة للعبرانيين ولا للكتاب الإلهي إحصاء نسبة النساء وأنّ الشريعة كانت ألاّ يتزوج سبطٌ من سبطٍ آخر^(٦٥) . ولما كان يوسف منحدرًا من سبط داود ، وكان صديقاً - هذا ما يشهد له به الإنجيل الإلهي - فهو لم يكن يُقدِّم على الزواج من العذراء القدّيسة خلافاً للشريعة ، لو لم تكن هي أيضاً خارجة من فرعه . وعليه كان يكفي إظهار نسبة يوسف .

واعلمُ هذا أنّ الشريعة كانت تقضي بأنّه إذا مات رجل بدون نسل ، يأتي أخو المتوفّي بإمرأته للتزوج بها فيقيمُ نسلًا لأخيه^(٦٦) . ويكون المولود إذاً - على حسب الطبيعة - للتّاني أي للوالد . أمّا على حسب الشريعة فللمتوفّي .

(٦٥) العدد ٣٦ - ٦ - ٩

(٦٤) أشعيا ١١

(٦٣) مز ٣٦ : ٨٨ - ٣٨

(٦٢) مز ١٣١ : ١١

(٦٦) تثنية ٢٥ : ٥ وما يليه

شرحُ نسبة المسيح : - وعليه فن فرغ ناثان بن داود قد وُلِدَ لآوي . وهذا ولد ملكي وبنتير . وبنتير ولد بربنتير (هكذا يسمّى) . وبربنتير هذا ولد يواكيم . ويواكيم ولد والدة الإله القدّيسة . أمّا من فرغ سليمان بن داود فكان لثان امرأة ولدت له يعقوب . ولما توفي مَثان ، تزوج ملكي - الذي هو من عشيرة ناثان ، ابن لآوي وأخو بنتير - امرأة مَثان وأمّ يعقوب وولد منها عالي . فكان إذاً يعقوب وعالي أخوين من أمّ واحدة ، لكنّ يعقوب كان من عشيرة سليمان وكان عالي من عشيرة ناثان . وتوفي عالي الذي من عشيرة ناثان بلا ولد وأخذ يعقوب أخوه - الذي من عشيرة سليمان - امرأته وأقام نسلًا لأخيه وولد يوسف . فكان إذاً يوسف ابن يعقوب بالطبيعة ومن سلالة سليمان ، وكان ابن عالي من سلالة ناثان بحسب الشريعة .

ولادة العذراء : - وعليه فإن يواكيم قد أتى بحجّة الشريفة الجديرة بالمديح للتزوّج بها . لكن ، على نحو ما كانت حنة القديمة عاقراً وولدت صموئيل بالصلاة والوعد كذلك كانت حنة هذه . فهي بالابتهال وبوعد الله لها قد وُلدت والدة الإله . وذلك ، كيلا تنقص بشيء عن صوابها . فإن النعمة إذاً - وهذا معنى حنة - قد ولدت السيّدة - وهذا معنى مريم . لأنّ هذه قد صارت حقاً سيّدة جميع المخلوقات لما أصبحت أمّ الخالق . وقد وُلدت في بيت يواكيم قرب البركة الغنميّة وقُدِّمت للهيكل . ثم سبّت بعدئذٍ في هيكل الله وتغذّت بالروح ، فصارت كالزيتونة المثمرة محطاً لكل فضيلة ، نابذة من ذهنها كل عاطفة بشرية وجسدية وحافظةً بذلك نفسها مع جسدها بتولين ، كما يليق بمن ستقبل في حضنها الإله ، لأنه قدّوس ويستريح في الأقداس . وعليه فقد استصحبته هكذا القداسة معها وبدت هيكلًا مقدّساً وعجيباً أهلاً للإله العليّ .

زواج العذراء بيوسف : - ولما كان عدو خلاصنا يترصد العذاري لسبب نبوءة أشعيا القائل : «ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا»^(٦٧) و^(٦٨) . ولكنّ «الذي بصطاد الحكماء بخدعتهم»^(٦٩) - فلكي يخدع المتباهي دوماً بحكمته - دفع الكهنة بالصبيّة للزواج بيوسف ، وكان ذلك «كتابٌ جديدٌ محتومٌ لمن يعرف الكتابة»^(٧٠) ، فأصبح الزواج حصناً للعذراء وخدعةً لمرصد العذاري . وحينئذٍ أتى ملء الزمن فأرسل ملاك الربّ إليها يُبشّرها بالجليل بالربّ . وهكذا حملت هي ابن الله ، قوة الآب

(٦٧) أشعيا ٧: ١٤

(٦٨) متى ١: ٢٣

(٦٩) أيوب ٥: ١٣

(٧٠) أشعيا ٢٩: ١١



ميلاد السيد المسيح
(أيقونة روسية من القرن ١٦)

الأقنومية ، لا من مشيئة لحم ولا من مشيئة رجل - أي جاع وزرع - بل من مسرة الآب ومؤازرة الروح القدس ، فأثاحت للمخالق أن يخلق وللجبل أن يجبل والله ابن الله أن يتجسد ويتأنس من لحمها ودمائها النقية والبريئة من الدنس ، فوقت بذلك دين الأم الأولى . وكما أن تلك قد جيلت من آدم بدون جاع ، كذلك هي قد جيلت بآدم الجديد ، مولوداً بحسب الشريعة ، ولما كان هو بلا أب ، كان ذلك بما يفوق طبيعة الولادة . وبما أنه قد أتم الزمن المعتاد - كان قد أكمل الأشهر التسعة وولد في بدء العاشر - فقد كان الحبل به بموجب الشريعة . وبما أن ذلك كان بلا وجع ، فقد كان فوق عادة الطبيعة . فلأنه لم يسبق الولادة لذة ، لذلك لم يتبعها وجع ، على حسب قول النبي : « قبل أن تتمخض ولدت وأيضاً قبل أن يأخذها الطلق وضعت ذكراً » (٧١) .

ولادة المسيح : - وعليه فقد ولد منها ابن الله متجسداً . وهو ليس إنساناً لابساً الله بل هو إله متجسد . وهو ليس مثل نبي ممسوح بالفعل ، بل هو ممسوح بتواجد الماسح كله فيصير الماسح إنساناً والممسوح إلهاً ، ليس بتحول في الطبيعة ، بل باتحاد في أقنوم ، حتى كان الماسح والممسوح هو هو نفسه ، لأنه ، وهو بصفته إلهاً ، يمسح ذاته بصفته إنساناً . كيف إذاً تلك التي ولدت الإله متجسداً منها لا تكون والدة الإله ؟ فإن التي هي حقاً وحقيقة والدة الإله والسيدة والمتولدة على الخلائق كلها هي أيضاً أمه الخالق وأمه . وكما أن المسيح - في الحبل به - قد حفظ من حملته بتولاً ، كذلك هو أيضاً - في الولادة - قد حفظ بتوليته بلا تحويل ، مجتازاً بها وحده وحافظاً إياها مغلقة . إن الحبل كان بواسطة السمع . أما الولادة فبطريقة الولادة الاعتيادية ، ولو كان بعضهم يتخيلون بأن أم الله قد ولدت ابنها من جنبها . فإنه لم يكن يعسر عليه أن يخرج منها دون أن يفض ختماً .

دوام بتولية العذراء : - وعليه فإن الدائمة البتولية قد بقيت عذراء حتى بعد الولادة ، لأنها حتى وفاتها لم تعرف خبرة رجل . وإذا كان قد كُتب : « ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر » (٧٢) ، فاعلم أن البكر هو المولود الأول ، حتى إذا كان وحيداً ، لأن كلمة بكر تدل على المولود الأول ولا تتضمن ولادة آخرين . أما كلمة حتى فتشير إلى نهاية وقت محدد ولا تنفي ما هو بعد ذلك . وقد قال الرب : « وها أنا معكم كل الأيام حتى منتهى الدهر » (٧٣) . وهذا لا يعني أنه سيغادرهم بعد انتهاء الدهر . ويقول الرسول الإلهي : « وهكذا نكون مع الرب دائماً » (٧٤) . وهذا الكلام يهدف إلى ما هو بعد القيامة .

فكيف العذراء ، بعد أن ولدت الله وعرفت المعجزة من اختبار مفاعيلها تُقدِّمُ هي على جماعة رجل؟ فبعداً لهذا التفكير ! فمن كان ذا رأيٍ سليمٍ لا يفكرُ هذا التفكير ولا يعمل به !

ما فات العذراء من أوجاع الولادة لاقتة حين صُلب ابنها : - لكنَّ تلك المغيوبة نفسها التي استحقَّت المواهب الفائقة الطبيعة فإنَّ الأوجاع التي نجت منها وهي تلد ، قد احتملتها هي نفسها وقت الآلام . لأنَّ انعطاف أمومتها كان يُشعرها بتمزيق أحشائها . والذي كانت تعرفه إلهاً بالولادة ، فوجئت برؤيته هو نفسه مرفوعاً كفعل شرٍّ . ففعلت فيها هذه الأفكار فعل السيف . ولذا يقول الكتاب : « وأنتِ سيجوزُ سيف في نفسك »^(٧٥) . ولكن فرح القيامة قد بددَ الحزن بإشهاره أنَّ الذي مات بالجسد هو إله .

(٧٥) لوقا ٢: ٣٥

في القديسين وفي وجوب تكريمهم وتكريم رُفائهم

يجب تكريم القديسين لأنهم أحبّاء المسيح وأبناء الله وورثته ، كما يقول يوحنا اللاهوتي والإنجيلي : « كل الذين قبلوه أعطاهم أن يكونوا أبناء الله »^(٧٦) ، « حتى إنهم ليسوا بعدُ عبيدًا بل هم أبناء . وإذا كانوا أبناء فهم وارثون بالله »^(٧٧) ووارثون مع المسيح . وقد قال الرب لرسله في أناجيله المقدسة : « أنتم أحبائي ... لا أسميكم عبيدًا بعد ، لأن العبد لا يعلم ما يصنع سيده »^(٧٨) . ولما كان يُقال لصانع الجميع وسيدهم « ملك الملوك ورب الأرباب »^(٧٩) وإله الآلهة^(٨٠) ، فإنه يُقال حتمًا للقديسين أيضًا آله وأربابًا وملوكًا ، لأن الله هو - ويُقال له - إلههم وربهم وملوكهم . وهو القائل لموسى : « أنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب »^(٨١) . وقد « جعل الله موسى إلهًا لفرعون »^(٨٢) . وقولي فيهم بأنهم آله وملوك وأرباب ليس بالطبيعة ، بل ذلك لأنهم ملكوا أهواءهم وضبطوها وحفظوا بلا انثلام مثال الصورة الإلهية التي وُلدوا فيها . فإنه يُقال أيضًا لصورة الملك ملكًا . ثم لأنهم اتحدوا بالله باختيارهم وقبلوا إسكانه فيهم ، وبامتزاجهم به بالنعمة صاروا ما هو عليه بالطبيعة . فكيف إذا لا ينبغي أن نكرّم أولئك الذين أصبحوا خدام الله وأحبّاءه وأبناءه ؟ لأن الإكرام الواصل من الرفاق في العبودية إلى مَنْ حَسَنَ ولاؤهم لسيدهم هو برهان على صدق النية نحو السيد العام !

إن هؤلاء القديسين قد أصبحوا خزائن الله ومنازله ، لأن الله يقول : « إني سأسكن فيهم وأسير في ما بينهم وأكون لهم إلهًا »^(٨٣) . ويقول الكتاب الإلهي أيضًا : « نفوسُ الصديقين بيد الله فلا يمسهَا عذاب »^(٨٤) ، فإن موت الصديقين نومٌ أكثر منه موت . لأنهم قد تبعوا إلى الدهر وسيعيشون في الانقضاء ، و « كريمٌ في عيني الرب موت أصفائيهِ »^(٨٥) . إذاً فماذا أكرمُ مَنْ أن يكون الإنسان بين يدي الله ؟ فإن الله حياةٌ ونور . ومن هم بين يديه هم في الحياة والنور .

(٧٦) يوحنا ١ : ١٢

(٧٧) يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٥

(٧٧) غلاطية ٤ : ٧

(٧٦) يوحنا ١ : ١٢

(٧٩) رؤيا ١٩ : ١٦

(٨٢) خروج ٧ : ١٧

(٨١) خروج ٣ : ٦

(٨٠) مز ٩٩ : ١

(٨٣) ٢ كور ٦ : ١٦

(٨٥) مزمور ١١٥ : ١٥

(٨٤) حكمة ١ : ٣

وإنَّ الله يتحد أيضاً اتحاداً عقلياً في أجسادهم ، كما يقول الرسول : «أما تعلمون أنكم هيكل الله وأنَّ روح الله مستقر فيكم» ؟ و «أنَّ الربَّ روح» ^(٨٦) ، و «أنَّ من يفسد هيكل الله يفسده الله» ^(٨٧) . إذا فكيف لا ينبغي أن نكرّم هيكل الله الحيّة ، مساكن الله الحيّة أي أولئك العائشين متصيين بحضرة الله؟

رفات القديسين : - لقد وهبنا السيّد المسيح رفات القديسين يتابع خلاصية تنبع البركات بطرق شتى ، وتفيض الحيل الذكيّة الرائحة . ولا ينكر أحد ذلك ! فإنَّ الله لمّا شاء أنبع ماءً في الصحراء من صخرة صمّاء يابسة ، وأنبع لشمشون في عطشه ماءً من فكِّ حمار ^(٨٨) ، أفيكون منكراً أن يفيض الحيل الذكيّة الرائحة من رفات من نُعيطهم ؟ - إنه ليس منكراً البتّة لمن يعرفون قوة الله وكرامة القديسين لديه .

يجب ألا نُحصى القديسين مع الأموات . - هم شفعاء البشر جميعاً : - جاء في الشريعة : «من لمس ميتاً ما من الناس يكون نجساً» ^(٨٩) . لكننا نقول إنَّ هؤلاء القديسين ليسوا أمواتاً . فإننا - منذ أن أحصى الحياة بالذات وعلة الحياة بين الأموات - لا نحسب أمواتاً من رقدوا على رجاء القيامة والإيمان بالمسيح . وإلّا فكيف يجترح المعجزات جسمٌ ميتٌ وكيف يطرّد الشياطين؟ والأمراض تزول؟ والضعفاء يشقون؟ والعُميان يُعاد إليهم بصرهم؟ والبرص يطهرون؟ والتجارب والأحزان تتبدّد؟ «وكل عطية صالحة تهبط بواسطتهم من لدن أبي الأنوار» ^(٩٠) على من يلتصقونها بإيمان راسخ؟ فما أكثر ما تُعاني أنت لتجد لك نصيراً يقف تجاه ملك زائل ليدافع عنك ! ونحن ألا ينبغي أن نكرّم شفعاء البشر أجمعين الذين يرفعون الابتالات إلى الله من أجلنا؟ أجل ، ينبغي أن نكرّمهم ، ونُشيد على اسمهم الهيكل إلى الله ، ونأتيهم بتقادمنا ، ونُحيي ذكراهم ، ونُسّر بها سروراً روحياً ، فتكون الفرحة خاصة بكل من المدعوين ، ونُخشي - بعكس ذلك - من أن نغضبهم إذا ما تباطأنا في خدمتهم . فإنَّ إرضاء خدام الله عبادة له وإغصابهم باعثٌ لغضبه . إذا أيها المؤمنون ، فلنخدم القديسين ، لا سيما في ما يعود إلى خدمة الله ، وذلك بالمزامير والتسابيح والأنشيد الروحية وبالحشوع وبالرفقة بالمتحاجين . ولنقم لهم النُصبَ وعليها الإيقونات ظاهرة للعبان ، بل ولنصّر نحن أنفسنا نصباً وإيقونات حيّة لذكر فضائلهم . ولنكرّم من والدة الإله ، على أنها حقاً

(٨٩) العدد ١٩ : ١١

(٨٨) قضاة ١٥ : ١٩

(٨٧) ١ كور ٣ : ١٧

(٨٦) ٢ كور ٣ : ١٧

(٩٠) يعقوب ١ : ١٧

X

وحقيقة أم الله ، ويوحنا النبي ، على أنه السابق والمعمد والرسول والشاهد ، الذي قال عنه الرب : «لم يَقم في مواليد النساء أعظم من يوحنا»^(٩١) ، وقد كان هو المنادي الأول بملكوته . ثم الرسل ، على أنهم إخوة الرب ومعينوه وخدام آلامه ، «الذين سبق الله فعرفهم وسبق فحدّد أن يكونوا مشابهيّن لصورة ابنه»^(٩٢) ، «أولاً رسلاً ، ثانياً أنبياء ، ثالثاً رعاة ومعلمين»^(٩٣) . ثم شهداء الرب المنتخبين من كل طبقة ، على أنهم جنود المسيح الذين شربوا كأس آلامه واعتمدوا بعمودية موته المحيي ، فأضحوا شركاءه في آلامه ومجده ، منهم زعيمهم استفانوس ، أول شمامسة المسيح ورسوله وشهيدته الأول . ثم آباءنا الأبرار اللابسي الله النسك ، الذين جاهدوا في الاستشهاد الطويل والتعب الجزيل «الذين ساحوا في جلود الغنم والمعز وهم معوزون مضايقون مجهودون ، فكانوا تائهين في البراري والجبال ومغاوير الأرض والكهوف ، ولم يكن العالم مستحقاً لهم»^(٩٤) . ثم لنكر من أنبياء ما قبل النعمة ورؤساء الآباء والصديقين الذين سبقوا فبشروا بمجيء الرب . هؤلاء جميعاً ، إذا ما تأملنا في سيرتهم ، نشبه بإيمانهم ومحبتهم ورجائهم وغيرتهم ومعيشتهم وصبرهم على الآلام وثباتهم حتى الدم ، لكي نشاركهم في إكليل مجدهم .

(٩٤) عبر ١١ : ٣٧ - ٣٨

(٩٣) ١ كور ١٢ : ٢٨

(٩٢) رومة ٨ : ٢٩

(٩١) متى ١١ : ١١

في السجود للإيقونات

أصلُ السجود للإنسان وجود صورة الله فيه : - لَمَّا كان البعض يلومنا لسجودنا لصورتَي المخلص وسيدتنا مريم العذراء وتكريمنا إياهما ، وكذلك صُور سائر القديسين وخذام المسيح ، ولكن فليظن هؤلاء أن الله قد صنع الإنسان منذ البدء على صورته الخاصة ، وإلا ما هو السبب في سجود بعضنا لبعض سوى أننا مصنوعون على صورة الله ؟ وعلى ما يقوله باسيليوس المتعمق كثيراً في الإلهيات : « إن إكرام الإيقونة يعود إلى من تمثله في الأصل » ، والمثال هو ما ترسمه الصورة ، وهي مشتقة عنه . فلمن يا ترى كان يسجد الشعب الموسوي حول الخباء الخاوي صورة السماوات ورمزها ، أو بالأحرى صورة الخليفة كلها ؟ وهذا هو قول الله لموسى : « انظر واصنع على المثال الذي أنت مراه في الجبل » (٩٥) . والكاروبان المظللان المغفر ، ألم يكونا صنع أيدي الناس ؟ وماذا كان هيكل أورشليم الشهير ؟ ألم يكن من صنع الأيدي وقد أتقن الناس زخرفته ؟

الممنوع إنما هو عبادة الأصنام والذبايح المقدمة للشياطين : - والكتاب المقدس قد تكلم بتشهير عن الساجدين للمنحوتات والذابحين للشياطين . وكان اليونانيون يذبحون واليهود أيضاً يذبحون . لكن ذبايح اليونانيين كانت للشياطين وذبايح اليهود ، لله . وكانت ذبيحة اليونانيين مردولة ومحكوماً عليها ، وذبيحة الصديقين مقبولة لدى الله . فإن نوحاً قد أصدع محرقات لله ، « فتنسّم الرب رائحة الرضى » (٩٦) وتقبل استعداده الطيب الواصل إليه تعالى . فعلى هذا النحو كانت إذاً أصنام اليونانيين أي تماثيل الشياطين مردولة وممنوعة . لم يكن استعمال الإيقونات دارجاً في العهد القديم لأن الله لا يرى . - السبب في دخول

هذه العادة في العهد الجديد . - السجود للإيقونات من التقليد الكنسي - ما عدا ذلك ، من يستطيع أن يصنع شيئاً لله الذي لا يرى والذي لا جسد له ولا حد ولا شكل ؟ ... فإن المحاولة لوضع شكل للإله قمة في الغباوة والكفر ! لذلك لم يكن دارجاً في العهد القديم استعمال الإيقونات . غير أنه لما صار الله ، بحشا رحمته ، إنساناً بالحقيقة لأجل خلاصنا ، ليس كما ترأى لإبراهيم بهيئة إنسان ، ولا كما للأنبيا ، بل ذلك أنه بالحقيقة صار إنساناً في



الجوهر وعاش على الأرض وتردد بين الناس واجترح المعجزات وتألم وصلب وقام وصعد وحدث كل هذا بالحقيقة ورآه الناس ودونوه لتذكيرنا به وتعليمنا نحن الذين لم نكن حاضرين آنذاك، حتى إذا آمنا بما لم نره ولم نسمعه، نخطي بتطويب الرب. ولكن لما كان لا يعرف الجميع الكتابة وليسوا بمتحررين على القراءة، فقد رأى الآباء أن يسموا هذه التذكارات في ايقونات تمثل بعض المآتي الشريفة في موجز تذكاري. وإننا كثيراً ما لا نكون في حالة التفكير في آلام المسيح ونرى ايقونة صلب المسيح فننتقل بالذاكرة إلى الآلام الخلاصية ونرتمي ساجدين، ليس للمادة، بل للمرسوم فيها، كما نحن لا نسجد لمادة الإنجيل ولا لمادة الصليب، بل لما يوحيان به إلينا. فما الفرق بين صليب لا يحمل مثال الرب وآخر يحمله؟ كذلك قل عن مثال أم الله. فإن الإكرام المقدم لها يرتفع إلى المتجسد منها. كذلك أيضاً إن مآتي الرجال القديسين يرفعنا إلى الشجاعة والغيرة والتشبه بفضائلهم وتمجيد الله. وكما قلنا، إن الإكرام الموجه إلى العيد المخلصين للسيد لبرهان على حسن النية نحو السيد العام. وإكرام اياقونة يعود إلى من تمثل. وهناك تقليد غير مكتوب كالسجود باتجاه المشرق والسجود للصليب وكثير غيرها تماثلها.

الملك الأبحر وروسم المسيح: - وقد غنى إلينا خبر مفاده أن الأبحر، في زمن تملكه على مدينة الرها، قد أوفد إلى الرب رسماً ليرسم له صورة تمثله، ولما لم يستطع ذلك لإشعاع بهاء وجهه، وضع الرب نفسه رداً على وجهه الإلهي والمحيي فارتسمت صورته على الرداء، فأرسلها هكذا إلى الأبحر تلبيةً لطلبه.

وقد ترك لنا الرسل الكثير مما لم يكتب فكتب رسول الأمم يقول: «اثبتوا إذا أيها الإخوة وتمسكوا بالتقاليد التي تعلمتموها إما بكلامنا وإما برسائلنا»^(٩٧)، وكتب إلى أهل كورنثوس: «إني أمدحكم أيها الإخوة لأنكم تذكرونني في كل شيء وتحافظون على التقاليد كما سلمتها إليكم»^(٩٨).

في الكتاب المقدس

إِنَّ اللَّهَ الْأَحَدَ قَدْ أَوْحَى بِكُتُبِ الْعَهْدَيْنِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ : - إنه الله الأحد المنادى به في العهدين ، القديم منها والجديد ، والمسيح والممجد في ثلوثه هو المقصود في قول الرب : « أنا لم آت لأحلّ الناموس والأنبياء لكن لأتكمم » (٩٩) . فإنه هو نفسه الذي صنع خلاصنا الذي من أجله كان كل كتاب وكل سر . ويقول الرب أيضاً : « فتشوا الكتب ، فإنها هي نفسها تشهد من أجلي » . ويقول الرسول : « إِنَّ اللَّهَ الَّذِي كُلَّمِ الْآبَاءُ قَدِيمًا فِي الْأَنْبِيَاءِ كَلَامًا مَتَفَرِّقَ الْأَجْزَاءِ مُخْتَلَفِ الْأَنْوَاعِ ، كُلَّمَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فِي الْإِبْنِ » (١٠٠) . فبالروح القدس إذاً قد تكلم الناموس والأنبياء والإنجيليون والرسل والرعاة والمعلمون .

إِذَا فَإِنَّ « الْكِتَابَ كُلَّهُ قَدْ أَوْحَى بِهِ مِنْ اللَّهِ . وَمَنْ ثُمَّ هُوَ مُفِيدٌ ... » (١٠١) . لذلك يحسن ويفيد جداً البحث في الكتب الإلهية ، فكما الشجرة المغروسة على مجاري المياه هي النفس أيضاً المرتوية من الكتاب الإلهي ، فتغذى وتأتي بشمر ناضج ، أعني الإيمان المستقيم ، وترهو بأوراقها الدائمة الاخضرار أعني بها أعمالها المرضية لله . ونحن إذا سرنا على هدى من الكتاب المقدس نخطو في طريق السيرة الفاضلة والاستنارة الصافية ، فنجد فيها مدعاة لكل فضيلة ونفوراً من كل رذيلة . وعليه إذا كنّا نحب معرفتها تكثر فينا هذه المعرفة . وبالإجتهاد والكدّ والنعمة التي يعطينها الله يتم إصلاح كل شيء ، « لأن كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له » (١٠٢) . فلنقرع إذاً باب الكتب المقدسة ، الفردوس الأبهي الذكيّ الراشع الفائق العذوبة الجزيل الحجال والمطرب آذاننا بمختلف أنغام طيوره العقلية اللاسية الله ، النافذ إلى قلبنا فيعزبه في حزنه ويريمه في غضبه ويملاّه فرحاً لا يزول . وهو الذي يركب ذهننا على متن الحمامة الإلهية المذهب والبراق (١٠٣) بجناحيها الساطعي الضياء سيراً إلى الابن الوحيد وارث زارع الكرم (١٠٤) العقلي ، وبالأبن تبلغ به إلى الآب ، أبي الأنوار . وهنا فلنقرع بلا تباطؤ وبلجاجة كبرى وثبات . ولا نكف عن أن نقرع . وهكذا يفتح لنا . وإذا قرأنا مرةً ومرةً ولم نفهم ما نقرأه فلا نملّ من أن نقرع ، بل فلنبشّ وتأمل ونسأل ، لأنه قال : « سل أبالك يبتك وأشياحك يحدّثونك » (١٠٥) ، « فليس العلم في جميع

(٩٩) متى ٥ : ١٧ (١٠٠) عبر ١ : ١ - ٢ (١٠١) ٢ تيموثاوس ٣ : ١٦ (١٠٢) لوقا ١١ : ١٠

(١٠٣) مز ٧٦ : ١٤ (١٠٤) متى ٢١ : ٣٨ (١٠٥) نشية ٣٢ : ٧

الناس» (١٠٦). لنغترف إذًا من ينبوع الفردوس مياهاً جاريةً صافيةً «تنبع إلى الحياة الأبدية» (١٠٧). لتتغنَّ ولا ترتو من التَّغَمَّ، لأنَّ النعمة في الكتب المقدسة مجانية. وإذا استطعنا أن نحني فائدة ما مما في خارج هذه الكتب فليس ذلك من المحاذير. ولكن في ذلك صبارةً حاذقين نحفظ لنا بالذهب المعروف والصافي ونرمي منه ما كان مغشوشاً. لنأخذن من الكلام أجوده ونلقِ إلى الكلاب آهتهم الهزيلة وخرافاتهم الغربية. فإننا لنستطيع أن نقني منها قوَّة ضدَّهم.

عدد كتب العهد القديم المقدسة : - واعلم أن كتب العهد القديم اثنان وعشرون ، على عدد حروف الأبجدية العبرية . فإن هذه الحروف اثنان وعشرون يُرَاد عليها خمسة مضاعفة ، فنصبح سبعة وعشرين . والمضاعفة هي القاف والميم والنون والفاء والصاد . لذلك فإنَّ الكتب المقدسة ، والحالة هذه ، اثنان وعشرون بالعدد وتصبح سبعة وعشرين ، لأنَّ خمسةً منها مضاعفة . ويلحق العبرانيون راعوت بالقضاة ويعدونها كتاباً واحداً ، ويضمون سفرَي الملوك الأول والثاني إلى كتاب واحد ، وسفري الملوك الثالث والرابع إلى كتاب واحد ، وسفري أخبار الأيام الأول والثاني إلى كتاب واحد وسفري عزرا الأول والثاني إلى كتاب واحد . ومن ثمَّ تُقسم الكتب إلى أربع مخمَّسات ويزيد كتابان ومضمونها هو كما يأتي : خمسةٌ تشريعية هي التكوين والخروج والأخبار والعدد وتثنية الاشترع . هذه هي الخمسة الأولى أو التشريع . بعد ذلك مخمَّسةٌ أخرى تُدعى المكتوبة ويسمِّيها بعضهم الكتابات المقدسة وهي يشوع بن نون والقضاة مع راعوت والملوك الأول مع الثاني - سفر واحد - والملوك الثالث مع الرابع - سفر واحد - وأخبار الأيام الإثنان سفر واحد . وقد تمَّت بذلك المخمَّسة الثانية . والمخمَّسة الثالثة هي الأسفار الشعرية : أيوب والمزامير وأمثال سليمان والجامعة - له أيضاً - ونشيد الأناشيد - له أيضاً . والمخمَّسة الرابعة هي النبوة : الإثنا عشر نبياً - سفر واحد - وأشعيا وإرميا وحزقيال ودانيال . ثم عزرا - الإثنان يُعدان سفرًا واحداً - وأستير . أما كمال الفضيلة أي حكمة سليمان وحكمة يشوع - السفر الذي كان أبو سيراخ قد وضعه بالعبرية وترجمه يشوع حفيده وابن سيراخ إلى اليونانية - فهما سفران مملوءان حكمة وشرِيفان ، لكنها لا يُحسبان ولم يُوضعا في التابوت .

كتب العهد الجديد : - وأسفار العهد الجديد هي الأناجيل الأربعة لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا . وأعمال الرسل القديسين للوقا الإنجيلي . والرسائل الجامعة السبع : واحدة ليعقوب واثنان لبطرس وثلاث ليوحنا وواحدة ليهوذا . ورسائل بولس الرسول الأربع عشرة ورؤيا يوحنا الإنجيلي . وقوانين الرسل القديسين بواسطة إقليميس .

المقولات في المسيح

المقولات في المسيح أربعة أنواع أصليّة: - تُقسم المقولات في المسيح إلى أربعة أقسام أصليّة، ذلك نسبةً إلى ما قبل تأنّسه وفي حال تأنّسه وبعد تأنّسه وبعد قيامته.

(١) فالمقولات فيه قبل تأنّسه تُقسم إلى ستّ حالات:

(آ) منها ما يدلّ على صلة طبيعته ومساواتها مع الآب، كقوله: «أنا والآب واحد» (١٠٨)، و«مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الآب» (١٠٩) و«الَّذِي إِذْ هُوَ فِي صُورَةِ اللَّهِ» (١١٠)، وما ماثلها.

(ب) وغيرها يدلّ على كمال أقدومه كقولك: «ابن الله» و«صورة جوهره» (١١١)، و«رسول الرأي العظيم، عجيّباً مشيراً» (١١٢)، وما إليها.

(ج) وغيرها يدلّ على نفوذ الأقانيم بعضهم في بعض كقوله: «أنا في الآب والآب فيّ» (١١٣)، وعلى ارتباط لا يُستأصل، كالكلمة والقوة والحكمة والبهاء. فإن الكلمة هي في العقل أعني أنها فيه صفة جوهرية. وكذلك الحكمة. والقوة هي في القوي. والبهاء هو في النور.

(د) وغيرها يدلّ على أن الابن هو من الآب علته كقوله: «إِنَّ الآبَ أَعْظَمَ مِنِّي» (١١٤)، فَإِنَّ وجود الابن وكل ما له هو من الآب. لَكِنَّ وجوده هو من الآب بالولادة لا بالإبداع كما في قوله: «أَنَا مِنَ الآبَ خَرَجْتُ وَأَتَيْتُ» (١١٥) و«أَنَا أَحْيَا بِالآبِ» (١١٦). وكل ما هو للابن ليس له يعطاه ولا بتعليم بل من علته، كما يقول: «إِنَّ الابْنَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلَّا مَا يَرَى الآبَ يَعْمَلُهُ» (١١٧). فلو لم يكن الآب لما وجد الابن. فَإِنَّ الابْنَ مِنَ الآبِ وَفِي الآبِ وَمَعَ الآبِ. وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الآبِ. وبالمثل إِنَّ مَا يَعْمَلُهُ إِنَّمَا يَعْمَلُهُ مِنْهُ وَمَعَهُ، لِأَنَّ الإرادة والفعل والقوة هي نفسها - وليست ماثلة - بل هي هي نفسها للآب والابن والروح القدس.

(١٠٨) يوحنا ١٠: ٣٠	(١٠٩) يوحنا ١٤: ٩	(١١٠) فليبي ٢: ٦	(١١١) عبرا ١: ٣
(١١٢) أنشعيا ٩: ٥	(١١٣) يوحنا ١٤: ١٠	(١١٤) يوحنا ١٤: ٢٨	(١١٥) يوحنا ١٦: ٢٧
(١١٦) يوحنا ٦: ٥٧	(١١٧) يوحنا ٥: ١٩		

ه) وغيرها يدل على كيفية إتمام المسرة الأبوية بفعل الابن ، ذلك ليس على أنه عضو أو عبد ، بل على أنه كلمته وحكمته وقوته الجوهرية والأقنومية ، لسبب أن الحركة تُرى واحدة في الآب والابن. مثلاً : «كلُّ به كان» (١١٨) و «أرسل كلمته فشفاهم» (١١٩) ، وأيضاً «لكي يؤمنوا أنك أنت أرسلتني» (١٢٠) .

و) وغيرها نبوة . وهذه بعضها مستقبلية ظاهرة . مثلاً : «إلها يأتي» (١٢١) . وقول زكريا : «هوذا ملكك يأتيك...» (١٢٢) ، وما يقوله ميخا : «هوذا الرب يخرج من مكانه وينزل ويوطأ مشارف الأرض» (١٢٣) . وبعضها مستقبلية أيضاً ولكنها بصيغة الماضي ، مثلاً : «هوذا إلها . تراءى على الأرض وتردّد بين البشر» (١٢٤) . وأيضاً : «الرب حازني في أول طريقه قبل ما عمله منذ البدء» (١٢٥) . وأيضاً : «لذلك مسحك الله إلهك بدهن الهبة أفضل من شركائك» (١٢٦) ، وما مائل ذلك .

وعليه إنَّ ما يُقال في المسيح قبل الاتحاد يُقال فيه بعد الاتحاد أيضاً . أمّا ما يُقال فيه بعد الاتحاد فلا يُقال أبداً فيه قبل الاتحاد ، اللهم إذا ما كان ذلك عن طريق النبوة ، كما سبق القول .

٢) والمقولات عن المسيح في الاتحاد تُقسم إلى ثلاث حالات : - في حال نجعل الكلام في المسيح انطلاقةً من جزئه الأسمى ، نتحدّث عن تأليه جسده و «تأكله» (١٢٧) وتفوّقه السامي وما شاكل ذلك ، موضحين ما حصل للجسد من غنى من جرّاء اتحاده والتحامه بالكلمة الإله العلي . وحين نجعل الكلام في المسيح صعوداً من جزئه الأدنى ، نتحدّث عن تجسّد الله الكلمة وتأنسه وإفراغه من ذاته وافتقاره وتواضعه ، فإنّ هذه وأمثالها تحكي عن بشرية المزاج التي لله الكلمة . أمّا في حال نجعل الكلام في المسيح انطلاقةً من كلا الجزئين معاً ، فنخبر عن الاتحاد والشركة والمسحة وتلاحم الطبيعتين وتلاحم الشكّلين وما شاكل . إنه إذاً لسبب هذه الحال الثلاثة يجري الكلام عن الحاليين السابقين . فبالإتحاد إذاً يظهر ما كان لكلٍ منها من تواجد الانسجام والنفوذ . وبسبب اتحاد الجسد في أقنوم يُقال بأنه قد تأله وإنه قد صار إلهاً وإنه قد صار إلهاً واحداً مع الكلمة ، ثم يُقال بأن الله الكلمة قد تجسّد وصار إنساناً وصار خليفة و «دعي أخيراً» (١٢٨) ، وذلك ليس أنه قد صار تحويلاً من

(١١٨) يوحنا ١ : ٣ (١١٩) مز ١٠٦ : ٢٠ (١٢٠) يوحنا ١١ : ٤٢ (١٢١) مز ٢٩ : ٢
(١٢٢) زكريا ٩ : ٩ (١٢٣) ميخا ١ : ٣ (١٢٤) باروك ٣ : ٣١ - ٣٤ (١٢٥) أمثال ٨ : ٢٢
(١٢٦) مز ٤٤ : ٨ (١٢٧) تأكل جسّد المسيح = اتحد بالكلمة (١٢٨) راجع أنبيا ٥٣ : ٣

طبيعتين إلى طبيعة واحدة مركبة - فلا يمكن لمتضادين طبيعتين أن بصيرا معاً إلى طبيعة واحدة - ، بل ذلك من طبيعتين متحدتين في أقنوم وحاصلتين على نفوذ إحداهما في الأخرى بدون اختلاط ولا تشويش . وإن النفوذ قد كان لا من قبل الجسد ، بل من قبل اللاهوت ، لأن لا طاقة للجسد أن ينفذ في اللاهوت ، بل هي الطبيعة الإلهية وحدها قد نفذت في الجسد وأعطت للجسد نفوذه المعجز البيان . وهذا ما نسميه الاتحاد .

مبادلة الصفات : - واعلم أنه في الحالين الأولى والثانية في الاتحاد يبدو مشهد عكسي : فعندما نجعل كلامنا عن الجسد ، نقول بالتأله والتكلم والتسامي والمسحة ، ذلك أن النظر إلى الجسد بخصوص هذه المواضع منطلق من اللاهوت . وعندما ينتقل الكلام إلى الكلمة ، نقول بافراغه وتجسده وتأنسه واتضاعه وما شاكل ذلك . وإن هذا الذي قد قلناه في الكلام انطلاقاً من الجسد وانعكاساً على الله الكلمة إنما كان لأنه هو نفسه ارتضى أن يحتل ذلك .

٣ المقولات في المسيح بعد الاتحاد ثلاثة أنواع : - المقولات في المسيح في ما بعد الاتحاد ثلاثة أنواع : - الأول يوضح طبيعته الإلهية ، مثلاً : «أنا في الآب والآب فيَّ» (١٢٩) ، و «أنا والآب واحد» (١٣٠) ، وكل ما يقال فيه قبل تأنسه يقال أيضاً بعد تأنسه ، ما عدا أنه لم يكن قد اتخذ الجسد ولا أعراضه الطبيعية .

الثاني يوضح طبيعته البشرية ، مثلاً : «لماذا تطلبون قتلي وأنا إنسان قد كلمكم بالحق» (١٣١) و «هكذا ينبغي أن يُرفع ابن البشر» (١٣٢) ، وما شاكلها .

- والمقولات هذه المكتوبة عن المسيح المخلص والدالة بالقول أو بالفعل على أنه إنسان هي ستة أنواع : - فمنها ما قد جرى أو قيل طبيعياً وتدبيراً لخلاصنا . مثلاً : - ولادته من العذراء ونموه وتقدمه في العمر وجزعه وعطشه وتعبه وبكاؤه ونومه . وأنه جرح بالمسامير ومات النخ . إنها كلها آلام طبيعية وبريثة من الخطيئة وهي كلها مزيج من الإلهي والبشري رغم أنها - من المسلم به - تختص حقيقةً بالجسد ، وأن الإلهي فيها لم يتألم البتة ، لكنه قد أجرى خلاصنا بواسطة هذه الآلام .

- ومن المقولات ما قيل للتظاهر بالشيء . مثلاً : سؤاله : «أين وضعتم لعازر ؟» (١٣٣) .

الكتاب الرابع

ودنوه من شجرة التين وارتداده عنها راجعاً (١٣٤). وصلاته. وأنه «تظاهر بأنه منطلق إلى مكان أبعد» (١٣٥). إن هذه التصرفات وأمثالها لم يكن المسيح بحاجة إليها، لا بصفته إلهاً ولا بصفته إنساناً. لكنه تذرّع بها - كما يفعل البشر - ليبلغ إلى ما هو ضروري ومفيد. مثلاً: لقد صليّ ليُظهر بسؤاله أنه ليس معادياً لله، وأنه يُكرم الآب على أنه عُلته. وقد سأل - ليس لأنه يجهل - بل ليُظهر أنه بالحقيقة إنسانٌ رغم كونه إلهاً. وقد تراجع عن التينة ليعلمنا ألا نتجاسر ونستسلم لذواتنا.

- ومن المقولات ما هي التماسُّ للعون والنجدة. مثلاً: «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» (١٣٦) و «إن الذي لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة لأجلنا» (١٣٧) و «صار لعنة لأجلنا» (١٣٨) و «يُخضع الابن نفسه للذي أخضع له كل شيء» (١٣٩). والحال إن الآب لم يترك ابنه قط لا من حيث هو إله، ولا من حيث هو إنسان. ولم يكن الابن قط خطيئة ولا لعنة، ولم يكن بحاجة إلى أن يخضع للآب. فمن حيث هو إله، هو مساو للآب وهو ليس معادياً له ولا خاضعاً له. ومن حيث هو إنسان، فلم يكن قط مقاوماً لأبيه كي يضطر إلى تقديم الخضوع له. إنما قال هذا لأنه قد اختصَّ بشخصنا وجعل ذاته بمستوانا، لأننا كنّا خاضعين للخطيئة واللعنة. ولذلك كنّا متروكين.

- ومن المقولات ما هو آتٍ من تمييز في الفكر. فإن كنتَ تميّز في فكرك ما هو - أي الجسد - غير منفصل في الواقع عن الكلمة، أمكنك الكلام عن عبدٍ وجاهلٍ - لأن الجسد هو من طبيعته عبدٌ وجاهلٌ - لو لم يتحد بالله الكلمة، لكان يمكنه أن يكون عبداً وجاهلاً. أمّا وقد اتحد أقنومياً بالله الكلمة، فهو لم يكن قط عبداً ولا جاهلاً. ولذلك سمّي الآب إلهه.

- ومن المقولات ما كان لإظهاره ذاته لنا توطيداً لإيماننا به. مثلاً: «الآن مجدّني أنت يا أبتِ عندك بالمجد الذي كان لي من قبل كون العالم» (١٤٠)، فإنه قد كان هو نفسه مجدداً ولا يزال. لكن مجده لم يكن ظاهراً لدينا فيضطرنا إلى تصديقه. وهذا مثل آخر من قول الرسول: «يسوع المسيح ربنا الذي حدّد أن يكون ابن الله بحسب روح القداسة بالقيامة من بين الأموات» (١٤١). فقد ظهر بمعجزاته وقيامته وحلول روحه القدوس واضطر العالم إلى

(١٣٧) ٢ كور ٥: ٢١	(١٣٦) متى ٢٧: ٤٦	(١٣٥) لوقا ٢٤: ٢٨	(١٣٤) متى ٢١: ١٩
(١٤١) رومة ١: ٤	(١٤٠) يوحنا ١٧: ٥	(١٣٩) ١ كور ١٥: ٢٨	(١٣٨) غلا ٣: ١٣

الإيمان بأنه ابن الله. وأخيراً قول الإنجيلي: «وكان ينمو في الحكمة والنعمة» (١٤٢).
- ومن المقولات ما يختص بشخصه بصفته يهودياً. فقد كان يُحصي ذاته مع اليهود، كقوله للسامرية: «أنتم تسجدون لما لا تعلمون ونحن نسجد لما نعلم لأن الخلاص هو من اليهود» (١٤٣).

الثالث هو الذي يُظهر وحدة الأقنوم ويثبت اتحاد الطبيعتين. مثلاً: «أنا أحيا بالآب، فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي» (١٤٤)، و «إني منطلق إلى الآب ولا تروني بعد» (١٤٥).
و «لو عرفوا لما صلبوا رب المجد» (١٤٦). و «لم يصعد أحد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن البشر الذي هو في السماء» (١٤٧). وما شاكل ذلك.

٤) المقولات في المسيح بعد قيامته: - منها ما هو لائق بلاهوته. مثلاً: «معمدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس» (١٤٨)، ودالٌّ على أن الابن هو الله. مثلاً: «ها أنا معكم كل الأيام إلى متى الدهر» (١٤٩). وما شاكلها. فإنه هو معنا بصفته إلهاً. ومن هذه المقولات ما يليق بصفته إنساناً. مثلاً: «أمسكن قدميه» (١٥٠). و «هناك يروني» (١٥١). وما شاكل ذلك.

والمقولات في المسيح بعد قيامته اللائقة بناسوته مختلفة الأنواع. فإن بعضها قد حصل في الحقيقة، ولكن ليس بمقتضى طبيعة (الأجسام الممجّدة)، بل بمقتضى تدبير خلاصنا لتثبيت الإيمان بأن الجسد الذي قد تألم هو نفسه قد قام، مثل ذلك آثار الجروح وأكل المسيح وشربه بعد قيامته. وبعضها حصل في الحقيقة وبمقتضى الطبيعة الممجّدة، كانتقاله من أمكنة إلى أخرى بدون إجهاد، ودخوله والأبواب مغلقة، وبعضها كان تظاهراً بعمل ما، كما جاء في الآية: «تظاهر بأنه منطلق إلى مكان أبعد» (١٥٢). وبعضها كان بمقتضى طبيعته، مثلاً: «إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلحكم» (١٥٣)، و «ليدخل ملك المجد» (١٥٤)، و «جلس عن يمين الجلال في الأعالي» (١٥٥). وبعضها - وكأنه انضم إلى صفنا - كان متميزاً عنا على مستوى التفكير العالي، كما في: «إلهي إلهي!». .

(١٤٢) لوقا ٢: ٥٢	(١٤٣) يوحنا ٤: ٢٢	(١٤٤) يوحنا ٦: ٥٧	(١٤٥) يوحنا ١٦: ١٠
(١٤٦) ١ كور ٢: ٨	(١٤٧) يوحنا ٣: ١٣	(١٤٨) متى ٢٨: ١٩	(١٤٩) متى ٢٨: ٢٠
(١٥٠) متى ٢٨: ٩	(١٥١) متى ٢٨: ١٠	(١٥٢) لوقا ٢٤: ٢٨	(١٥٣) يوحنا ٢٠: ١٧
(١٥٤) مز ٢٣: ٧	(١٥٥) عبرا ١: ٣		

فينبغي إذاً أن تنسب أفعال المسيح السامية إلى طبيعته الإلهية المنزهة عن الآلام والجسد ، وأن تنسب أفعاله الوضيعة إلى طبيعته البشرية . أما أفعاله المشتركة فألى المركب ، أي إلى المسيح الواحد الذي هو إله وإنسان ، علماً بأن كليهما يُنسب إلى ربنا يسوع المسيح الواحد نفسه . فإذا عرفنا ما يختص بكل طبيعة منهما ورأينا أن كلا الفعلين من واحد ، يكون إيماننا مستقيماً ولا نضل . فمن هذا كله ، نعرف حقيقة الفرق بين الطبيعتين المتحدتين ، لئلا ، كما يقول كيرلس المتفوق في علم اللاهوت ، نجعل اللاهوت والناسوت شيئاً واحداً على مستوى الصفات الطبيعية . أجل إن الابن والمسيح والرب واحد ، وبما أنه من واحد ، فإن شخصه واحد أيضاً ووحده الأقمومية لا تنقسم في أي حالٍ من الأحوال بسبب معرفة فارقها الطبيعي .

في أن الله ليس هو علة الشرور

في الكتاب المقدس كلمة «فعل» الله تعني «سماحه»: - اعلم أن العادة في الكتاب الإلهي أن يُسمى سماحُ الله فعله، كما يقول الرسول في رسالته إلى الرومانيين: «أليس للخزاف يصنع هذا وذلك، لأنَّ صانع الكلِّ واحدٌ وهو هو نفسه. ولكن ليس هو الذي يُهيئ ما هو للكرامة وما هو لغير الكرامة. إنما هذا يختصُّ باختيار كلِّ أحد. وهذا واضحٌ مما يقوله الرسول في رسالته الثانية إلى تيموثاوس: «لا تكون في بيت كبير آنية من فضة وذهب فقط بل من خشب وخزف أيضاً بعضها للكرامة وبعضها للهوان. فإنَّ طهر أحد نفسه من هذه فإنه يكون إناء للكرامة مقدساً أهلاً لاستعمال السيد معدداً لكل عمل صالح» (١٥٧). فواضح أن التطهير متركٌ لاختيارنا، إذ يقول: إن طهر أحد ذاته، والنتيجة العكسية تتبعُ وهي: إذا أحدنا لم يتطهر يكون إناء للهوان، لا يصلح إلا للكسر. ومن ثمَّ يصحُّ ما تقدّم وما يأتي من كلام: «لأنَّ الله أغلق على الجميع في الكفر ليرحم الجميع» (١٥٨). وأيضاً: «أعطى الله هذا الشعب ظلاماً لئلا يبصر بعينه ويسمع بأذنيه» (١٥٩). فيجب من ثمَّ أن نعتبر هذا كله - لا أنه فعل الله - بل أنه سماح من الله، لأنَّ الخير حرٌّ لا يُغصب.

إنَّه هو إذاً إلاَّ سماح الله ما اعتاد الكتاب الإلهي تسميته بفعل الله وصنعه، بل يقول أيضاً الكتاب: «أنا الرب خالق الشر» (١٦٠)، و«أكون شرٌّ في المدينة ولم يفعله الرب» (١٦١)؟ - إلاَّ أنَّ هذا ليس بدليل على أن الله هو علة الشرور. لكن بما أنَّ الشر ذو وجهين، فإنَّ له معنيين: فهو حيناً يدلُّ على الشرِّ في الطبيعة. وهذا مضادٌّ للفضيلة ولإرادة الله. وحيناً آخر هو شرٌّ ووجعٌ يتنافى مع شعورنا. أعني بذلك الأحران والمصاب. وهذه إنما تبدو شروراً لأنها مؤلمة والحقيقة أنها صالحة لأنها تكون بواعث إلى الارتداد والخلاص لمن يفهمون. وهذه هي التي يقول فيها الكتاب إن الله صانعها.

(١٥٦) رومة ٩: ٢١ (١٥٧) ٢ تيموثاوس ٢: ٢٠ - ٢١ (١٥٨) رومة ١١: ٣٢ (١٥٩) أشعيا ٦: ١٠

(١٦٠) أشعيا ٤٥: ٧ (١٦١) عاموس ٣: ٦

واعلم أننا نحن أيضاً نكون علة هذه الشرور . فإن من الشرور التي نرضى بها تصدر شرور لا نرضى بها .

واعلم هذا أن من عادة الكتاب المقدس أن يقول بوجوب أمور ، على أنها العلة ، وهي إنما يقال بوجوبها عرضاً . مثلاً : «إليك وحدك خطئت وأمام عينيك صنعت الشر لكي تغلب في كلامك وتظهر في قضائك» ^(١٦٢) . فإن الخاطيء لم يخطأ لكي يغلب الله وإن الله ليس بحاجة إلى خطيئتنا لكي يظهر منتصراً عليها ، لأن انتصاراته لا ينالها على الخطاة فحسب ، بل على الجميع ، لأنه هو الخالق الذي لا يُدرك ولم يُخلق . وله المجد مكتسباً من طبيعته . لكننا إذا نحن أخطأنا فلا يكون الله غير عادل إذا ما أنزل سُخطه علينا . وإذا عُدنا إليه تائبين ، يبدو منتصراً على شرورنا . والحال نحن لسنا نخطأ لهذه الغاية . إنما الأمر يحدث كما لو أن أحدنا أنهى شغله وجلس ثم أتاه صديق فيقول : إنني لا أشتغل اليوم لأن صديقي قد أقبل إلي . فإن الصديق لم يأت لكي يتوقف هذا عن الشغل . إنما جرى الأمر هكذا . فإنه قد توقف عن الشغل دون أن يحسب أي حساب لتقديم صديقه . ويقال لهذه الأمور عارضة ، لأنها قد جرت هكذا . وإن الله لا يريد أن يكون هو وحده عادلاً ، بل أن يتشبه الجميع به على حسب طاقتهم .

في المبدأين : الخير والشر

ردّ على المانيّين بأننا لسنا نقول بمبدأين : - وعليه نعرف أن ليس ثمة مبدأن ، الواحد صالح والآخر شرّير . لأن أحدهما يُضادّ الآخر وأحدهما يُفسد الآخر . ولا يتواجد أحدهما في الآخر أو أحدهما مع الآخر . ومن ثمّ يكون كلٌّ منهما في جزء من الكلّ . ويكون كلٌّ منهما - قبل كل شيء - محدوداً ، لا بالكلّ ، بل بجزء من الكلّ .

ثم من هو ياترى الذي يحدّد لكلٍّ منهما قطاعه ؟ فإنّ أحدهما لا يدعو الآخر للاجتماع والتعاقد ، لأنّ الشرّ ليس شراً إذا دعا للسلام وتعاقد في سبيل الصلاح . وليس الصلاح صلاحاً إذا هو ساوم في سبيل الشرّ . وإذا آخر كان المحدّد لكل منهما ما يختصّ به ، فذلك يكون هو الإله .

وتقضي الضرورة أن يكون واحد من أمرين : إمّا أن يقوى أحدهما على الآخر ويفسده ، وإمّا أن يكون هناك وسطٌ ما ، لا يكون فيه لا خيرٌ ولا شرٌّ ، قل إنه حاجز ما يفصل هذا عن ذلك . وحينئذٍ يكون ثلاثة مبادئ ، لا اثنان .

وتقضي الضرورة أن يكون مبدأ آخر غير هذين : إمّا المسألة - وهذا لا يستطيعه الشرّ ، إذ لا يلائم الشرّ أن يكون سلام - . وإمّا المحاربة - وهذا لا يستطيعه الصلاح ، إذ التحارب ليس من كمال الصلاح - . وإمّا أنّ الشرّ يحارب والصلاح لا يدافع ، بل يكون عرضة للشرّ ، فيتألم وتساء حاله - وهذا ليس مفهومنا عن الصلاح - . وعليه فإنّ المبدأ واحد وهو مترّة عن الشرّ .

إن الشرّ فقدان الخير وهو لا جوهر له : - ولكنهم يقولون : - إذا كان الأمر هكذا ، فن أين الشرّ ؟ لأنه يستحيل أن يكون أصل الشرّ من الخير . فنقول إذا إنّ الشرّ إنّ هو إلّا فقدان الخير وبعادٌ عما هو بمقتضى الطبيعة إلى ما هو ضدّ الطبيعة . فليس من شرّ هو بمقتضى الطبيعة ، لأن كل ما صنعه الله - ما زال في حال صنعه - حسنٌ جداً . وعليه ، طالما استمرّ على حال خَلَقَهُ يظلّ حسناً جداً . وكل من يفصل برضاه عما هو بمقتضى الطبيعة ويدخل في ما هو ضدّ الطبيعة ، يصير في الشرّ . إذاً كل عبيد الخالق الخاضعين له هم على مقتضى الطبيعة . وعندما يقطع أحد المخلوقات عنانه ويرفض الطاعة للخالق ، يصير في الشرّ ويستمرّ فيه . فليس الشرّ جوهرأ ما ، ولا إحدى خواصّ الجوهر . إنّ هو إلّا عرضٌ

أي تحويل طوعي مما هو بمقتضى الطبيعة إلى ما هو ضد الطبيعة . وهذا ما نسميه الخطيئة .
 الشيطان بارادته هو أبو الشر ، لا الطبيعة : - فمن أين الخطيئة إذا؟ - إن الشيطان قد
 أوجدها بإرادته الحرة . - وهل الشيطان إذا شرير؟ - هو ، كما خلقه الله ، لم يكن شريراً بل
 صالحاً ، لأن الخالق قد صنعه ملاكاً منيراً نبياً وحرّاً ، لأنه ناطق . وقد ابتعد هو برضاه عن
 الفضيلة التي هي بمقتضى الطبيعة ، وصار في ظلمة الشر ، مبتعداً عن الله الصالح وحده
 والمحبي والمطلع النور . فإن منه يستمد كل صالح صلاحه . وعلى قدر ما يبتعد هذا عنه
 بالعزم لا بالمكان ، يصير في الشر .

ما السبب في خلق الله من يعرفهم سيخطأون ولا يتوبون

لقد خلق الله الذين سبق وعرفهم أشراراً لكي لا يبدو الشر منتصراً على الصلاح : - إن الله ، لصلاحه ، يُخرج البرايا من العدم إلى الوجود وهو عارفٌ بمصيرها . إذاً لو لم تكن البرايا مزمعةً أن توجد لما كانت مزمعةً أن توجد شريرة . فإن لا شيء يُعرف قبل وجوده . وتختص العلوم بالحاضرات ويختص سابق المعرفة بالمستقبلات . وعلى الشيء أن يوجد أولاً حتى يُعرف إن كان وجوده صالحاً أو شريراً . فإذا كان الذين سيوجدون بسبب صلاحه تعالى يمنعهم عن الوجود أنهم سيصيرون أشراراً برفضهم ، فيكون الشر قد غلب صلاح الله . نستنتج من ذلك أن كل ما يصنعه الله إنما يصنعه صالحاً . وأن كل أحد يكون صالحاً أو شريراً برفضه الخاص . إذاً فكما يقول الرب : « قد كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد » (١٦٣) . وقد قال هذا ليس انتقاداً منه لصنعه الخاص ، بل للشر الواصل لصنعه من جراء الاختيار الخاص والتهامل . فإن إبطاء العزم الخاص قد جعل حسن صنيع الخالق غير مفيد . فإن حاله هي حال ذاك الذي استمد من ملكه ثروة وسلطة ، ثم استقل بسلطته تجاه المحسن إليه . فتنى قبض سيده عليه سوف يعاقبه عقاباً يستحقه إذا ما استمر ثابتاً حتى النهاية على عصيانه وغيته .

في شريعة الله وشريعة الخطيئة

كل شيء يريد به الله خير: - إن الإله صالح بالطبع وفائق الصلاح وإن إرادته كذلك. وكل ما يريد به الله صالح. أما الوصية التي تعلّمنا هذا فهي الناموس، حتى إننا إذا ما ثبتنا فيه نكون في النور. وما الخطيئة إلا تجاوز هذه الوصية. وتقوم بدافع من الشيطان وارتعائنا ورضانا بقبولها. ويقال لها هي أيضاً ناموساً.

ناموس الله وناموس عقلنا. - ناموس الخطيئة وناموس أعضائنا اللحمية: - لما يبلغ ناموس الله إلى عقلنا يجذب إليه ضميرنا ويوقظه، فيُدعى ضميرنا أيضاً ناموس عقلنا. ولما يبلغ دافع الشرير - وهو ناموس الخطيئة - هو أيضاً إلى أعضاء لحمنا، يدخل بها إلينا. فيكني أن نقاوم مرة فقط ناموس الله برضانا ونقبل بدخول الشرير، فنفسح المجال للخطيئة، بائعين ذواتنا إليها. ومن ثم يُقاد جسدنا إليها بسرعة. إذا فإن ما يكن في جسدنا من قابلية تنشق الخطيئة والتحسن لها أي الرغبة فيها والتلذذ بها يُسمى ناموس أعضائنا اللحمية.

شرح أقوال الكتاب المقدس بصدد الحرب القائمة بين الناموسين: - إن ناموس عقلي إذاً - أي الضمير - يلتذّ بناموس الله، أي الوصية، ويرغب فيه. أما ناموس الخطيئة - أي المدفوع بالناموس الذي في أعضائنا، وهو شهوة الجسد والميل والحركة والقسم غير الناطق من نفسي - فيحارب ناموس عقلي، أي ضميري، ويأسرني رغم رغبتني في ناموس الله ومحبتني إياه ونفوري من الخطيئة، ذلك بنعمته اللذة وشهوة الجسد والقسم غير الناطق من نفسي - كما قلت - فيضلّني ويقنعني بأن أستعبد للخطيئة. لكن «ما لم يستطعه الناموس وضعف عنه بسبب الجسد، قد أنجزه الله إذ أرسل ابنه في شبه جسد خطيئة - فقد اتخذ الجسد، أما الخطيئة فلا - وقضى على الخطيئة في الجسد من أجل الخطيئة، لئتم برّ الناموس فينا نحن الذين لا نسلك بحسب الجسد بل بحسب الروح» (١٦٤)، «فإن الروح يعضد ضعفنا» ويمنح القوة لناموس عقلنا ضدّ الناموس الذي في أعضائنا. «فإننا لا نعلم ماذا نصلي كما ينبغي ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا توصف» (١٦٥) أي يعلمنا ماذا نصلي، حتى إنه لا يمكن تنميم وصايا الرب إلا بالصبر والصلاة.

ردّ على اليهود بشأن السبت

ديانة يوم السبت : - يُسمّى اليوم السابع سبتاً. ويدلّ على الاستراحة. وفيه «استراح الله من جميع عمله»^(١٦٦)، كما ذكر الكتاب الإلهي. ولهذا السبب يتتابع عدد الأيام حتى السبعة ثم يدور مُبتدئاً من الأول. إنّ هذا العدد لشريف لدى اليهود، لأنّ الله قد رسم بتشريفه، وليس ذلك بدون إلزام، فإنه تعالى قد فرض أثقل العقوبات على من يخالفونه. وإنه تعالى لم يأمر به جزافاً، بل كان ذلك لأسباب يعرفها معرفة سرية الروحانيون ذوو الألباب.

تعليق الدمشقي على الوصية لليهود بالاستراحة يوم السبت : - إذا فعلى قدر معرفتي بأمور لم أتعلّمها، ولكي أبدأ بأدناها وأغلظها أقول : - لما كان الله يعلم بغلاظة الشعب الاسرائيلي وبأيماله اللحمية وجنوحه إلى المادّة مع عدم تمييزه، قد أوصاه أولاً - على ما كتب - «بأن يستريح عبده وحماره»^(١٦٧)، لأنّ «الرجل الصديق يرحم نفس بهيمته»^(١٦٨). وفي الوقت نفسه، لكي يتسنى له أن يخلّد هو نفسه إلى الراحة هرباً من اهتماماته المادية، فيتّجه إليه تعالى بالزمائم والتسايع والأناشيد الروحية، صارفاً اليوم السابع كلّه في تأمل الكتب الإلهية، ومستريحاً في الله. ذلك كان عندما لم يكن ناموس ولا كتاب ملهم ولا سبت مكرّس لله. ولما أُعطي بموسى الكتاب الملهم، تكرّس السبت لله، لكي يتفرّغ فيه لدرس الكتب والتأمل أولئك الذين لم يكرّسوا حياتهم كلّها لله وهم لا يخدمونه بلهفة، خدمتهم لسيدهم وأبيهم، بل شأنهم شأن عبيد أغنياء يقطعون من حياتهم جزءاً صغيراً أو ضيلاً لله، وذلك خوفاً من الحساب والعقاب في حال المخالفة «لأنّ الناموس لم يشرع للبار بل للآثمة»^(١٦٩). والبرهان أن موسى كان أول من قضى أربعين يوماً وأربعين ليلة صائماً بحضرة الله. وهو حتماً قد تحمّل الصيام في السبوت أيضاً، مع أن الناموس يقضي بالأب لا يتحمّل أحد الصيام في يوم السبت. وإذا قيل بأنّ هذا كان قبل الناموس، فماذا يقولون في إيليا التشبي، وقد سار أربعين يوماً في الطريق بعد أكلة واحدة؟^(١٧٠) فإن هذا قد نقض

(١٦٦) خروج ١٨: ٢٤

(١٦٧) أمثال ١٢: ١٠

(١٦٨) تثنية ١٤: ٥

(١٦٩) تكوين ٢: ٢

(١٧٠) ملوك ١٩: ٨

السبت ، إذ أضنى ذاته ليس بالصيام فحسب بل بالسفر أيضاً حتى في السبوت وذلك من مدة الأربعين يوماً . وإن الله الذي وضع الناموس لم يغضب عليه ، بل كافاً فضيلته بظهوره له على حوريب . وماذا يقولون في دانيال ؟ ألم يقض ثلاثة أسابيع صائماً ؟^(١٧١) وماذا يفعل اليوم إسرائيل كله ؟ ألا يخجنُ فناءه في السبت إذا اتفق أن يكون اليوم الثامن لمولده ؟^(١٧٢) . وهم ألا يصومون الصيام الكبير أيضاً ، المحدد شرعاً ، حتى إذا وقع في السبت^(١٧٣) ؟ أوليس أيضاً أن الكهنة واللاويين كانوا - بأعمالهم في خباء الشهادة - ينقضون السبت ولا حرجَ عليهم ؟ بل وإذا سقط حمارٌ في حفرة في السبت وانتشله أحدهم يبرر أو أعرض عنه يُدان ؟ وماذا فعل إسرائيل بأجمعه ، أما حملوا تابوت الله وطافوا به حول أسوار أريحا مدة سبعة أيام بما فيها حتماً يوم السبت أيضاً ؟

تبديل يوم السبت إلى ما هو أحسن : - إذاً ، كما قلنا ، فقد بدأ التفكير بحفظ السبت للتفرغ لما هو لله كي يستريح العبد والحیوان قسماً مفروضاً . وقد أنشئ لهم ذلك وهم بعد صبيان ، مستعدون لأركان العالم ، لحميون ، لا حول لهم على التفكير بما هو فوق الجسد والحرف . لكن «لما بلغ ملء الزمان أرسل الله ابنه الوحيد إنساناً مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبتني»^(١٧٤) ، فإن «كل الذين قبلوه أعطى لهم سلطاناً أن يكونوا أبناء الله ، للذين يؤمنون باسمه»^(١٧٥) ، «لأننا لسنا بعد عبيد ، بل نحن أبناء»^(١٧٦) ، ولسنا تحت الناموس بل تحت النعمة ، ولسنا بعد نخدم الرب خدمة جزئية وعن خوف ، بل نحن نلتزم بأن نقرب إليه كل أيام حياتنا ، فنوقف العبد دائماً عن الخطيئة - أعني به الغضب والشهوة - ونتحول به إلى الاستراحة في الله . أما الشهوة فتكون كلها قرباناً لله دائماً ، والغضب سلاحاً ضد أعداء الله ، والبهيمة - أي الجسد - فنوقف فيه عبودية الخطيئة ونتحول به إلى خدمة الوصايا الإلهية .

إن هذا ما أوصانا به ناموس المسيح الروحي . وإذا ما حفظناه نكون قد تفرقنا على حفظ ناموس موسى . فلما أتى الكامل زال الناقص ، ولما انشقَّ يصلب المخلص حجابُ الناموس - أي حجاب الهيكل - وأضاء الروح بالسنة نارية ، أبطل الحرف وهدأت الجسديات وانتهى ناموس العبودية وأعطى لنا ناموس الحرية . ونحن اليوم نحتفل بعيد راحة البشرية

(١٧١) دانيال ١٠: ٢ وما يليه (١٧٢) أخبار ١٢: ٣ (١٧٣) أخبار ٢٣: ٢٧ (١٧٤) غلاطية ٤: ٣ - ٥

(١٧٥) يوحنا ١: ١٢ (١٧٦) غلاطية ٤: ٧

الكاملة، أي يوم القيامة الذي فيه الرب يسوع، زعيم المسيرة إلى الحياة والمخلص يقود إلى الميراث الموعود به الذين يعبدون الله عبادة روحية، وهو نفسه قد سبقنا ودخل إليه، إذ قام من بين الأموات وانفتحت له الأبواب السماوية، فجلس بالجسد عن يمين الآب حيث سيدخل أيضاً حافظو الناموس الروحي.

الختان والسبت بالمعنى السرّي شيء واحد: - وعليه فنحن الساترين على هدى الروح، لا الحرف، علينا هجر الجسديات إلى العبادة الروحية والارتباط بالله. فإن ختاننا إنما هو الانقطاع عن اللذة الجسدية وعمّا فُضِّلَ عنا ولا طائل فيه. والغلفة ما هي سوى جلدة زائدة في عضو اللذة. وكل لذة لا تكون من الله وفي الله هي غلفة اللذة ورمزها القلفة. وما السبت إلا التوقف عن الخفيثة. وكلاهما شيء واحد يمارسه الروحانيون وليس فيه ما ينقص الناموس.

تعليق على العدد سبعة: - واعلم أن العدد سبعة يدل على الزمان الحاضر كله، كما يقول سليمان الحكيم: «اجعل القسمة إلى سبعة، بل إلى ثمانية»^(١٧٧). وإن داود المتكلم بالله قد ترنم في ثامن مزاميره في الانقضاء الآتي بعد القيامة من بين الأموات. إذ فإن الناموس برسمه اليوم السابع للراحة من الأعمال الجسدية والانقطاع إلى الأعمال الروحية، إنما كان يعني سرّياً إلى إسرائيل الحقيقي الحاصل بعقله على رؤية الله أن يرتقي بذاته إلى الله ويكون مترفعاً عن الجسديات.

في البتولية

تبرير البتولية. - إنها لازمت الإنسان في الفردوس : - اللحميون يقبحون البتولية وأصحاب الملذات يوردون للشهادة ما يأتي : « ملعون كل من لم يُقَمَّ نسلاً في إسرائيل » (١٧٨). أما نحن فنقول : استناداً إلى الله الكلمة المتجسد من بتول ، إن البتولية من العلاء ، وقد نبتت أصيلة في طبيعة البشر . فقد جُبل الإنسان من أرض بتول وخُلقت حواء من آدم وحده . وكانت البتولية تُأرَّس في الفردوس . ويقول الكتاب الإلهي إن آدم وحواء كانا عريانين وهما لا ينجحان (١٧٩). ولما تجاوزا الوصية علما أنها عريانان (١٨٠). ولخجلها خاطا لها مآزر . وبعد المعصية ، لما سمع آدم : « أنت ترابٌ وإلى التراب تعود » (١٨١) ، ودخل الموت إلى العالم بالمعصية ، حينذاك عرف آدم حواء امرأته فحملت وولدت (١٨٢). وكلا ينقرض جنس البشر بالموت ، فقد حصل الزواج ليستمّر جنس البشر في الوجود بولادة الأولاد .

بدء الزواج مرافق للخطيئة : - لكن ربما يقولون : لماذا إذاً أرادها الله ذكراً وأنثى (١٨٣) ؟ وقال لها : « إنميا واكثر » (١٨٤). فنجيب على هذا : - ان عبارة « إنميا واكثر » لا تدلّ حتماً على التكاثر بواسطة العلاقة الزوجية ، فإن الله كان قادراً على تكثير الجنس بطريقة أخرى لو أنها قد حفظا وصيته بلا انثلام حتى النهاية . لكن بما أن الله يعلم بسابق معرفته - وهو العالم بكل الأمور قبل أن تكون - أنها سوف يسقطان في المعصية وأنه سوف يقضي عليهما بالموت ، سبق فخلقها ذكراً وأنثى وأمرهما بأن ينميا ويكثر . فلنرجع إذاً في طريقنا إلى الوراء ونرّ امتيازات البتولية قائلين الشيء ذاته في العفة .

العفة ترتقي إلى الطوفان : - لما أوعز الله إلى نوح بأن يدخل السفينة وقلّده العمل على حفظ نسل العالم ، كان الأمر إليه على النحو التالي : « أدخل أنت وبنوك وامراتك ونسوة بنيك » (١٨٥). إن الله هنا قد فصلهم من نساءهم كي يتحاشوا ، مع العفة ، الغور والغريق العالمي العام . ثم هو بعد أن هدأت الكارثة قال : « أخرج من التابوت أنت وامراتك وبنوك

(١٧٨) تشبة ٢٥ : ٩ (١٧٩) تكوين ٢ : ٢٥ (١٨٠) تكوين ٣ : ٧ (١٨١) تكوين ٣ : ١٩
(١٨٢) تكوين ٤ : ١ (١٨٣) تكوين ١ : ٢٧ (١٨٤) تكوين ١ : ٢٨ (١٨٥) راجع تكوين ٧ : ٧

ونسوة بنيك معك» (١٨٦). فهذا الله يسمح مجدداً بالزواج لأجل التكثير. وإيليا قائد المركبة النارية عبر السماء، ألم يكن منقطعاً عن الزواج؟ ألم يشهد له بذلك ارتفاعه إلى السماء الذي يفوق البشر؟ (١٨٧) من أغلق السماوات (١٨٨) من أقام الموتى (١٨٩) من فلق نهر الأردن (١٩٠) أليس إيليا البتول؟ وأليشع تلميذه، ألم يظهر فضيلة معادلة لفضيلته لما سأل فورث نعمة روحه ضعفين (١٩١)؟ وما قولك في الفتية الثلاثة؟ ألم يتروصوا على البتولية فأضحوا متفوقين على النار، لأن أجسادهم صارت مع البتولية في معزل عن النار (١٩٢)؟ ودانيال المتقوي بالبتولية ألم تعف عنه أنياب الوحوش لأنها لم تكن لتقوى عليه (١٩٣)؟ والله الذي كان سبترامى للإسرائيليين ألم يُوعز إليهم بأن يحفظوا الجسم نقياً (١٩٤)؟ أولم يكن الكهنة يتعفون قبل ولوجهم الأماكن المحرمة وتقريبهم الذبائح (١٩٥)؟ أولم يقل الناموس بأن العفة صلاة عظيمة؟

كيف نفهم نص الكتاب المقدس: - فعلينا والحالة هذه أن نفهم الوصية الناموسية في أمي ما يكون من معناها الروحي. لأن في باطننا النفسي بذاراً روحياً يُجبلُ به بمحبة الله وخوفه وبعد الخاض يولد روح الخلاص. فعلى هذه الصورة ينبغي أن نفهم الآية التالية: «طوبى لمن له نسل في صهيون وأهل في اورشليم» (١٩٦). فإذا إذا؟ أحتى لو إن هذا كان زانياً أو سكيراً أو عابداً أو ثان يكون مغبوطاً، إذا كان له نسل في صهيون وأهل في اورشليم؟ إنه ليس ثمة من يحسن التفكير ويقول هذا القول!

البتولية - التي تضاهي سيرة الملائكة - أشرف من الزواج: - البتولية سيرة الملائكة وهي ميزة الطبيعة اللاجسمية. ونقول هذا ليس احتقاراً منا للزواج، حاشا! فنحن نعلم أن الرب في حضوره العرس قد بارك الزواج (١٩٧)، ونعرف قوله: «الزواج مكرّم والمضجع طاهر» (١٩٨). لكننا نعرف أيضاً أن البتولية أحسن مما هو حسن، فإن في الفضائل كما هو في الرذائل درجات عليا ودنيا. ونعلم أن البشر جميعاً ثمره الزواج عدا أبوينا الأولين. فإنها جبلة البتولية لا الزواج. لكن، كما قلنا، إن عدم الزواج تمثّل بالملائكة. إذاً فإن البتولية هي أكرم من الزواج على قدر ما يسمو الملاك على الإنسان.

١٨٦) تكوين ٨: ١٦	١٨٧) ٤ ملوك ٢: ١١	١٨٨) ٣ ملوك ١٧: ١	١٨٩) ٣ ملوك ١٧: ٢٢
١٩٠) ٤ ملوك ٢: ٨	١٩١) ٤ ملوك ٢: ٩	١٩٢) دانيال ٣: ٢٤	١٩٣) دانيال ٦: ٢٣
١٩٤) خروج ١٩: ١٥	١٩٥) العدد ٦: ٢	١٩٦) اشعيا ٣١: ٩	١٩٧) يوحنا ٢: ١ - ٢
١٩٨) عبرا ١٣: ٤			

المسيح شرف البتولية وقد ولد من أب وأم بتولين. - إنها لا توجد شريعة صادرة عن المسيح تلزم بحفظ البتولية.

ماذا ، أقول الملاك؟ - بل إنه المسيح نفسه ، فخر البتولية ليس مولوداً فحسب من الآب قبل الزمن ، وذلك بلا سيلان ولا مقارنة ، بل هو قد صار إنساناً مثلنا متجسداً من البتول لأجلنا بلا مقارنة . فحقق هو نفسه في ذاته البتولية الحقيقية الكاملة . ومن ثم لم يوصنا بها وهو القائل : « ما كل أحد يحتفل هذا الكلام » (١٩٩) . لكنه علّمنا إياها بعمله ومنحنا القوة في سبيلها . ومن ذا لا يتضح له اليوم أن البتولية سالكة بين البشر؟

مقابلة بين الزواج والبتولية : - إنه لحسن إنجاب البنين إذا كان في حال الزواج . وحسن الزواج لحسم الزنا ، واستكلاب الشهوة ، ذلك بمخالطة شرعية لا تتجاوزها إلى الانزلاق في أفعال لاشرعية . وحسن الزواج لمن فقدوا العفة . وأحسن منه البتولية لتنميتها النفس خصباً وتقديم الصلاة لله ، ثمرة ناضجة في حينها . و « ليكن الزواج مكرماً في كل شيء والمضجع طاهراً . فان الزناة والفاسق سيدينهم الرب » (٢٠٠) .

في الختان

لقد فُرض الختان على إبراهيم قبل الناموس وبعد البركة والوعد ، علامة تميّزه هو ونسله وأهل داره من الأمم الذين كان يعيش بينهم ^(٢٠١) . وهذا واضح ^(٢٠٢) . فلما عاش إسرائيل وحده في البرية مدة أربعين سنة ، لا يُخالط أمة أخرى ، كان جميع الذين وُلدوا في البرية لم يختنوا . ولما اجتاز بهم يشوع الأردن ، حينذاك اختنوا وكانت شريعة ثانية للختان . فإن شريعة الختان كانت قد أعطيت في عهد إبراهيم ثم توقفت في البرية مدة أربعين سنة . ومن ثم أعطى الله شريعة الختان ثانية ليشوع بعد اجتيازه نهر الأردن ، على ما كُتب في سفر يشوع بن نون : « في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لك سكاكين من صوّان واختن بني إسرائيل مرة أخرى » ^(٢٠٣) . وأضاف بعد قليل : « لأن بني إسرائيل ساروا أربعين سنة في البرية إلى أن انقرضت كل جماعة رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يطيعوا أمر الرب الذين أقسم الرب أن لا يريهم الأرض التي أقسم أن يعطيها أرضاً تدرّ لبناً وعسلاً . وبنوهم الذين أقامهم مكانهم هم الذين ختنهم يشوع لأنهم كانوا قُلُفًا إذ لم يختنوا في الطريق » ^(٢٠٤) . فيتضح من ثم أن الختان كان علامة تميّز إسرائيل من الأمم الذين كان يعيش بينهم .

الختان صورة المعمودية : - وكان الختان صورة للمعمودية . وكما أن الختان لا يقطع عضواً من الجسم مفيداً بل شيئاً زائداً لا طائل فيه ، كذلك نحن نحسمُ عنا الخطيئة بالمعمودية . وواضح أن الخطيئة - بما أنها زيادة في الشهوة - ليست شهوة مفيدة . لأنه لا يمكن أحداً ألا يشتهي البتة أو أن يكون خالياً تماماً من الشهوة . لكن ما لا فائدة منه في اللذة أو ما لا فائدة منه في الشهوة مع اللذة هذا هو الخطيئة التي تحسمها المعمودية المقدسة ، مانحة لنا على الجبين إشارة الصليب ، لا لتفصلنا عن الأمم - فإن المعمودية قد حصلت لكل الأمم وهم يختمون بإشارة الصليب - بل ذلك لتمييز المؤمن في كل أمة من غير المؤمنين . وعليه إذ قد اعتُلت الحقيقة ، فلا فائدة بعد للصورة والخيال ، حتى إن الختان نفسه قد أضحى بلا

فائدة ، خلافاً للعمودية المقدسة . «لأن من اختتن ملتزم بأن يعمل بالناموس كله» (٢٠٥) .
وقد اختتن الرب لكي يتم الناموس ، وقد حفظ الناموس كله والسبت لكي يتم الناموس
وبيثته (٢٠٦) . ومنذ أن اعتمد المسيح وظهر الروح القدس للبشر حلاً في صورة حمامة ،
فندلّز بدأ ملكوت السماوات مع العبادة والسيرة الروحيتين .

في المسيح الدجال

مفاهيم مختلفة عن المسيح الدجال. - اليهود سوف يقبلونه على أنه مسيحيهم : - ينبغي أن تعلم أن المسيح الدجال لا محالة آتٍ وأنه لمسيحٌ دجالٌ كل من لا يعترف أن ابن الله قد أتى بالجسد وأنه إلهٌ كاملٌ وأنه قد صار إنساناً كاملاً بعد أن كان إلهاً. ومع ذلك فبالمنعنى الخاص والحصري فإنهم يدعون المسيح الدجال ذلك الذي سوف يأتي في منتهى الدهر. ومن ثم ينبغي أن يركز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم^(٢٠٧)، كما قال الرب، ثم يأتي الدجال ليُحاجِّ اليهود مقاومي الله، فقد قال الرب لهؤلاء : «أنا أتيت باسم أبي فلم تقبلوني، وبأنيكم آخر باسم نفسه فذاك تقبلون»^(٢٠٨). وقال الرسول أيضاً : «لذلك يُرسل الله إليهم عمل الضلال حتى يصدّقوا الكذب. ويُدان جميع الذين لم يؤمنوا بالحق بل ارتضوا بالإثم»^(٢٠٩). فاليهود إذا لم يقبلوا الرب يسوع المسيح، على أنه ابن الله والله، ويقبلون الغاشم المدّعي بأنه الله. وقد سمى نفسه الله لأن الملاك الملقّن دانيال يقول هكذا : «لا يعبأ بأهله آباءه»^(٢١٠)، ويقول الرسول : «لا يتخذ عنكم أحداً بوجه من الوجوه، لأنه لا بد أن يسبق الارتداد أولاً، ويظهر إنسان الخطيئة ابن الهلاك المعاند المترفع فوق كل من يدعى إلهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس في هيكل الله ويُري من نفسه أنه هو الله»^(٢١١). هو يقول في هيكل الله - لا هيكلنا -، بل الهيكل القديم اليهودي، لأنه لا يأتي إلينا بل إلى اليهود. ليس لأجل المسيح، بل ضدّ الذين هم للمسيح. لذلك يدعى المسيح الدجال.

سيكون المسيح الدجال رجلاً حقيقياً : - وعليه ينبغي أن يركز بالإنجيل في جميع الأمم، «وحيثما يظهر الذي لا شريعة له ويكون مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبالعلامات والعجائب الكاذبة، وبكل خدعة ظلم في الهالكين، فيهلكه الرب يسوع بنفسه فيه ويُبطله بسنن مجيئه»^(٢١٢). وعليه فإن هذا ليس الشيطان يصير إنساناً على مثال تأنس الرب، حاشا ! بل هو إنسان يولد من زنى، ويتسلّم كل عمل الشيطان. وقد سبق الله وعلم شناعة اختياره فترك للشيطان أن يسكن فيه.

(٢٠٧) متى ٢٤ : ١٤ (٢٠٨) يوحنا ٤ : ٤٣ (٢٠٩) ٢ تسالوني ٢ : ١٠ - ١٢ (٢١٠) دانيال ١١ : ٣٧

(٢١١) ٢ تسالوني ٢ : ٣ - ٤ (٢١٢) ٢ تسالوني ٢ : ٨ - ١٠

الكتاب الرابع

بداية المسيح الدجال وامتداد نفوذه : - إذاً كما قلنا إنه سيولد من زنى ويتربى في الخفية ويثور فجأة ويستولي ويملك . وفي أوائل تملكه أو الأخرى تجربته يتظاهر بالعدل . وعندما تكون قد اتسعت سلطته يضطهد كنيسة الله ويظهر كل شره . « ويكون مجيئه بالعلامات والعجائب الكاذبة » (٢١٣) المضلة وغير الصادقة . ويخدع من كان أساس ذهنهم فاسداً وضعيفاً ويُبعدهم عن الله الحيّ و « يُضلّ المختارين لو أمكن » (٢١٤) .

محاربة أخنوخ وإيليا ضد المسيح الدجال : - وسيرسل الله أخنوخ وإيليا التشبيقيين قلوب الآباء إلى الأبناء ، أي شيوخ المجمع إلى ربنا يسوع المسيح وإلى كرازة الرسل . ولكنه سيقتلها . ثم يأتي الرب من السماء كما كان شاهده الرسل القديسون صاعداً إلى السماء ، إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً ، بمجد وقوة ، فيهلك بنفسه فيه الإنسان الزائف عن الشريعة وابن الهلاك . فلا يتوقع أحد إذاً مجيء الرب من الأرض بل من السماء ، على ما أكدّه لنا هو نفسه .

في القيامة

قيامة الأجساد للنفوس الخالدة : - ونؤمن أيضاً بقيامة الموتى . فإنها ستكون بالحقيقة قيامة الموتى . أجل ، إنها لستكون ! وبقولنا قيامة نعني قيامة الأجساد ، لأن القيامة قيامٌ ثانٍ لما قد سقط . وإلا كيف تقوم النفوس وهي خالدة ؟ ... ولما كان تحديد الموت انفصال النفس عن الجسد ، فإن القيامة تكون حتماً جمع النفس والجسد مجدداً وقياماً ثانياً للحي المحلول والساقط . إذاً إن الجسد نفسه المنفسد والمحلول هو نفسه يقوم بلا فساد . والذي في البدء جبله من تراب الأرض لا يعجز الآن - بعد أن انحلّ وعاد إلى الأرض التي أخذ منها - أن يعود صانعه هذا فيُقيمه مجدداً .

برهان عقلي على القيامة ، انطلاقاً من رعاية الله وعدله : - فإذا لم تكن قيامة ، فلنأكل ونشرب ونبادر إلى اللذة والعيش الرغيد^(٢١٥) ! إذا كان ليس قيامة ، فبماذا نتميز عن البهائم ؟ إذا كان ليس قيامة ، فلنعبث وحوش البرية التي تعيش بمعزل عن الهم . وإذا كان ليس قيامة ، فليس ثمة إله وليس رعاية ! والكل ينقاد ويندفع من ذاته ! فهذا نحن معظم الصديقين كادحين مظلومين ولا مكافأة لنا البتة في عيشنا الحاضر ، بينما نرى خطاة وظالمين يرغدون في الغنى وكل أنواع البذخ . فمن تراه من أصحاب الحكم السليم يعتقد أن عملاً مثل هذا يكون عن تمييز عادل وحكيم ؟ - إذاً ستكون قيامة ، أجل ، إنها ستكون ! لأن الله عادل وسيعطي ذاته جزاءً للصابرين . إذاً فإن النفس لو أنها وحدها قد قامت بأعمال الجهاد في سبيل الفضيلة ، لكانت هي وحدها تتكفل ، ولو أنها وحدها قد تمرغت بالملذات ، لكانت هي وحدها تعاقب عقاباً عادلاً . لكن النفس لم تبادر إلى الفضيلة ولا إلى الرذيلة بدون الجسد . فمن العدل إذاً أن ينال كلاهما معاً النصيب المعدّ لهما ، ثواباً أو عقاباً !

المراجع الكتابية : - يشهد الكتاب الإلهي أن ستكون قيامة الأجساد ، فيقول الله لنوح بعد الطوفان : « كبقول العشب أعطيكم الكل . ولكن لحماً بدمه لا تأكلوا . أمّا دماؤكم فأطلبها من يد كل وحشٍ أطلبها ومن يد الإنسان . أي إنسان قتل أخاه أطلب نفس الإنسان . إن يكن سافك دم الإنسان إنساناً فدمه يُسفك لأنه بصورة الله صنع

الإنسان» (٢١٦). كيف إذاً يطلب الله يد الإنسان من كل وحش لولا أن أجساد البشر الموتى تقوم؟ فإنّ الوحوش لا تموت بدل الإنسان.

وقال الله لموسى أيضاً: «أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب» (٢١٧). «والله ليس إله أموات» (٢١٨) أي إله الذين قد ماتوا ولا يكونون من بعد، لكنه «إله أحياء»، «الذين نفوسهم تعيش في يد الله» (٢١٩)، وأجسادهم تُبعث من جديد في القيامة. ويتجّه داود جدّ الإله بالكلام إلى الله قائلاً: «تقبض أرواحهم فيموتون وإلى ترابهم يرجعون» (٢٢٠). ثم يتابع قوله في الأجساد فيقول: «تُرسلُ روحك فيُخلَقون وتجدد وجه الأرض» (٢٢١). ويقول أشعيا: «ستحيا موتاك وتقومُ أشلافي» (٢٢٢). فواضح أن النفوس لا تكون أشلاء بل الأجساد.

ويقول حزقيال المغبوط: «وكان صوتٌ عند تبوّي وإذا بزلزالٍ فتقاربتِ العظام كلّ عظم إلى عظمه ورأيت فإذا بالعصب واللحم قد نشأ عليها ووسط الجلد عليها من فوق» (٢٢٣). ثم يخبر النبي كيف كان استدعاء الأرواح فحضرت.

ويقول دانيال الإلهي: «وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان. وفي ذلك الزمان ينجو شعبك، كل من يوجد مكتوباً في الكتاب. وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والردل الأبدى. ويُضيءُ العقلاء كضياء الجلد والذين جعلوا كثيرين أبراراً كالكوكب إلى الدهر والأبد» (٢٢٤). فيقوله كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون يتّضح أنه يدل على قيامة الأجساد، لأنه لا يمكن القول كيف ترقد النفوس في تراب الأرض.

غير أن الرب في أناجيله المقدسة قد سلّمنا تسليمًا ساطع الوضوح أنها ستكون قيامة الأجساد بقوله: «لا تتعجبوا من هذا لأنها ستأتي ساعة يسمع فيها جميع من في القبور صوت ابن الله فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (٢٢٥) ولا يقول أحدٌ ممن يحسنون التفكير بأن في القبور نفوساً!

(٢١٦) تكوين ٩: ٣-٦ (٢١٧) خروج ٣: ٦ (٢١٨) متى ٢٢: ٣٢ (٢١٩) حكمة ٣: ١
(٢٢٠) مز ١٠٣: ٢٩ (٢٢١) مز ١٠٣: ٣٠ (٢٢٢) أشعيا ٢٦: ١٩ (٢٢٣) حزقيال ٣٧: ٧-٨
(٢٢٤) دانيال ١٢: ١-٣ (٢٢٥) يوحنا ٥: ٢٨-٢٩

ولقد أظهر لنا قيامة الأجساد ليس بالقول فحسب ، بل بالعمل أيضاً . فهو أولاً قد أقام لعازر لأربعة أيام ، وكان قد فسد وأنق (٢٢٦) ، ولم يقيم نفسه بمعزل عن جسده ، بل جسده مع نفسه . وهو لم يقيم أحداً آخر ، بل قد أقامه هو هو نفسه ، وكان قد فسد . وكيف يا ترى تُعرف قيامة المائت وتحقق إذا كانت لا تثبت ميزاته الخاصة ؟ غير أن المسيح أقام أيضاً لعازر بغية إعلان لاهوته للإيمان بقيامته وبقيامتنا ، ثم يعيده إلى الموت في المستقبل . وبذلك صار الرب نفسه باكورة للقيامة الكاملة التي لا تخضع بعد للموت مطلقاً . فقد قال بولس الإلهي : «لأنه إن كان الأموات لا يقومون فالمسيح إذا لم يقيم . وإن كان المسيح لم يقيم ، فإيماننا باطل ونحن بعد في خطايانا» (٢٢٧) . و «لكن الحال أن المسيح قد قام من بين الأموات وهو باكورة الراقيين» (٢٢٨) و «هو المبدأ البكر من بين الأموات» (٢٢٩) . وأيضاً : «فإننا إن كنّا نؤمن أن يسوع قد مات ثم قام فكذلك سيحضر الراقيين بيسوع معه» (٢٣٠) وكلمة كذلك هنا معناها : كما قد قام المسيح .

وواضح أن قيامة الرب كانت اتحاد جسده الذي لا يفسد مع نفسه ، لأنها كانت منفصلين . وقد قال : «أنقضوا هذا الهيكل وأنا في ثلاثة أيام أقيمه» (٢٣١) والإنجيل المقدس يشهد في أماكن شتى بأنه كان يعني جسده الخاص . وفيما كان تلاميذه الأخصاء يظنون بأنهم يرون روحاً ، قال لهم الرب : «جسوتي وانظروا ، فإن الروح لا لحم له ولا عظام كما ترون لي» (٢٣٢) . ولما كان يقول لهم هذا ، أراهم يديه وجنبه وقدمها لتوما ليجسها (٢٣٣) . أفلم تكن هذه كلها كافية لحملنا على الإيمان بقيامة الأجساد ؟

ويقول الرسول الإلهي مجدداً : «لأنه لا بد لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد ولهذا المائت أن يلبس عدم الموت» (٢٣٤) . وأيضاً : «الزرع بفساد والقيامة بغير فساد . الزرع بهوان والقيامة بمجد . الزرع بضعف والقيامة بقوة . يُزرع جسد نفساني - أي كثيف ومائت - ويقوم جسدٌ روحاني» (٢٣٥) ، على مثال جسد المسيح بعد القيامة ، يدخل والأبواب مغلقة ، لا يتعب ولا يحتاج إلى أكل ولا نوم ولا شرب ، «لأنهم - يقول الرب - سيكونون كملأكة الله» (٢٣٦) حيث لا زواج ولا ولادة أولاد . ومن ثم يقول الرسول الإلهي : «أما

(٢٢٦) يوحنا ١١: ٣٨ (٢٢٧) ١ كور ١٥: ١٦-١٧ (٢٢٨) ١ كور ١٥: ٢٠ (٢٢٩) كولوسي ١: ١٨

(٢٣٠) ١ تس ٤: ١٤ (٢٣١) يوحنا ٢: ١٩ (٢٣٢) لوقا ٢٤: ٣٧ (٢٣٣) يوحنا ٢٠: ٢٧

(٢٣٤) ١ كور ١٥: ٥٣ (٢٣٥) ١ كور ١٥: ٤٢-٤٤ (٢٣٦) مرقس ١٢: ٢٥

الكتاب الرابع

نحن فسرنا في السماوات التي منها نتظر المخلص الرب يسوع المسيح الذي سيغير جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (٢٣٧). فلا يقول بتغيير إلى صورة أخرى، حاشا! بل بالأحرى بتحويل من الفساد إلى عدم الفساد.

تكون القيامة على مثال تكوين جسمنا: - ويقول قائل: «كيف يقوم الأموات؟» - يا للكفر، يا للجهل، إن الذي بإرادته فقط يحول التراب إلى جسم، ويأمر نقطة صغيرة من الزرع بأن تنمو في الرحم وتتحول إلى جسم بكامل أعضائه الكثيرة الأنواع والأشكال، ألا يُقيم من جديد ذلك الذي كان قد كونه وانحل، وذلك بمجرد أن يريد؟... «وبأي جسم يقومون؟» يا جاهل، إذا كان تحجرك لا يسمح لك بأن تؤمن بأقوال الله، فأمن أقله بأعماله: «فإن ما تزرعه أنت لا يحيا إلا إذا مات. وما تزرعه ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون، بل هو مجرد حبة من الحنطة مثلاً أو غيرها من البذور. إلا أن الله يجعل لها جسماً كيف شاء ولكل من الزرع جسمه المختص به» (٢٣٨). وعليه انظر إلى البذور مطمورة في الأنلام كما لو كانت في قبور، فمن الذي يضع لها أصولها وسوقها وأوراقها وسنبليها وحسكها الدقيق، أليس هو خالق الكل؟ والذي بأمره قد صنع الكل؟... فأمن إذاً بأن على هذه الصورة سوف تكون قيامتنا أيضاً وذلك بإرادته تعالى وبإشارة منه. فإن قوته هي طوع إرادته.

وبعد القيامة الدينونة والمكافأة على الأعمال: - بناءً عليه، إننا سنقوم عندما تتحد نفوسنا بأجسادنا التي أضحت غير بالية بانتزاع الفساد عنها. وسنمثل لدى منبر المسيح الراهب. ويدفع إبليس وشياطينه وإنسانه المدعو المسيح الدجال والكفرة والخطاة إلى النار الأبدية. أما الذين عملوا الصالحات فسيتأهلون كالشمس مع الملائكة في الحياة الأبدية مع ربنا يسوع المسيح، ناظرين إليه دائماً وهو ناظر إليهم، مجتنبين من لدنه السعادة التي لا تنتهي ومسيحين مع الآب والابن والروح القدس إلى دهور الدهور التي لا تحل. آمين.

الفكر المسيحي بين القديم والحديث

تضم هذه السلسلة مجموعة من المؤلفات القديمة والحديثة، التي تبحث في مختلف أبعاد الإيمان المسيحي، وتفسر مختلف مواضيع العقيدة المسيحية تفسيراً يتلاءم ومقتضيات العصر وتجيب على الأسئلة التي طرحها الفكر الانساني على مدى العصور. وتجمع هذه السلسلة كتباً مؤلفة مباشرة باللغة العربية، وكتباً مترجمة من مؤلفات كبار المفكرين واللاهوتيين القدماء والمعاصرين.

٥ - القديس يوحنا الدمشقي : المثة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي

تعريب الارشمندريت أدريانوس شكور، ق.ب.

«المثة مقالة في الايمان الارثوذكسي» هي الجزء الثالث من كتاب «ينبوع المعرفة» للقديس يوحنا الدمشقي، آخر آباء الكنيسة الشرقية (٦٧٥-٧٤٩). في الجزء الاول من تلك الموسوعة اللاهوتية يعالج القديس «علم القاسفة والمنطق»، وفي الجزء الثاني يسرد تاريخ معظم المروطقات. وهذان الجزءان هما بمثابة مقدمة للجزء الثالث الذي يعتبر الأهم من تلك الموسوعة، وفيه يعرض الدمشقي لمعظم عقائد الإيمان المسيحي: الله الواحد، الأقانيم الثلاثة، الخلق، الملائكة، العالم، الإنسان، سر الخلاص أو التجسد الإلهي، الإيمان، قيامة الأموات، تكميم الإيقونات والقديسين.

لقد كانت «المثة مقالة» على مدى العصور، ولا سيّما في الشرق المسيحي، الكتاب الأكثر استعمالاً لدراسة اللاهوت. وقد اقتبس منها ومن منهجيتها اللاهوت الغربي منذ القرون الوسطى. وتتميز هذه المقالات بأنها تبرز بوضوح الفكر اللاهوتي لآباء الكنيسة الشرقية منذ القرون الأولى حتى القرن السابع.

إن هذا الكتاب قد تُرجم مراراً في القرون السابقة الى اللغة العربية: إلا أن تلك الترجمات لا تزال كلها مخطوطة. إنها المرة الأولى التي يُنشر فيها هذا الكتاب مطبوعاً باللغة العربية.

في السلسلة عنها:

١ - الأب اغناطيوس ديك : الله حياتنا

٢ - الأب سليم بسترس : اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر

الجزء ١ : (الله الخالق - الشر والخبيثة الأصلية - يسوع المسيح)

الجزء ٢ : (الروح القدس - النعمة - الكنيسة) (يظهر قريباً)

الجزء ٣ : (الأمم - الحياة الأبدية) (يظهر قريباً)